المعارك والأسر بين العرب والروم

الدكتور رضا السيد حسن

المعارك والأسر بين العرب والروم
السيد حسن



المعارك والأسر
بين
العرب والروم

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com
رابط بديل
lisanerab.com

الدكتور رضا السيد حسن

المعارك والأسر بين العرب والروم

الدار العالمية
للطباعة والنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الاولى
١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - الحمراء - كومودور سنتر
هاتف ٣٤٩٧١٧ - ص.ب. ١١٣/٦٣٨١
لبنان - بيروت

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com
lisanerab.com رابط بديل

إهداء

الى زوجتي تقديراً ووفاءً .

والى كل حبة ترابٍ من جنوبنا الحبيب.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحرب ظاهرة اجتماعية صاحبت البشرية في تاريخها الطويل ، وقد دفع الانسان الى ذلك حب السيطرة والتغلب الذي كان يُقابل بالإباء وعدم الخضوع ، فقد أبى الانسان ان يذعن او يخضع لسيطرة انسان آخر ، فكان القتال يضع حداً لذلك بقتل احد المتخاصمين او اصابته او تطور الخلاف الفردي الى خلاف بين الجماعات والقبائل وهكذا ظهرت الحرب في القديم تتطور مفاهيمها وأساليبها مع تطور وتقدم العصور حتى انتهت الى قيام الدول ، ثم الى الحروب عصرية امتدت الى جميع القارات وطالت أكثرية الشعوب في العالم .

ولقد برزت قضية الاسرى كنتاج لتلك الحروب ، قديمها وحديثها ، وبرز التصدي لهذا الموضوع بالبحث عن الجوانب الانسانية لمعاملة الاسرى امراً مرغوباً فيه ، اضافة الى ما سمعت وما قرأت عن سوء معاملة للأسرى الذين وقعوا على يد اطراف النزاع في هذا البلد لبنان ، خلال سنوات الحرب الماضية (١٩٧٥ ـ ١٩٨٤) كبحث علمي ، وكانت رغبتي ان اتطرق الى هذا الموضوع بالذات الا ان ظروفاً موضوعية حالت دون ذلك وهذا لم يمنعني من الاقدام على البحث في نفس الموضوع وبالرجوع الى فترة شهدت صراعاً طويلاً بين دولتين متجاورتين خلال فترة تزيد عن ثلاثة قرون الا وهما الدولة الاسلامية ، والامبراطورية البيزنطية وتخلل تلك الاحداث وقوع العديد من الاسرى لا سيما وان هناك غموضاً في الاخبار عنها وندرتها وعدم وضوح صورتها وضوحاً كاملاً .

فالمؤرخون يركزون على الحروب ايام العباسيين داخلياً وخارجياً ويمرون بأخبار الاسرى مروراً سريعاً لا يشفي غلة . وعندما اقدمت على بحثي هذا لم أكن أجهل ان البحث في هذا الموضوع شاق وان المصادر قليلة ونادرة . كما ان له جوانب انسانية خاصة يجب ان تعالج بدقة وموضوعية ، غير اني اقدمت على ذلك متسلحاً بالولاء للحقيقة ساعياً لاستخلاص نتائج معاملات الاسرى لدى الطرفين العربي والبيزنطي خلال ثلاثة قرون ونصف من الزمن تبدأ بخلافة المنصور وتنتهي في موقعة ما نزكرت ٤٦٣هـ / ١٠٧١ م وما رافقها من معاهدات وعقود الهدن والامان التي تليت عمليات الاسر وما استتبع ذلك من مواثيق ومراسلات وعمليات الفداء . آملاً ان أكون قد استوفيت بحثي من جميع جوانبه .

والله ولي التوفيق .

رضا السيد حسن .

التمهيد

لم يظهر الصراع العربي الرومي ابان الحكم العباسي ، بل هو صراع قديم ، يمكن ان تؤرخ بدايته الى بداية ظهور الاسلام ، الذي جاء بمبدأ « الجهاد في سبيل الله » الذي رفعه الاسلام متى تحققت اسبابه وبواعثه ، فخرج المسلمون من شبه جزيرتهم لمقاتلة كل من وقف عقبة في طريق اقامة المجتمع الاسلامي ، وذلك لعدم الانسجام بين هذا المجتمع وما هم المشركون عليه من الحاد ووثنية . أما اهل الكتاب فيكفي خضوعهم للمجتمع الاسلامي وانضواؤهم في دولته على أن يدفعوا الجزية ، كما كان يدفع المسلمون الزكاة(١) .

وهكذا كانت الحروب والغزوات حتى صارت حدود الدولة الاسلامية الناشئة ابعد ما تكون عن مركز الخلافة في الحجاز ، فاضطر معاوية الى اتخاذ دمشق عاصمة له حين انتهت اليه الخلافة(٢) .

ولقد كان تأمين هذه الحدود امراً لازماً لأنه منها تنطلق الغزوات وتمتد الفتوح . ففي العام التاسع للهجرة قام صاحب تبوك بحشد جموع كبيرة من الروم في المناطق الشامية الواقعة على تخوم الحجاز ، فكانت غزوة تبوك التي قام

---

(١) البوطي ، محمد سعيد رمضان فقه ألسيرة ص ١٧٠ .

(٢) المحاسني ، زكي شعر الحرب في ادب العرب ص ١٣٢ .

بها النبي بنفسه[1] في الوقت الذي لم يكن هناك دولة مجاورة قادرة على تهديد أمن الحدود ومناوأة المسلمين سوى دولة الروم الشرقية التي استطاع المسلمون ان يسلخوا عنها الأراضي السورية منذ عهد عمر بن الخطاب ومنذ ذلك الوقت بدأ الصراع العربي الرومي ، فالعرب يرون انهم مطالبون بجهاد الكفار ومحاربة المشركين اعداء الرسول الذين عارضوه واضطهدوا اتباعه وأرغموهم على الهجرة الى الحبشة مرتين ، ودفعوا الرسول الى البحث عن دار هجرة ويتمثل هذا القول في قوله تعالى : ﴿ **اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله**[2] .

ولقد رأى المسلمون ان القسطنطينية عاصمة بلاد الروم هي القلعة الحصينة الواجب غزوها وعرض الاسلام على أهلها . والروم كانوا يستشعرون الخطر على كيانهم ودولتهم ودينهم فيتربصون بالمسلمين ويحشدون قواهم ويشنون حملات على الحدود الاسلامية ان لم تحقق لهم استخلاص ما فقدوه من البلاد السورية ، فلا أقل من ان تقوم الحرب الوقائية[3] .

ولان بلاد الروم كانت تشمل آسيا الصغرى ، كثيرة الجبال ، وعرة المسالك ، شديدة البرودة شتاء كان انسب وقت يقوم فيه العرب بغزواتهم لهذه البلاد « فصل الصيف » ومن ثم اطلق على هذه الغزوات او على المحاربين المشتركين فيها اسم « الصائفة » او « الصوائف » التي تتابعت بصفة دورية فلم تعد تنقطع الا لخطر بالغ تواجهه الدولة الاسلامية في داخلها[4] .

ومنذ عهد عمر بن الخطاب صار غزو الصائفة عملاً تقليدياً يحرص عليه خلفاء المسلمين من الامويين الى العباسيين ، وأول صائفة وجهها عمر بن

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٧١ .
(٢) سورة الحج ، آية ٣٩ .
(٣) المحاسني ، زكي شعر الحرب في أدب العرب ص ١٣٢ .
عثمان ، فتحي الحدود الاسلامية البيزنطية ج ٢ ص ١١ .

الخطاب الى بلاد الروم ٢١ هـ . جعل قيادة الجيش فيها لـ عمير بن سعد الانصاري ، ولم يتهيأ للخليفة نفسه الخروج على رأس هذه الغزوة الصيفية فانه كان يعقد لواء الجيش لأحد من اقربائه والا فلقائد من قواده الذين يثق في مقدرتهم[١] .

ولقد اهتمت المصادر العربية بايراد اخبار الصوائف والشواتي (حملات الشتاء مفصلة) فالبلاذري ذكرها في سياق حديثه عن فتوح البلدان بلداً بلداً ، والطبري اوردها على طريقة الحوليات سنة فسنة ، وإبن الاثير اورد ما رواه البلاذري في ثنايا حولياته ، أما اليعقوبي فقد اختصت هذه الحملات بوضع خاص في نهاية حكم كل خليفة ، كما جعل لها ابن كثير في « البداية والنهاية » موضعاً خاصاً في مدخل اخبار كل سنة .

ولقد ظلت هذه الغزوات دأب الامويين ومن بعدهم العباسيين وحققوا فيها انتصارات حيث كانت المنطقة الممتدة بين قسطنطينة وانطاكية مسرحاً لحروبهم مع الروم وفتحوا كثيراً من البلدان كخرشنة ، وعمورية ، وسلوقية وقيسارية وغيرها .

ولقد مدح الاخطل الوليد بن عبد الملك ، وفي مدحه ما يؤكد ان هذه الغزوات الصيفية لبلاد الروم كانت قد صارت تقليدية حيث قال :

وفي كل عامٍ منك للروم غزوة بعيدة آثار السنابك والسرب
وان لها يومين : يوم قيامة ويوماً تشكى القضّ من حذر الدرب[٢]

وعلى الرغم من ان العرب في العصر الاموي وصلوا الى القسطنطينية وضربوا عليها الحصار في غزواتهم فانهم لم يتمكنوا من اقتحامها والايقاع بها ، وكان صمودها بسبب قيام قسطنطين الرابع بتزويد خزائنها بالمؤن والعتاد واصلاحه اسوارها قبل هجوم المسلمين بزمن يسير ، ومن العوامل المهمة التي

(١) المحاسني ، زكي شعر الحرب في أدب العرب ص ١٣٣ .
(٢) المحاسني ، زكي شعر الحرب في أدب العرب ص ١٣٣ .

انقذت القسطنطينية من الحصار العربي هو (النار الاغريقية) التي كان قد توصل اليها سوري نازح الى القسطنطينية يدعى Callinicus حيث كانت السفن البيزنطية تقذف السفن العربية بهذه المادة التي تزداد اشتعالاً[1] .

ولقد استفاد الروم من متاعب المسلمين الداخلية في أواخر العهد الاموي ، وصارت حالة العواصم والثغور خاتمة أليمة لتاريخ الاسلام .

وقد وصل البلاذري[2] تاريخ الثغور في عهد العباسيين بما انقطع من أمجادها أيام الامويين قائلاً : « كانت بنو أمية تغزو الروم بأهل الشام والجزيرة صائفة وشاتية مما يلي ثغور الشام والجزيرة وتنيم المراكب الغزو وترتب الحفظة في السواحل ويكون الاغفال والتفريط خلال الحذر والتيقظ ، فلما ولي أبو جعفر المنصور تتبع حصون السواحل ومدنها فعمرها وحصّنها وبنى ما احتاج الى البناء منها وفعل مثل ذلك بمدن الثغور ، ثم لما استخلف المهدي استتم ما كان بقي من المدن والحصون وزاد في شحنها ، قال معاوية بن عمرو : وقد رأينا من اجتهاد امير المؤمنين هارون في الغزو نفاذ بصيرته في الجهاد امراً عظيماً أقام من الصناعة ما لم يقم قبله وقسم الأموال في الثغور والسواحل وأشجى الروم وقمعهم وأمر المتوكل على الله بترتيب المراكب في جميع السواحل وان تشحن بالمقاتلة وذلك في ٢٤٧ هـ » .

وكانت المواقع الدفاعية التي تقع على الحدود بين العرب والروم تسمى الثغور ، وفيها كانت تنشأ الاربطة ، وهي أماكن تجمع المسلمين الذين نذروا انفسهم للجهاد بدافع شخصي والثغور[3] هي مواقع محصنة بالاسوار والقلاع وفيها المحاربون المرتزقة الذين تنتدبهم الدولة لحراسة الحدود وتدفع لهم رواتب وكانت الثغور نوعين : ثغوراً برية وثغوراً بحرية وفيها كانت تقع الحروب بين

عثمان ، فتحي الحدود الأسلامية البيزنطية ج ٢ ص ٥٠ .

(٢) البلاذري فتوح البلدان ص ١٦٧ .

(٣) جمع ثغر : الثغر كما جاء في معجم البلدان ج ٢ ص ٧٩ : هو كل موضع قريب من أرض العدو وهو يشمل بلادا كثيرة ولا قصبة لها لأن اكثر بلادها متساوية ومن مدنها : المصيفة ـ عين زربه ـ اذنه ـ طرسوس والجوزات والكنيسة السوداء والهارونية .

العرب والروم ، ومن أجل ذلك كوّنت هذه المناطق بيئة لها طبيعتها الخاصة ، وكان لها آثار بعيدة المدى في حياة الشعبين العربي والرومي ، كما كانت مجالاً للصراع الحربي بين الشعبين وللاحتكاك الحضاري والاجتماعي والفكري والفني[1] .

أما العواصم فهي حصون موانع وولاية تحيط بها بين حلب وانطاكية وقصبتها انطاكية ، كان قد بناها قوم واعتصموا بها من الأعداء وأكثرها في الجبال فسميت بذلك[2] .

ولقد كانت الحدود بين بلاد المسلمين والروم في ايام بني امية والعباسيين الاوائل تتألف من سلسلتي جبال طوروس وطوروس الداخلية Antitourus وكانت الثغور خطاً طويلاً يحمي هذه الحدود فيميل من ملطية على الفرات الاعلى الى طرسوس بالقرب من ساحل البحر المتوسط ، وكان الروم يحتلون هذه القلاع تارة والمسلمون تارة أخرى ، وكان الفريقان بين كرٍ وفر .

ومن ثغور الجزيرة : ملطية ـ زبطرة ـ حصن منصور ـ الحدث ومرعش ـ الهارونية ـ الكنيسة وعين زربة ، ومن الثغور التي كانت تحمي الشام وبالقرب من الساحل الشمالي لخليج الاسكندرونة ـ المصيصة ـ أذنة وطرسوس[3] .

أما العواصم فيقصد بها سلسلة الحصون الداخلية الجنوبية ، بطرقها الحربية ، لأنها تعصم الحدود وتعينها على صد غارات البيزنطيين ، وبذلك تتميز عن الحصون الشمالية الخارجة الملاصقة للحدود البيزنطية المسماة بالثغور ، ولم تكن الحدود الاسلامية البيزنطية خطاً مفرداً كحدود الدول الحديثة ، وانما كانت تخوماً نهاياتها غير محدودة ، ولا ثابتة تمتد على عمق كبير ، او يسير مسايرة في معظمها منحنى جبال طوروس ما بين البحر المتوسط حتى سلسلة طوروس الارمنية ، وأرمينة كانت تعد اقليم حدود بين الامبراطوريتين حيث كان يتعاقب او يتعاصر النفوذ الاسلامي والنفوذ البيزنطي[4] .

---

(١) اسماعيل ، عز الدين : في الأدب العباسي ، ص ١٣٢ .

(٢) ياقوت معجم البلدان ج ٤ . ص ١٦٥ .

(٣) عثمان ، فتحي الحدود الاسلامية البيزنطية ج ١ ص ١٣٢ .

(٤) نفس المرجع . ص : ١٣٢ .

على هذه الحدود كانت المعارك والغزوات بين العرب والروم تجري وتأخذ ابعاداً خطيرة ، من قتل وتدمير ، وأسر ، وسبي ، لتعود فتهدأ ثم تبدأ من جديد مستمرة خمسة قرون من الزمن لتعود حرباً صليبية بين الشرق والغرب .

الباب الاول

المعارك والاسر بين العرب والروم في العصر العباسي

الفصل الاول : المعارك والاسر في المرحلة الاولى
الفصل الثاني : المعارك والاسر في المرحلة الثانية
الفصل الثالث : المعارك والاسر في المرحلة الثالثة

المعارك والاسر في المرحلة الاولى :
(١٣٦هـ - ٢٤٧هـ / ٧٥٤م . - ٨٦١م .)

مقدمة :

تشمل المرحلة الاولى من المعارك الفترة التي كان فيها رجحان كفة المسلمين في ميدان العمليات الحربية والتي تمتد حتى منتصف القرن الثالث الهجري والتي انتهت بوفاة الخليفة المتوكل ٢٤٧هـ / ٨٦١م . ، حيث كانت الحروب مستديمة الا في الاحوال التي كانت تضطرب فيها الحال الداخلية في احدى الدولتين . وقد عرف هذا العصر بعصر الخلفاء العباسيين العظام ، اذ شهد سيطرة العنصر الفارسي الذي قامت عليه الدولة العباسية وغلبته على جميع مناهي الحياة ادبية ومادية(١) . . وفي الجانب البيزنطي كان الصراع حول المشكلة الإيقونية قد ادى الى اتساع الفجوة بين الشرق اليوناني والغرب اللاتيني الى ان اعتلى عرش الامبراطورية قسطنطين الخامس (٧٤١م - ٧٧٥م) الذي عقد مجمعاً دينياً ١٣٥هـ / ٧٥٣م . في قصر هيريا على الشاطىء الآسيوي للبسفور ، هذا المجمع الذي قرر ادانة الايقونات وتحريمها ، وعزل كل من لا يطبق هذه القرارات من رجال الدين ومحاكمته . وكان لهذا القرار اثر كبير على هجرة عدد كبير من الرهبان الى مختلف الجهات البعيدة التي كانت في مأمن من الامبراطور بعد قيامه بتعذيبهم ومصادرة أملاكهم(٢) .

(١) سالم ، السيد عبد العزيز تاريخ الدولة العباسية ص ٤ .

(٢) عاشور ، سعيد تاريخ الدولة البيزنطية ص ١٤٢ - ١٤٣ .

أغار الروم بقيادة ملكهم ١٣٨ هـ / ٧٥٦م على ملطية ، وكانت من الثغور الاسلامية ، فدخلوها وقهروا اهلها وهدموا اسوارها ، لكن الملك عفا عمن فيها من المقاتلة والذرية ، ولما علم المنصور بذلك ، اغزى الصائفة عمه صالح بن علي ومعه اخوه العباس بن علي فبنى ما كان صاحب الروم هدمه من ملطية . وأقام في استتمام ذلك الى ١٣٩ هـ[١] .

وفي ١٤٠ هـ غزا الصائفة الحسن بن قحطبة ، مع عبد الوهاب بن ابراهيم الامام ، وأقبل قسطنطين صاحب الروم ، في جيش كثيف ، فنزل جيحان ، فبلغه كثرة المسلمين فأحجم عنها ، ثم لم تكن صائفة بعد ذلك الى ١٤٦ هـ لاشتغال المنصور بأمر محمد بن عبد الله العلوي في المدينة وأخيه ابراهيم في البصرة[٢] اللذين بدءا يناوءان العباسيين لأنهما اعتبرا ان العباسيين خدعوا العلويين واستأثروا بالخلافة دونهم ، فاهتم المنصور اهتماماً خاصاً بالقضاء على الحسينين[٣] ثم استؤنفت الصوائف بطريقتها التقليدية ١٥٣ هـ ، حيث خرج « معيوف بن يحيى الحجوري » فوصل الى حصن من حصون الروم ليلاً ، فوجد أهله نياماً ، فسبى منهم ستة آلاف سوى الاسرى من الرجال[٤] وواصلت الدولة العباسية ضغطها على الدولة البيزنطية حتى اضطر الامبراطور قسطنطين ان يطلب الصلح من الخليفة المنصور وان يؤدي اليه الجزية ١٥٥هـ[٥] .

وهكذا ظلت الحروب بين الطرفين مجرد غارات يتجاوز فيها كل طرف حدوده ، ويحدث ما يحدث من تخريب ودمار ، ثم يعود ادراجه دون ان يحقق كسباً حقيقياً .

---

(١) الخضري ، محمد محاضرات في تاريخ الامم الاسلامية - الدولة العباسية ص ٧٩ - ٨٠ .
(٢) اسماعيل ، عز الدين في الأدب العباسي ص ١٣٢ .
(٣) سالم ، السيد عبد العزيز . تاريخ الدولة العباسية ص ٤٨ .
(٤) الطبري تاريخ الرسل والملوك ج ٨ . ص ١٤٣ ابن الاثير الكامل ج ٥ . ص ٦١٠ .
(٥) نفس المصدرج : ٨ ص : ٤٦ .

سنة ١٥٩ هـ تولى المهدي الخلافة واستهلها بإرسال العباس بن محمد الى بلاد الروم في جيش كثيف ، وركب معهم مشيعاً . فساروا اليها فافتتحوا مدينة عظيمة للروم وغنوا غنائم كثيرة ورجعوا سالمين لم يفقد أحد منهم(١) .

وفي سنة ١٦١ هـ غزا الصائفة ثمامة بن الوليد ، فنزل دابق ، وجاشت عليه الروم فلم يتمكن المسلمون من الدخول اليها بسبب ذلك(٢) .

وفي سنة ١٦٣ هـ أغزى المهدي ابنه هارون ، فحاصر أهل « سمالو » فسألوا الامان لعشرة أبيات فيهم القومس . فأجابهم الى ذلك . وكان لأهل « سمالو » شروط ان لا يفرق بينهم ، فانزلوا بغداد على باب الشماسية ، ويقال نزلوا على حكم المهدي فاستحياهم ، وجمعهم بذلك الموضع ، وأمر أن يسمى سمالو . وأمر الرشيد فنودي على من بقي في الحصن فبيعوا ، وأخذ حبشي كان يشتم الرشيد والمسلمين فصلب على برج من أبراجه(٣) .

وفي سنة ١٦٥ هـ توغل الرشيد في بلاد الروم حتى بلغ خليج القسطنطينية بجيش يقارب المائة الف رجل ، وكان معه من النفقة مائة الف دينار وأربعة وتسعون الف دينار وأربعماية وخمسون ديناراً ومن الفضة احدى وعشرون الف واربعمائة الف وأربعة عشر الفاً وثمانمائة درهم ، فبلغ بجنوده خليج البحر الذي على القسطنطينية وصاحب الروم يومئذ امرأة أليون « ايريني » نيابة عن ابنها ، فجرت بينها وبين هارون مكاتبات في طلب الصلح والموادعة واعطاء الفداء ، فقبل الرشيد ذلك ، بعدما قتل من الروم في الوقائع ٥٤ الفاً وأسر من الذراري ٥٦٤٤ رأساً وقتل من الاسرى الفي قتيل(٤) .

ولقد ذكر مروان بن أبي حفصة - شاعر العباسيين - هذه الغزوة فقال :

---

(١) ابن كثير . البداية والنهاية ج ١٠ ، ص ١٢٩ .
(٢) المصدر السابق . ج ١٠ ص ١٣٣ .
(٣) البلاذري . فتوح البلدان . ص ١٧٥ .
(٤) الطبري . تاريخ الرسل والملوك . ج ٩ . ص ٣٤٥ . ابن كثير . البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٤٧ .

أطفت بقسطنطينية الروم مسنداً اليها القنا حتى اكتسى الذل سورها
وما رمتها حتى أتتك ملوكها بجريتها والحرب تغلي قدورها

وعاد هارون ١٦٦ هـ وقدّم الروم الجزية(١) .

وفي ١٦٨هـ نقضت الروم ما تم بينهم وبين المسلمين من الصلح ، الذي عقدوه مع الرشيد عن أمر أبيه ولم يستمروا الا اثنين وثلاثين شهراً ، فبعث نائب الجزيرة خيلاً الى الروم وقتلوا وأسروا وغنموا وسبوا(٢) . وكان نائب الجزيرة آنذاك يزيد بن بدر البطال . وهكذا وصل المسلمون في عهد المهدي الى القسطنطينية وحاصروها ، وهددوها مثل ما حدث من قبل في عهد الامويين .

في عهد الخليفة هارون الرشيد (١٧٠هـ - ١٩٣هـ) (٧٨٦م - ٨٠٩م) .

في هذه الفترة تسلم نقفور ملك الروم السلطة بعد خلع الملكة ايريني ، وكان ذلك سنة ١٨٦ هـ . وساءت الاحوال بينه وبين الرشيد بعد الرسالة التي ارسلها الى الرشيد ، ورد الرشيد عليها(٣) .

وفي سنة ١٨٧ هـ دخل القاسم بن الرشيد أرض الروم في شعبان فأناخ على حصن قرّة وحاصرها ووجّه العباس بن محمد بن الاشعث فحاصر حصن سنان وبعدما اصاب أهله جوع شديد وعوز وغلاء دفع الروم اليه ثلاثمائة وعشرين اسيراً من المسلمين على ان يرحل عنهم فأجابهم ورحل عنهم صلحاً(٤) .

ولقد خرج الرشيد في غزوة تأديبية في بلاد الروم بعدما نقض نقفور ملك الروم الموادعة التي تمت بين الرشيد وبين « ايريني » فطلب نقفور الموادعة من

---

(١) الطبري . تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٣٤٥ . ابن كثير . البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٤٧ .

(٢) ابن كثير . البداية والنهاية ج ١٠ ، ص ١٥٠ .

(٣) انظر الفصل المتعلق بالرسالات المكتوبة .

(٤) ابن الاثير . الكامل ج ٦ ص ٧٣ - ٧٤ . الطبري . تاريخ الرسل والملوك ج ٨ . ص ٣٠٧ . السيوطي . تاريخ الخلفاء ص ٢٦٨ . اليعقوبي . تاريخه ج ٢ ص ٤٢٣ .

جديد على جزية يؤديها كل سنة ، فقبل الرشيد ذلك . ولكنه ما كاد يرجع بجيشه الى الرقة حتى كان نقفور قد نقض الاتفاق من جديد ، فاحتالوا بالشاعر أبي محمد بن عبد الله بن يوسف كي يبلغ الرشيد الخبر فقال بين يديه :

نقض الذي أعطيته نقفور ... وعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فانه ... فتح أتاك به الإله كبير
فلقد تباشرت الرعية ان اتى ... بالنقض عنه وافد وبشير
ورجت يمينك ان تعجّل غزوة ... تشفي النفوس ، مكانها مذكور
أعطاك جزيته وطأطأ خدّه ... حذر الصوارم والردى محذور

الى ان يقول :

نقفور انك ـ حين تغدو ان نأى ... عنك الامام ـ لجاهل مغرور
اظننت حين عذرت انك مفلت ؟ ... هبلتك أمك ! ما ظننت غرور
ان الامام على اقتسارك قادر ... قربت ديارك أن نأت بك دور
ليس الامام وان غفلنا ـ عاقلاً ... فعدوّه ابداً به مقهور[1]

ثم تحرك الرشيد الى هرقلة وفتحها سنة ١٩٠ هـ وأخربها وكان ذلك في شوال بعدما حاصرها ثلاثين يوماً وسبى اهلها وكان قد دخل البلاد في مائة الف وخمسة وثلاثين الفا من المرتزقة سوى الاتباع والمتطوعة ومن لا ديوان له واناخ عبد الله بن مالك على ذي الطلاع ووجه داود بن عيسى بن موسى سائراً في ارض الروم يخرب وينهب . واستعمل حميد بن معيوف على سواحل الشام ومصر فبلغ قبرص فهدم وأحرق وسبى من أهلها سبعة عشر الفاً فأقدمهم الرافقة فبيعوا وبلغ فداء قبرص الفي دينار ، ثم سار الرشيد الى طوانة فنزل بها ثم رحل عنها وخلف عليها عقبة بن جعفر وبعث نقفور بالخراج والجزية عن رأسه اربعة دنانير وعن رأس ولده دينارين وعن بطارقته كذلك وكتب نقفور في جارية من سبي هرقلة كان خطبها لولده فأرسلها الرشيد اليه[2] .

---

(١) اسماعيل ، عز الدين . في الأدب العباسي . ص ١٣٤ ـ ١٣٥ .

(٢) ابن الاثير . الكامل ج ٦ . ص ٧٨ .

وفي سنة ١٩١ هـ غزا يزيد بن مخلد الهبيري ارض الروم في عشرة آلاف فأخذت الروم عليه المضيق فقتلوه وخمسين رجلاً وسلم الباقون وكان ذلك على مرحلتين من طرسوس . وفي نفس السنة اغارت الروم على مرعش (بعد تولية سعيد بن مسلم بن قتيبة) فأصابوا من المسلمين وانصرفوا ولم يتحرك سعيد من موضعه وبعث محمداً بن يزيد بن مزيد الى طرسوس وأقام الرشيد بدرب الحدث ثلاثة من رمضان وعاد الى الرقة بعدما أمر بهدم الكنائس بالثغور وأخذ أهل الذمة بمخالفة هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم . . . ثم أمر بإعادة بنائها سنة ١٩٢هـ وبنى مسجدها . . (١) .

وفي سنة ٢٠١ هـ سيّر زيادة الله بن الاغلب من افريقيا الى صقلية ابا الاغلب ابراهيم بن عبد الله فوصل اليها في منتصف رمضان فبعث اسطولاً فلقوا جمعاً من الروم في اسطول فغنم المسلمون ما فيه فضرب ابو الاغلب رقاب كل من فيه وبعث اسطولاً آخر الى قوصرة فظفر بحراقة فيها رجال من الروم ورجل متنصر من أهل افريقيا فأتى بهم فضرب رقابهم وسارت سرية اخرى الى جبل النار والحصون التي في تلك الناحية فأحرقوا الزرع وغنموا وأكثروا القتل ، ثم سيّر أبو الاغلب سنة ٢٠٢ هـ . الى جبل النار ايضاً فغنموا غنائم عظيمة وفتحوا مدناً ومعاقل وعادوا سالمين . وفي نفس السنة سيّر ابو الاغلب سرية الى قسطلياسة فغنموا وسبوا . . . ثم كانت وقعة بين الروم والمسلمين فانهزم الروم وغنم المسلمون تسعة مراكب كبار برجالها(٢) .

وهكذا لم يكن الصراع الحربي بين العباسيين والروم في عهد الرشيد ينتهي الا لكي يبدأ .

في عهد المأمون (١٩٧هـ - ٢١٨هـ) (٨١٣م - ٨٣٣م) :

خلت السنوات الثلاث الاولى من خلافته من الحرب مع الروم ولكنه خرج بنفسه سنة ٢١٥هـ متوجهاً الى ارض الروم في شهر المحرم بعد ان استخلف

(١) نفس المصدر السابق ص ٨٢ .

(٢) ابن الاثير . الكامل ج ٦ ص ١٣٨ - ١٣٩ .

على بغداد اسحاق بن ابراهيم بن مصعب . واجتاز المأمون في طريقه منبج ثم دابق ثم انطاكية ثم المصيصة ثم طرسوس (وهي احد الثغور على الحدود العربية - الرومية) وأخذ يتوغل في بلاد الروم وافتتح انقرة نصفاً بالصلح ونصفاً بالسيف وأخربها وهرب منويل البطريق منها وفتح حصن الشمال ثم انصرف الى دمشق حيث اتاه الخبر ان أهل البشرود من كور مصر قد ثاروا . . . فانصرف الى مصر سنة٢١٦ هـ وحارب أهل البشرود[١] . وبينما كان في طريقه الى بلاد الروم بلغ هرقلة التي استسلم اهلها وطلبوا الصلح في حين افتتح اخوه اسحاق عدداً كبيراً من الحصون كما اغار وزيره يحيى بن أكثم غارات غنم فيها[٢] .

وفي نفس السنة ٢١٦ هـ عدا ملك الروم (توفيل بن ميخائيل) على جماعة من المسلمين فقتلهم في ارض طرسوس وكانوا نحوا من الف وستمائة انسان ولما علم المأمون بذلك نهض الى بلاد الروم وافتتح بلاداً كثيرة وأسر خلقاً وحرق حصوناً وعاد الى العسكر[٣] وقيل ان سبب دخوله بلاد الروم ان ملك الروم كتب اليه بدأ بنفسه فسار اليه ولم يقرأ كتابه[٤] قائلاً : لا أقرأ له كتاباً يبدأ فيه باسمه ورده[٥] .

وفي سنة ٢١٧ هـ . ركب المأمون الى بلاد الروم فحاصر لؤلؤة مائة يوم ثم ارتحل عنها واستخلف على حصارها عجيفاً فخدعته الروم وأسروه ، فأقام في أيديهم ثمانية ايام ثم انفلت منهم واستمر محاصراً لهم ، فجاء ملك الروم بنفسه فأحاط بجيشه من ورائه ، فبلغ المأمون ذلك فسار اليه ، فلما أحسّ تيوفيل بقدومه هرب وبعث وزيره صنفل فسأله الأمان والمصالحة ، لكنه بدأ بنفسه قبل المأمون فرد عليه المأمون بكتاب تضمن تقريعاً وتوبيخاً « اني اجهل انما اقبل منك الدخول في الحنيفة والا فالسيف والقتل والسلام على من اتبع الهدى »

---

(١) اليعقوبي . تاريخه ج ٢ ص ٤٦٥ .
(٢) اسماعيل ، عز الدين . في الأدب العباسي ص ١٣٦ .
(٣) ابن كثير . البداية والنهاية ج ١٠ ص ٢٧٠ .
(٤) ابن الاثير . الكامل ج ٦ ص ١٧١ .
(٥) اليعقوبي . تاريخه ج ٢ ص ٤٦٥ .
(٦) ابن كثير . البداية والنهاية ج ١٠ ص ٢٧١ - ٢٧٢ .

وغـزا المأمـون بلاد الـروم سنة ٢١٨ هـ . وقـد استعد لحصـار عمـوريـة وقال : « اوجه الى العرب فآتي بهم من البوادي ثم أنزلهم كل مدينة افتحها حتى أخرب القسطنطينية ، فأتاه ملك الروم يدعوه الى الصلح والمهادنة ودفع الاسرى الذين عنده فلم يقبل ، فلما قرب من لؤلؤة اقبـل فأقـام ايامـاً وتوفي في مـوضع يقال له البدندون بين لؤلؤة وطرسوس وكانت وفاته يـوم الخميس لثلاث عشـرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢١٨ هـ .[1] .

ولقد ردّ ماريوس كنار على ما روته المصادر العربية من ان سبب الغـزوات بدء الامبراطور بالكتابة الى الخليفة بادئاً بنفسه او أخرَّ اسمه عن اسمه في الرسالة او أن وفـد ملك الروم عـرض على المـأمون خمسمـائة اسـير فيقول انـه يشـك في النقطة الاولى لأن الطبـري ذكر سببـاً آخر هـو انتهاب طـرسوس . وعن النقـطة الثانية يشك لأنه في اعتقاده ان عرض الـ ٥٠٠ اسيرٍ لا محل له الا اذا كان سبب الحرب هو تأخير اسم الخليفة عن اسمه مختتماً بأن الامبـراطور بعـد اخفاقـه اولاً أراد ان يستميل الخليفة بـ ٥٠٠ اسير ، علماً بأن هـذه الوقـائع كـانت قبل يـوليه عام ٨٣١م / ٢١٦ هـ .[2] .

في عهد الخليفة المعتصم (٢١٨هـ / ٢٢٧هـ) (٨٣٣ م /٨٤٢م)

حـين جاء المعتصم الى الخـلافة كـانت فتنة بـابك الخـرمي ما تـزال مقلقة للخلافة وهي الفتنة التي بدأت سنـة ٢٠٢ هـ . حين رفـع بابـك راية العصيـان بوجه الخلافة العباسية في منطقة « البذ » بين اذربيجان وأوان في شمال فـارس ، وقـد ادعى بابـك الالوهيـة ، وأحلّ لمن استهـواهم النهب والاغتصـاب والقتـل والتمثيـل بالغـير[3] . وقد اتعب امـره المأمـون ، اذ لم تستطع الجيـوش التي كان يـرسل بهـا اليه القضـاء عليه ، لكثـرة من كانـوا معـه ، ولتحصينـه في الجبـال الوعرة ، بل انه اسـر من قواد هـذه الجيوش أحمـد بن الجنيد الاسكـافي[4] ولقد

---

(١) اليعقوبي . تاريخه ج ٢ ص ٤٦٩ .
(٢) فازيلييف . العرب والروم ص ٣٥٧ .
(٣) ابن النديم . الفهرست ص ٤٩٤ .
(٤) ابن الاثير . الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٣٩ .

كانت هذه الفتنة ما تزال قائمة عندما تولى المعتصم الخلافة لأن جزءاً كبيراً من اهتمام المأمون كان متجهاً نحو الغرب ، نحو بلاد الروم فمات دون ان تنتهي ، لكنه أوصى اخاه المعتصم ان يولي هذه الفتنة اهتمامه الكامل حتى اذا اقتضى الامر خروجه بنفسه لاخمادها . ومن أجل ذلك القى المعتصم بكل ثقله الحربي نحو الشرق لاخماد هذه الفتنة ، وأدرك بابك الخطر فكتب رسالة الى تيوفيل بن ميخائيل ملك الروم يخبره ان الفرصة صارت سانحة له - أي لتيوفيل - لمهاجمة الاراضي الاسلامية . حيث ان جيوش المسلمين قد عبأت لكي تتجه اليه - أي الى بابك وكان هدف بابك ان يخفف العبء عن نفسه حين يبدأ تيوفيل هجومه فيضطر جزء كبير من جيش المسلمين الى التوجه غرباً لحرب تيوفيل[١] ووعده في مقابل ذلك باعتناق المسيحية فاستجاب تيوفيل لرغبته وهاجم حصن زبطرة سنة ٢٢٢ هـ . وأوقع بأهلها ، وكان سبب ذلك ان بابك لما ضيق الافشين (قائد جيش المعتصم)عليه وأشرف على الهلاك كتب الى ملك الروم توفيل يعلمه ان المعتصم قد وجه عساكره لمقاتلته . . فخرج تيوفيل في مائة الف وقيل أكثر منهم من الجند نيف و ٧٠ الفاً وبقيتهم اتباع ومعهم من المحمرة الذين كانوا خرجوا للجبال فلحقوا بالروم حين قاتلهم اسحاق بن ابراهيم بن مصعب فبلغ زبطرة فقتل بها من الرجال وسبى الذرية والنساء وأغار على أهل ملطية وغيرها من حصون المسلمين وسبى المسلمات ومثل بمن صار في يده من المسلمين وسبل اعينهم وقطع انوفهم وآذانهم[٢] وسبى من المسلمات أكثر من الف امرأة"[٣] .

وفي غزو الروم لزبطرة قال المسعودي : « بعد خروج تيوفيل في عساكره وافتتاح مدينة زبطرة من الثغر الجزري بالسيف وقتل الصغير والكبير وأغارته على بلاط ملطية - ضج الناس في الامصار ودخل ابراهيم بن المهدي على المعتصم وأنشده قصيدة يذكر فيها ما نزل بـ زبطرة ويحضه على الانتصار ويحثه على الجهاد قائلاً :

---

(١) اسماعيل ، عز الدين ، في الأدب العباسي ص ١٣٩ .
(٢) ابن الاثير الكامل ج ٦ ص ١٩٥ - ١٩٦ : الطبري تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٥٥ .
(٣) المسعودي مروج الذهب ج ٣ ص ٤٧٢ .

يا غارة الله قد عاينت فانتهكي — هتك النساء وما منهن يرتكب
هب الرجال على اجرامها قتلت — ما بال اطفالها بالذبح تنتهب

ولما انتهى الخبر الى المعتصم وبلغه ذلك استعظمه وكبر لديه وبلغه ان امرأة هاشمية صاحت وهي اسيرة في أيدي الروم : وامعتصماه ! فأجابها وهو جالس على سريره : لبيك ! لبيك ! ونهض من ساعته وصاح في قصره النفير ! النفير ![1] .

فتح عمورية

تعمم المعتصم بعمامة الغزاة وخرج في جمادي الاولى سنة ٢٢٣ هـ / ابريل ٨٣٣ م ، ونودي في الامصار بالنفير والسير مع أمير المؤمنين ، وجعل على مقدمته اشناس التركي ويتلوه محمد بن ابراهيم وعلى ميمنته ايتاخ ، وعلى ميسرته جعفر بن دينار وعلى ساقته بغا الكبير . وعلى القلب عجيف بن عنبسة وسار المعتصم من الثغور الشامية . . . ودخل الناس من سائر الدروب فلم يكن يحصي الناس العدد . ووزع المعتصم قواته أمضى الافشين الى سروج ليدخل من درب الحدث وأمر أشناس ان يدخل من درب طرسوس الى الصفصاف وحدد لهم المواعيد ليلتقي القائدان بقوتهما مع قوات الخليفة عند انقرة[2] ليفتحوها فعلم الامبراطور البيزنطي بخطة المسلمين وانهم يريدون الاستيلاء على انقرة ، فجمع قواته عند نهر هاليس حيث قدّر ان المسلمين سوف يزحفون من الطريق الذي يسير قرب النهر ، وعلم الخليفة بتحركات البيزنطيين فأرسل كتاباً الى الافشين يأمره ان يقيم مكانه خوفاً عليه من الروم الى ان يرد عليه كتابه وضمّن لمن يوصل كتابه الى الافشين عشرة آلاف درهم فسارت الرسل بالكتاب الى الافشين فلم يروه لأنه اوغل في بلاد الروم ، وكتب المعتصم الى اشناس يأمره بالتقدم فتقدم والمعتصم من ورائه . . . حتى صار بينه وبين انقرة ثلاثة مراحل فضاق عسكر المعتصم ضيقاً شديداً من الماء والعلف ، وكان اشناس قد

---

(١) ابن الاثير الكامل ج ٦ ص ١٩٦ .
(١) عثمان ، فتحي الحدود البيزنطية ـ الاسلامية ج ٢ ص ٢٠٢ .

أسر في طريقه عدة اسرى فضرب اعناقهم حتى بقي شيخ كبير فقال له : ما تنفع بقتلي وأنت وعسكرك في ضيق وها هنا قوم قد هربوا من أنقرة خوفاً منكم وهم بالقريب معهم الطعام والشعير وغيرهما ، وطلب الشيخ من اشناس ان يوجه معه قوماً ليسلمهم اليهم بعد اخلاء سبيله فسيّر معه خمسمائة فارس ودفع الشيخ الى مالك بن كيد وقال له : متى اراك هذا الشيخ سبياً كثيراً او غنيمة كثيرة فخل سبيله ، فسار بهم الشيخ فأوردهم على واد وحشيش اخرجوا دوابهم وشربوا وأكلوا وساروا حتى خرجوا من الغيضة وسار بهم الشيخ حتى اتى جبلاً فنزله ليلاً فلما اصبحوا قال الشيخ : وجهوا رجلين يصعدان هذا الجبل فينظران ما فوق فيأخذان من أدركا فصعدا اربعة فأخذوا رجلاً وامرأة فسألهما الشيخ عن أهل انقرة فدلّوه عليهم فسار بالناس حتى اشرف على أهل انقرة وهم في طرف سلاحه فلما رأوا العسكر ادخلوا النساء والصبيان الملاحة وقاتلوهم على طرفها وغنم المسلمون منهم وأخذوا من الروم عدة اسرى وفيهم من فيه جراحات عتيقة متقدمة فسألوهم عن تلك الجراحات فقالوا : « كنا في وقعة الملك مع الافشين وذلك ان الملك لما كان معسكراً اتاه الخبر بوصول الافشين في عسكر ضخم من ناحية الارميناق واستخلف على عسكره بعض اقربائه وسار اليهم فواقعناهم صلاة الغد فهزمناهم وقتلنا رجالهم كلهم وتقطعت عساكرنا في طلبهم ، فلما كان الظهور رجع فرسانهم فقاتلونا قتالاً شديداً حتى خرقوا عساكرنا واختلطوا بنا فلم ندر أين الملك وانهزمنا منهم ورجعنا الى معسكر الملك الذي خلفه فوجدنا العسكر قد انتفض وانصرف الناس عن قرابة الملك ، فلما كان الغد جاء الملك في جماعة يسيرة فرأى عسكره قد اختل وأخذ الذي كان استخلفه عليهم فضرب عنقه وكتب الى المدن والحصون ان لا يأخذوا حداً انصرف من العسكر الا ضربوه بالسياط وردّوه الى مكان سمّاه لهم الملك ليجتمع اليه الناس ويلقى المسلمين ، وان الملك وجّه خصياً له الى أنقرة ليحفظ اهلها فرآهم قد جلوا عنها فكتب الى الملك بذلك فأمره بالمسير الى عمورية فرجع مالك بن كيدوو بما معهم من الغنيمة والاسرى الى عسكر اشناس وغنموا في طريقهم بقراً وغنماً كثيراً وأطلق الشيخ فلما بلغ مالك بن كيدو عسكر اشناس اخبره بما سمع فاعلم

المعتصم بذلك فسرّ به[1] .

وبدأ حصار عمورية في ٦ رمضـان / أول اغسطس-بعـد تخريب انقـرة في الطريق فقسمها أمير المؤمنين بين القواد . صـير الى كل واحـد منهم ابراجـاً منها على قدر كثرة اصحابه وقلتها وصار لكل قائد منهم مـا بين البـرجين الى عشـرين برجاً وتحصن اهل عمورية وتحرزوا[2] .

ولقد اوفد تيوفيل رسولاً يطلب الصلح كما ذكر اليعقوبي : « وأوفد طـاغية الروم من قبله وفداً الى المعتصم يقول : ان الذين فعلوا بـزبطرة مـا فعلوا تعدوا أمري . وأنا ابنيها بمالي ورجالي وأرد من أخذ من أهلها ، وأخلي جملة من في بلد الـروم من الاساري . وأبعث اليـك بـالقـوم الـذين فعلوا بـزبـطرة عـلى رقـاب البـطارقة »[3] . ولقـد رفض الخليفة الصلح ، وكـانت عموريـة مـوطن الاسـرة البيـزنطيـة قد استعـدت لمواجهـة الحصار فـدعمت الاسوار وحفـرت الخنادق ، وتراجع الامبراطور الى درولية يتابع أنباء المعركة ، وكـان رجل من المسلمـين قد اسـره الروم بعمـورية فتنصـر فلما رأى المسلمين خـرج اليهم فأخبـر المعتصم ان موضعاً من المـدينة وقـع سوره من سيـل أتاه ، فكتب الملك الى عـامل عمـورية ليعمره فتوانى . فلما خرج الملك من القسطنطينية بنى وجه السور بالحجارة حجراً حجراً وصير وراءه من جانب المدينة حشوا حتى بدا ظاهر السور سليماً امام عـين الامبراطور واستترت نقطة ضعف خطيرة ارشد المسلمين اليها هذا الرجل ، فأمر المعتصم بضرب خيمته هناك ونصب المجانيق على ذلك المـوضع فـانفرج السـور منه وكانت المعارك بين الـطرفين حتى استـطاع المعتصم دخولهـا . وكانت طـائفة كبيـرة من الروم في كنيسـة كبيـرة لهم ، فـاحـرقهـا المسلمـون عليهم ، فهلكـوا كلهم . . . وأقبل الناس بـالاسرى والسبي من كـل وجه . . . فـأمر المعتصم ان يعزل اهل الشرف والقدر ونقل من سواهم وأمر بيع المغانم في عدة مواضع فبيع منهـا في أكثر من خمسـة ايام وأمـر بالبـاقي فأحـرق[4] . وهكـذا دخـل المعتصم

(١) ابن الاثير ، الكامل ج ٦ ص ١٩٦ - ١٩٧ .
(٢) عثمان ، فتحي ، الحدود البيزنطية الاسلامية ج ٢ ص ٢٠٦ .
(٣) اليعقوبي تاريخه ج ٢ ص ٤٧٦ .
(٤) ابن الاثير الكامل ج ٦ ص ١٩٧ الطبري تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٦٩ .

عمورية في ١٧ رمضان / ١٢ اغسطس ، وبذلك صار الطريق امام المسلمين بعد انتصارهم في عمورية مفتوحاً لمواصلة الزحف الى القسطنطينية وفي وقعة عمورية يقول الحسين بن الضحاك في مدحه الافشين ذاكراً وقعته مع الروم :

اثبت المعصوم عزاً لأبي ... حسن اثبت من ركن اضم
وقرا توفيل طعناً صادقاً ... فضّ جمعيه جميعاً وهزم
قتل الاكثر منهم ونجا ... من نجا لحماً على ظهر وضم[١]

ولقد أقام المسلمون على عمورية اربعة أيام يهدمون ويحرقون ويقتلون وتم قتل ٣٠ ألفاً من الحامية البيزنطية وسبي ثلاثين الفاً آخرين . وقد تم اسر ياطس[٢] (آيتيوس) الذي كان قد أرسله تيوفيل للدفاع عن المدينة والذي كان قد اعلم بواسطة رسولين احدهما يتقن العربية بنبأ الثغرة والعزم على الانسحاب ، ولقد وقع هذان الرسولان في الاسر[٣] .

وبعد عودة المعتصم الى سامراء مدحه الشاعر ابو تمام بقصيدته المشهورة[٤] التي قال فيها :

السيف اصدق انباء من الكتب ... في حدّه الحد بين الجد واللعب[٥]
بيض الصفائح ،لا سود الصحائف في ... متونهن جلاء الشك والريب[٦]
والعلم في شهب الارماح ، لامعة ... بين الخميسين ،لا في السبعة الشهب[٧]

ولقد تغنى أبو تمام بيوم الفتح وما كان له من عظمة ومجد على الدهر ، هو فتح عظيم تتفتح له أبواب السماء لقداسته وتعيد له الارض بأسرها فتلبس ازهى

---

(١) الطبري تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٧١ .
(٢) المسعودي ، مروج الذهب ج ٣ ص ٤٧٣ .
(٣) عثمان ، فتحي ، الحدود الاسلامية البيزنطية ج ٢ ص ٢٠٧ .
(٤) ابو تمام ، الديوان ص ٧ .
(٥) الكتب المقصودة في هذا البيت : هي كتب السحر والتنبؤ والتنجيم .
(٦) الصفائح : جمع صفيحة وهي السيف العريض . متونهن : جوانبهن . الجلاء : الكشف والوضوح ، الريب : الشكوك .
(٧) شهب الارماح : أي الارماح اللامعة كالشهب . الخميس : الجيش . السبعة الشهب : الكواكب السبعة السيارة .

اثوابها وأجملها ، وهو يوم تحققت فيه الاماني وأتت خيرها الطيب ، وقد رفع من شأن بني الاسلام فأدركوا غاية العلى وحط من خصومهم وديارهم فجعلهم في اسفل درك قائلاً :

فتح الفتوح تعالى ان يحيط به   نظم من الشعر او نثر من الخطب
فتح ، تفتح ابواب السماء له   وتبرز الارض في أثوابها القشب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت   عنك المنى حفلاً معسولة الحلب
ابقيت جد بني الاسلام في صعدٍ   والمشركين ودار الشرك في صبب

هذه القلعة التي هي عزيزة على قلوب الروم يفتدونها لو استطاعوا بالامهات والآباء . لقد وقفت في وجه الاكاسرة والتابعة عريقة منذ عهد الاسكندر ، وارتدت صروف الدهر عنها خائبة مندحرة ، فكأنما الله شاء كذلك فجمع الامجاد والعظائم ومخضها ليستخرج زبدها ويبني هذه القلعة .

أمّ لهم ،لو رجوا ان تُفتدى جعلوا   فداءها لكل أم برة وأب
وبرزة الوجه قد اعيت رياضتها   كسرى وصدت صدوداً عن أبي كرب
من عهد اسكندر ،او قبل ذلك ،قد   شابت نواصي الليالي وهي لم تشب
حتى اذا مخض الله السنين لها   مخض البخيلة كانت زبدة الحقب

ثم يصف الحريق الذي شب في المدينة بعد سقوطها قائلاً :

لقد تركت أمير المؤمنين بها   للنار يوماً ذليل الصخر والخشب
حتى كأن جلابيب الدجى رغبت   عن لونها او كأن الشمس لم تغب
ضوء من النار والظلماء عاكفة   وظلمة من دخان ،في ضحى شحب
فالشمس طالعة من ذا وقد افلت   والشمس واجبة من ذا ولم تجب

الى ان يصل الى مدح المعتصم والتغني بفتوحاته وبطولاته :

تدبير معتصم بالله منتقم   لله مرتغب في الله مرتقب
لم يغز قوماً ،لم ينهض الى بلد   الا تقدمه جيش من الرعب
لو لم يقد جحفلاً يوم الوغى لغدا   من نفسه وحدها في جحفل لجب
رمى بك الله برجيها فهدّمها   ولو رمى بك غير الله لم يصب

إلى ان يقول :

خليفة الله! جازى الله سعيك عن ... جرثومة الدين والاسلام والحسب
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها ... تنال الا على جسر من التعب
ان كان بين صروف الدهر من رحم ... موصولة او ذمام غير منقضب
فبين ايامك اللاتي نصرت بها ... وبين ايام بدر اقرب النسب
ابقت بني الاصفر المصفر كاسمهم ... صفر الوجوه وجلت أوجه العرب

في عهد الخليفة الواثق (٢٢٧ هـ - ٢٣٢ هـ / ٨٤٢ م - ٨٤٧م)

لم يستطع الواثق ان يستفيد من انتصارات ابيه المعتصم ، فقد واجهته ازمات داخلية في جهاز الدولة الاداري ، وفي فتن الاهلين في قلب الدولة واطرافها على السواء من هذه الأزمات ما حدث من فتن في الشام ، ففي سنة ٢٣١ هـ جرى بين الامير هانا والمردة حروب كثيرة في جبل لبنان وانتصر عليهم ولقب بالغضنفر أبي الاهوال ، وحثه على متابعة الحرب خاقان التركي خادم الرشيد[١] . كما شغل البيزنطيين ايضاً عن الاغارة في اراضي المسلمين ، وفاة تيوفيل وتولية ابنه الصغير ميشيل الثالث وانشغال البيزنطيين في عهده بالفتن الدينية[٢] . التي حدثت ، وعقد المجمع الديني سنة ٢٢٨هـ / ٨٤٣ م والذي اقر عبادة الايقونات والصور بعد العداء الشديد الذي بثه تيوفيل ضدها ، حيث ما لبث ان علقت الصور في اماكنها بالكنائس ، وخرجت الامبراطورة تيودورا وابنها الامبراطور الطفل ميشال الثالث ومعهما البطريرك الجديد والوزراء واعضاء السناتو يحملون الصلبان وصور المسيح والعذراء قاصدين كنيسة ايا صوفياً وسط تهليل الرهبان الذين وفدوا من الاديرة المجاورة يعبرون عن انتصارهم[٣] .

ولقد ساعدت حالة الهدوء بين الدولتين العباسية والبيزنطية في عهد الخليفة الواثق قيام الفداء الثالث الذي يعرف بفداء خاقان (نسبة الى خاقان

---

(١) عثمان ، فتحي الحدود الاسلامية البيزنطية ج ٢ . ص ٢١٣ - ٢١٤ .
(٢) سالم ، السيد عبد العزيز تاريخ الدولة العباسية ص ١٩١ .
(٣) عاشور ، سعيد تاريخ الدولة البيزنطية ص ١٧١ .

التركي) والذي جرى سنة ٢٣١ هـ[١] .

في عهد الخليفة المتوكل (٢٣٢هـ - ٢٤٤هـ / ٨٤٧ م - ٨٦١م)

استؤنفت الحرب بين العباسيين والروم في عهد الخليفة المتوكل ، واستمر المسلمون يخرجون من صوائفهم من جهة الدروب التي تلاصق دولة الروم لمهاجمة اعدائهم .

وبالرغم من استمرار الفتن الداخلية في عهده ومنها : ان اهل حمص ثاروا بعاملهم على المعونة الذي كان قد قتل رجلاً من رؤسائهم ، حيث وجّه المتوكل محمد بن عبداويه كرواس الانباري محل المقتول ليستصلحهم بذلك ، فرضوا به ، فولاه المتوكل عليهم فعمل فيهم الاعاجيب ، فثاروا عليه في العام التالي ، وأعانهم على ذلك قوم من نصارى حمص ، فكتب بذلك الى المتوكل بأمره بمناهضتهم . وأمده بجند من راتبة دمشق مع صالح العباس التركي - وهو عامل دمشق وجند من جند الرملة ، فأمرهم ان يأخذ من رؤسائهم ثلاثة نفر ، فيضربهم بالسياط ضرب التلف . . . وان يأخذ بعد ذلك من وجوههم عشرين انساناً فيضربهم ثلاثمائة سوط كل واحد منهم ، ويحملهم في الحديد الى باب امير المؤمنين ، وان يخرب بابها من الكنائس والبيع والا يترك في المدينة نصرانياً الا أخرجه منها[٢] .

كما وبث اهل دمشق على عاملهم من قبل المتوكل لسوء سيرته فيهم ، وغضب المتوكل لمقتله ، فطلب والياً لدمشق في صولة الحجاج ، فقيل له في افريدون التركي ، فأمره وجهزه اليها في سبعة آلاف ، وأحل له القتل والنهب في ثلاثة ايام ، لكن البغلة التي ركبها اعثرته فسقط ميتاً[٣] .

وكان الخطر الاعظم الذي تعرضت له الدولة العباسية هو ازدياد نفوذ الاتراك الذي بدأ يتزايد منذ عهد المعتصم ، فظهر اشناس وبغا الكبير ابو موسى

---

(١) انظر الفصل المتعلق بالأفدية المنظمة .

(٢) عثمان ، فتحي الحدود الاسلامية البيزنطية ج ٢ ص ٢١٤ .

(٣) نفس المرجع ص ٢١٤ .

التركي ووصيف الذي كان يخرج في الحملات ضد الروم ، ثم ايتاخ الذي رفعه المعتصم ومن بعده الواثق حتى ضمّ اليـه من أعمال السلطان اعمـالاً كثيرة . . . وكان من أراد المعتصم او الواثق قتله فعند ايتاخ يقتل وبيده يحبس ولقد اصطدم ايتاخ يوماً بالمتوكل اذ كان قد شرب فعربد عليه فهم ايتاخ بقتله فتظاهـر المتوكـل بالاعتذار ثم دسّ اليه من يشير عليه بالحج ودبّر قتله في طريق عودتـه سنة ٢٣٠ هـ / ٨٥٠ م ، لكن المتوكل لقي مصرعه سنة ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م[١] .

وسط هذه الفتن والاحداث التي مرّ بها عهد المتوكـل كان الصـراع العربي البيـزنطي يستـأنف من جديـد . ففي سنة ٢٣٨ هـ نـزل دمياط فجـأة اسـطول رومي في ثلاثمائة مركب مع ثلاثـة رؤساء فـأناخ احـدهم بدميـاط ، فلما حضر العيـد امر الجنـد الذين بـدمياط ان يحضـروا مصر ، فسـاروا منها فـاتفق وصول الروم وهي فارغة من الجند فنهبوا واحرقوا وسبوا وأحرقوا جامعها وأخذوا ما بهـا من سـلاح . . . وقتلوا من أمكن قتله من الرجـال وسبوا من النسـاء المسلمـات والذميات نحوا من ٦٠٠ امرأة[٢] .

ويروي الطبري ان سجينا من دمياط يدعى ابن الاكشف كسر قيده ، وخرج فقاتلهم وقتل جماعة منهم مستعينا بمن تجمع حوله .

وفي سنة ٢٤١ هـ اغارت الروم على عين زربة على مقربـة من المصيصة ، فـاسروا من بهـا من الزط الـذين كان المعتصم قـد نقلهم اليهـا بعـد ثـورتهم في البطائح بين واسط والبصرة ، وقد اخذ الروم نساءهم وذراريهم ودوابهم[٣] .

وفي سنة ٢٤٢ هـ غارت الروم على بلاد الجزيرة فانتهبوا شيئا كبيرا واسروا نحـوا من عشرة آلاف من الـذراري ، وكـان ذلـك بعـد خـروج عـلي بن يحيى الارمني من الصـائفـة ، وقـد وصـل الـروم الى آمـد[٤] وتتبعهم اميـري ملطيـة

(١) عثمان ، فتحي الحدود الاسلامية البيزنطية ج ٢ ص ٢١٤ .

(٢) ابن الاثير الكامل ج ٧ ص ٦٨ .

(٣) الـطبري تـاريخ الرسل والملوك ج ١١ ص ٢٣١ . ابـو الفدا البـدايـة والنهـايـة ج ١٠ . ص ٣٢٥ .

(٤) نفس المصدر السابق ج ١١ ص ٢٠٧ . ابن الاثير الكامل ج ٧ ص ٨١ . ابن كثير البداية والنهاية ج ١٠ ص ٣٤٣ .

وطرسوس عبر الاقطع وعلي بن يحيى الارمني قريباس[١] فلم يدر كاهم . ثم بدأت فترة قصيرة من العداء المستمر تميزت بتتابع حملات اميري ملطية وطرسوس مع قريباس وتميزت في الجانب الاخر بظهور ميشيل الثالث نفسه بجانب عميه برداس وبتروناس في ميدان القتال . كما اقام المتوكل بدمشق شهرين وارسل بغا لغزو الروم فاستولى على حصن سمالو وقد نجح الجيش البيزنطي سنة ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م بقيادة ميشيل الثالث الذي كان قد بلغ رشده وكان يرافقه برداس في حصار شمشاط واعتبرت هذه الحملة انتقاما لغزو عمورية[٢] . على ان الطبري يذكر غارة للروم على سميساط « فقتلوا وسبوا نحوا من خمسمائة »[٣] روى ابن الاثير فتح قصر بانه كما يلي[٤] ٢٤٤ هـ .

وكان المسلمون قد فتحوا قصريانه وهي المدينة التي كان بها دار الملك بصقلية ، وكان الملك قبلها يسكن سرقوصة فلما ملك المسلمون بعض الجزيرة نقل دار الملك الى قصريانه لحصانتها وكان سبب فتحها ، ان العباس سار في جيوش المسلمين الى مدينة قصريانة وسرقوصة وسير جيشاً في البحر فلقيهم اربعون شلنديا للروم فاقتتلوا اشد قتال ، فانهزم الروم وأخذ منهم المسلمون عشر شلنديات برجالها وعاد العباس الى مدينته فلما كان الشتاء سيّر سرية فبلغت قصريانة فنهبوا وخربوا وعادوا معهم رجل كان له عند الروم قدر ومنزلة فأمر العباس بقتله فقال : استبقني ولك عندي نصيحة قال : ما هي؟ قال املكك قصر يانة والطريق في ذلك ان القوم في هذا الشتاء وهذه الثلوج آمنون من قصدكم اليهم فهم غير محترسين وسار الى ان قاربها وكمن هناك مستتراً وسيّر عمه رباحاً في شجعانهم فساروا مستخفين في الليل والرومي معهم مقيد بين يدي رباح فأراهم الموضع الذي ينبغي ان يسلك منه فنصبوا السلالم وصعدوا

---

(١) موظف بولسي في النبد الاناضولي وضع نفسه في خدمة امير ملطية . عثمان فتحي الحدود الاسلامية البيزنطية ج ٢ هامش ص ٢٢١ .

(٢) عثمان ، فتحي نفس المرجع السابق ص ٢٢٢ .

(٣) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٢٠٧ .

(٤) ابن الاثير الكامل ج ٧ ص ٢٤ .

الجبل ثم وصلوا الى سور المدينة قريباً من الصبح والحرس نيام فدخلوا من نحو باب صغير فيه يدخل منه الماء وتلقى عنه الاقذار فدخل المسلمون كلهم فوضعوا السيف في الروم وفتحوا الابواب وجاء العباس في باقي العسكر ودخلوا المدينة وصلوا الصبح وبنى فيها مسجداً ونصب فيه منبراً وخطب يوم الجمعة وقتل من وجد فيها من المقاتلة وأخذوا ما فيها من بنات البطارقة بحليهن وأبناء الملوك وأصابوا فيها ما يعجز الوصف عنه ، وذل الشرك يومئذ بصقلية ذلاً عظيماً ، ولما سمع الروم بذلك أرسل ملكهم بطريقا من بطارقة القسطنطينية في ثلاثمائة شلندي وعسكر فيها فوصلوا الى سرقوصة فخرج عليهم العباس من المدينة ، ولقي الروم وقاتلهم فهزمهم فركبوا في مراكبهم هاربين ، وغنم المسلمون منهم مائة شلندي ، وكثر القتل ولم يصب المسلمون ذلك اليوم غير ثلاثة نفر بالنشاب .

وفي سنة ٢٤٦هـ / ٨٦٠ م جرت عمليات الفداء بعد مفاوضات جرت بين نصر بن الازهر الشيعي وبتروناس بالقسطنطينية[١] وبعدها توقفت العمليات الحربية وهذا ما كان يحصل بعد كل عملية فداء .

ولا بد من الأشارة الى الدور الهام الذي قام به احد قواد الثغور (محمد بن يوسف)[٢] ولقد اورد التنوخي[٣] قصة تعذيبه على يد ابو الخير النصراني واستثارة المسلمين لهذا الحدث قائلاً : « حدثني ابراهيم القنوى قال : طولب ابو

(١) راجع الباب المتعلق بالفداء .

(٢) عرف بأبي سعيد الثغري ، ولاه المعتصم على ارمينية سنة ٢٢٠ هـ/ ٨٣٥ م وبقي يبني الحصون ويقاتل الروم حتى وفاته في خلافة المتوكل ٢٣٧ هـ/ ٨٥٠ م . مدحه الشاعر أبو تمام في قصائد كثيرة مشيرا الى كثرة اسرى الروم لديه والى طريقة تعامله مع عدوه في الحرب وانه لم يكن ليفرق بين الاولاد وأبائهم .

التبريزي . ديوان ابو تمام :

المجلد الأول ص ١٦٤ - ١٨٢ - ٣٣٣ - ٣٤٣ .

المجلد الثاني الصفحات : ٨ - ١٠ - ٢٢ - ١٣٦ - ١٥١ - ١٦١ - ١٦٦ - ٢٢٢ - ٢٤٥ - ٣١٩ ٨ ٣٧٦ .

المجلد الثالث الصفحات : ٨٨ - ١٤٦ - ١٤٩ - ١٦٤ - ٢١٨ - ٢١٩ - ٢٣٢ - ٢٤٧ .

المجلد الرابع ص : ٤٤٧ .

(٣) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ١٦ .

سعيد الثغري بعد غزواته المشهورة وسلم الى أبي الخير النصراني ليستخرج منه المال فجعل يعذبه فشق ذلك على المسلمين وقالوا : آخذه بثأر النصرانية فقال البحتري[١] مستغرباً امر اعتقاله :

أيا ضيعة الدنيا وضيعة اهلها | والمسلمين وضيعة الاسلام
طلبت دخول الشرك في دار الهوى | بين المداد وألسن الاقلام
هذا ابن يوسف في يدي اعدائه | ايجزى على الايام بالايام
نامت بنو العباس عنه ولم تكن | عنه امية لو دعت بنيام

ولما قرأ هذا الشعر على الخليفة المتوكل امر باطلاق سراح ابي سعيد واحضار الشاعر البحتري الذي حضر وأنشد قصيدة قال فيها :

جعلنا فداك الدهر ليس بمنفك | من الحادث المشكو، والنازل الشاكي
وما هذه الايام الا منازل | فمن منزل رحب ومن منزل ضنك
أقام جميل الصبر في السجن برهة | فآن له الصبر الجميل الى الملك[٢]

وهكذا كانت الحروب في هذه المرحلة خالية من أية خطة منظمة او هدف معين يظهر ذلك من استقرائها ومن انها كانت تنتهي دوماً دون ان تغير موقف الطرفين ، وغالباً ما كان الخليفة يكتفي بالجزية . وكا ما يمكن ان يظهر منها انها اثبتت تفوق العرب الحربي من جهة وقصر نظر قوادهم في عدم متابعة الضغط على بيزنطية وعدم استغلال ظروفها الحرجة من جهة أخرى .

(١) البحتري ، الديوان ج ٢ ص ٢٨١ .
(٢) البحتري الديوان ج ٢ ص ٣٧١ .

المعارك والاسر في المرحلة الثانية

مقدمة :

تبدأ هذه المرحلة بمقتل المتوكل سنة ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م وتولي ابنـه المنتصر الى سنة ٣٣٤هـ في خلافة المطيع لله حيث آلت الامارة الى سيف الدولة ، وبـدا ان الظاهرة الـرئيسية في تلك العـلاقات الاسـلامية البيـزنطيـة هي رجحان كفـة البيزنطيين وتأرجح كفة المسلمين ، فالاباطرة المقدونيون ساروا بالدولة البيـزنطيـة في طريق المجد ، بعد الاصلاحات الداخلية التي بدأها الامبراطور باسيل الاول (اصلاح النظام المالي ، الاصلاحـات التشريعيـة) بينما تفـاقم النفوذ التـركي في الدولة العباسية ، وأدى ذلك الى انحلالها وقيام الثورات الداخليـة ، والحركـات الانفصالية بين ربوعها مثل ثـورتي الزنـج والقرامـطة ، كل ذلـك شجع الـدولة البيـزنطيـة على ان تتحـول الى الهجوم فـاستولى الامبـراطور بـاسيل عـلى زبـطرة وسميساط سنة ٢٦٢هـ / ٨٧٣م[1] .

في خلافة المنتصر (٢٤٧هـ ـ ٢٤٨هـ / ٨٦١م ـ ٨٦٢م) .

على اثر مقتل المتوكل سنة ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م تولى ابنه المنتصر فأغـزى في العام التالي سنة ٢٤٨ هـ الصائفة وصيفاً التركي باشارة وزيره أحمد بن الخصيب

(١) عاشور ، سعيد ، تاريخ الدولة البيزنطية ص ١٨١ ـ ١٨٤ .

لبغضه اياه ، وكان الجيش الاسلامي يتألف من عشرة آلاف رجل وعلى مقدمته مزاحم بن خاقان ، وأمر وصيفاً[1] بالقيام ببلاد الثغر اذا هو انصرف من غزاته اربع سنين « يغزو في أوقات الغزو منها ، الى ان يأتيه امر أمير المؤمنين » ولم توفق هذه الغزوة ولم يأخذ وصيفاً سوى حصن رومي يقال له فروية[2] وقد قال البحتري فيه شعراً لما أسر[3] متوجعاً لأسره :

ذكرت وصيفاً ذكرة الهائم الصب ... فأجريت دمعاً من دموعي على سكب
اسير بأرض الشام ما حفظوا له ... ذمام الهوى فيه ولا حرمة الحب
وما كان مولاه وقد سامه الردى ... بمتئد البقيا[4] ولا لين القلب
وقالوا اتى من جانب الغرب مقبلاً ... وما خلت ان البدر يأتي من الغرب!
وماذنب مقصور اليدين من الاذى ... رفيق الحواشي عن مفارقة الذنب
على خوف اعداء ورقبة كاشح[5] ... وعتب مليك جاوز الحد في العتب
اصادقتي فيك المنى ومديلتي[6] ... صروف الليالي من شفيع ومن قرب

في خلافة المستعين (٢٤٨هـ - ٢٥١هـ / ٨٦٢م - ٨٦٦م)

سنة ٢٤٨ هـ / قام أمير ملطية عمر بن عبد الله الاقطع بحملة بلغ بها قلب ارض الروم وارتاد المناطق التي سبق له ارتيادها في حملته السابقة التي التقى بها الامبراطور ، ورد الامبراطور على ذلك بتكليف بتروناس القائد وشقيق تيودورا بمواجهة الهجوم الاسلامي ، والتقى جيش عمر وجيش الروم ودارت المعركة على الحدود بين بندي بافلاجونيا والارميناق عند موضع يسمى

---

(١) كان من امراء الاتراك من مماليك المعتصم وخدم من بعده حتى عهد المنتصر ، كان مقيما بالثغر الشامي حتى ورد عليه موت المنتصر ، البحتري ، الديوان ، ص : ١٣٩ .

(٢) عثمان ، فتحي الحدود الاسلامية البيزنطية ج ٢ . ص ٢٢٤ . البحتري . الديوان ص ١٣٩

(٣) البحتري الديوان ص ١٣٩/ قصيدة رقم ٤٧ .

(٤) البقيا : ما بقي من الشيء .

(٥) الكاشح : المغمر العداوة .

(٦) ادال فلان : جعل الكرة بين يديه .

بـوزنPoson ، وحاصـر بتـرونـاس المسلمـين من جميـع الجهـات وأدت البنـود البيزنطية Theme دورها ، وقتل في هذه المعركة عمر والفا رجـل من المسلمين ، وأراد ابن عمـر أن ينجو بقسم من الجيش لكنـه أسر وجنـده في خرشنـة ، وعاد بتـرونـاس الى العـاصمـة ظـافـراً وأنعم عليــه بلقب مـاجســتر وعـين دمستق الاسكول[1] .

وفقد المسلمون في العام نفسه قائدهم الآخر علي بن يحيى الارمني ، وكان لهذه الخسارة آثاراً بعيدة في قلب الدولة العباسية ، اذ مـا ان اتصل الخبـر بأهـل بغداد وسامراء وسائر مدن الاسـلام بمقتل عمـر وعلي بن يحيى الارمني ، اللذين كانا شديدي البأس حتى اجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنداء بالنفـير ولم يؤد هذا الاضطراب الى نتيجة تذكر سوى قيام الاتراك بقمعه وقيام اتـامش ووصيف وبغا وعامة الاتراك وقتلهم جماعة من العـامة ، وروّع التـرك المستعين ، فحـاول الفـرار من سامـراء ، ورجحت كفة الاتـراك ، وتولى المعـتز الخلافـة سنة ٢٥١ هـ / ٨٦٦ م ولم يقع صدام بين المسلمين والـروم حتى وفاة ميشيـل الثالث سنـة ٨٦٧م[2] .

في خلافة المعتمد (٢٥٦هـ ـ ٢٧٩ هـ / ٨٧٠م ـ ٨٩٢م)

وفي سنـة ٢٦٤ هـ / ٨٧٧م . أسر الـروم عبد الله بن رشيـد بن كاوس امير الثغور ، وسبب ذلك كما يقـول الطبـري[3] : انه دخـل ارض الروم في أربعـة آلاف من أهل الثغـور الشـاملة ، فصـار الى حصنـين والمسكنـين ، فغنم المسلمـون ، وقفل راجعـاً ، فلما وصل الى نهر البـدنـدن ، خـرج عليـه بـطريق سلوقيـة وبطريق قـرة كوكب وخرشنة ، فـاحدقـوا بهم فنزل المسلمـون فعرضوا دوابهم وقاتلوا او قتلوا الا خمسمائة او ستمائة وضعوا السيـاط في خواصـر دوابهم وخـرجوا ، فقتـل الروم من قتلوا وتمّ اسـر عبـد الله بن رشيـد بن كـاوس بعـد اصابته وحمل الى لؤلؤة ثم الى الطاغية على البريد .

---

(١) عثمان ، فتحي الحدود الاسلامية البيزنطية ج ٢ ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ .

(٢) نفس المرجع ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ .

(٣) الطبري تاريخ الرسل ج ٩ ص ٥٣٣ ـ ٥٣٤ .

سنة ٢٨٨ هـ غزا نزار بن محمد عامل الحسن بن علي على كورة الصائفة ففتح حصوناً كثيرة للروم وأدخل طرسوس مائة علج ونيفًا وستين علجاً من الشماسة وصلبانا كثيرة واعلاماً وفيها وردت كتب التجار من الرقة ان الروم قد وافوا في مراكب كثيرة وجاء قوم منهم على الظهر على ناحية كيسوم فاستاقوا من المسلمين أكثر من خمسة عشر الف انسان ما بين رجل وصبي فمضوا بهم وأخذوا قوماً من أهل الذمة[١] .

وفي اخبار سنة ٢٩٢ هـ أغار البيزنطيون على الثغور الشامية في مائة الف جندي وعاثوا في كثير من المدن مثل الحدث ، فخرج اليهم المسلمون من طرسوس وفتحوا انطاكية الحصينة التي قال عنها ابن الاثير[٢] انها تشبه القسطنطينية . وقتلوا خمسة الاف من اهلها وأسروا مثلهم وأنقذوا اسرى المسلمين فيها كما استولوا على ستين مركباً وغنموا ما فيها من الاموال والمتاع والرقيق ، وكانت غنائم المسلمين من الكثرة بحيث بلغ نصيب كل منهم الف دينار[٣] .

أما في البحر المتوسط فكانت كفة المسلمين ما زالت راجحة حتى هاجم ليو الطرابلسي ٢٩١هـ / ٩٠٤ م . سالونيكا والقسطنطينية التي دوّنها قسيس يوناني من أهل سالونيكا يدعى يوحنا كاميناتس john Comenistes وكان ممن شهدوا حصار المدينة وسقوطها ثم وقع اسيراً بيد المسلمين مع عدد من افراد اسرته . وجاء تدوينه للغزوة بعد فترة قصيرة من وقوعها حيث دونها وهو في الاسر بطرسوس ينتظر الموعد المحدد لتبادل الاسرى بين المسلمين والبيزنطيين[٤] . وقد عاد ليو بعد عشرة ايام من الاستيلاء على سالونيكا واتجه نحو جزيرة كريت ومعه من الاسرى ٨٠٠ من الرجال والنساء والاطفال يحتشدون في الطابق السفلي من

---

(١) ابن الجوزي المنتظم ج ٦ ص ٢٧ .
(٢) ابن الاثير الكامل ج ٧ ص ١٩٠ .
(٣) نفس المصدر ج ٧ ص ١٤٧ .
(٤) رنسيمان ، ستيفن الحضارة البيزنطية ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠ .

المركب[1] ، وقد نقل كامينانس والسجناء الى طرسوس ، وفي أثناء الانتظار لتبادل الاسرى كتب كامينانس هذه الوقائع[2] .

في خلافة المكتفي (٢٨٩ هـ ـ ٢٩٥هـ / ٩٠٢ م ـ ٩٠٨م)

بدت العلاقات طيبة بين المكتفي وبين الروم حتى انهما تبادلا الهدايا . ففي سنة ٢٩٤ هـ غزا رستم بن برد ـ أمير الثغور الشامية بلاد الروم فأصاب من العدو أربعة آلاف رأس سبيا ، ودخل البطريق اندرونقس في الامان وأسلم وكان شخوصه من طرسوس لهذه الغاية في أول المحرم من نفس السنة بعدما خرج وجميع من معه من اسرى المسلمين ، وخرب المسلمون قونية ثم قفلوا الى طرسوس واندرونقس وأسارى المسلمين ومن كان مع اندرونقس من النصارى[3] وانضموا الى جيوش المسلمين في حروبهم وقد وصل هذا البطريق الى بغداد وحظي بالتكريم[4] .

في خلافة المقتدر (٢٩٥هـ ـ ٣٢٠ هـ / ٩٠٨ ـ ٩٣٢م)

سنة ٢٩٨هـ قدم القاسم بن سيما في غزوة بأرض الروم الصائفة ومعه خلق كثير من الاسارى وخمسين علجاً قد شهروا على الجمال بأيدي بعض اعلام الروم عليها صلبان من ذهب وفضة[5] .

وتتالت الغزوات في عهد المقتدر . وفي سنة ٣٠٢ هـ قرىء على المنابر في المساجد كتاب بفتح بلاد الروم اذ ورد من بشر الخادم كتاب يذكر فيه ما فتح من حصون الروم وما غنم وسبى وانه أسر من البطارقة مائة وخمسين[6] وان مبلغ السبي نحو من الفي رأس[7] .

---

(١) تدمري ، عمر عبد السلام ، تاريخ طرابلس ص ١٦٧ .

(٢) رنسيمان ، ستيفن الحضارة البيزنطية ص ٣٠٠ .

(٣) الطبري تاريخ الرسل والملوك ج ١٠ ص ١٣٤ ـ ١٣٥ .

(٤) الخضري ، محمد الدولة العباسية ص ٣١٣ .

(٥) ابن الجوزي المنتظم ج ٦ ص ٩٧ .

(٦) ابن الجوزي ، المنتظم ج ٦ ص ١٢٧ .

(٧) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ج ١٠ ص ١٥٠ .

وفي سنة ٣٠٣ هـ حشد الروم جيشاً كبيراً وخرجوا على المسلمين فظفروا بقوم غزاة من اهل طرسوس وظفرت طائفة اخرى منهم بخلق كثير من أهل مرعش وشمشاط فسبوا من المسلمين نحوا من خمسين الفاً[١] .

ومع انكسار الخط البياني لمجد الدولة العباسية نحو الهبوط ، بعد تمزيق جسمها الى دويلات متنافسة متصارعة ، كانت أحوال المسلمين في مناطق الثغور تتدهور عاماً بعد عام . . .

ففي سنة ٣١٥ هـ خرجت سرية من طرسوس الى بلاد الروم ، فوقع عليها العدو فاقتتلوا واستظهر الروم ، وأسروا من المسلمين اربعماية رجل فقتلوا صبرا[٢] .

وفي سنة ٣١٩ هـ غزا والي طرسوس بلاد الروم ونزل عليهم ثلج الى صدور الخيل ، وأتاهم جمع من الروم ، فواقعهم ، فتنصر الله للمسلمين فقتلوا من الروم ستمائة وأسروا نحوا من ثلاثة آلاف ، ووصل والي طرسوس الى عمورية مع جمع كبير من الفارس والراجل . . . فوجدوا فيها من الامتعة والطعام شيئاً كبيراً ، فأخذوه وأحرقوه ، وأوغلوا في بلاد الروم ينهبون ويقتلون ، وعادوا سالمين ، وبلغت قيمة السبي مائة الف دينار وستة وثلاثين الفاً[٣] .

وفي سنة ٣٣٠ هـ . وصل الروم الى قرب حلب ونهبوا وخربوا وسبوا نحو ١٥ الف انسان ودخل الثملي (نصر) من ناحية طرسوس فقتل وسبى وغنم وعاد سالماً وقد اسر عدة من بطارقتهم المشهورين[٤] .

وفي سنة ٣٣٢ هـ . ورد ان الروم دخلوا رأس عين زرية وسبوا من أهلها ثلاثة آلاف انسان[٥] .

---

(١) الطبري صله ص ٥٤ .
(٢) ابن الاثير الكامل ج ٨ ص ١٧٧ .
(٣) نفس المصدر ص ١٢٧ .
(٤) ابن الاثير الكامل ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤ .
(٥) عريب صلة . ص ٣٤٣ .

وفي سنة ٣٣٦ هـ . جهّز الامبراطور قسطنطين السابع (٩١٢م - ٩٥٩م) حملة كبيرة لاستعادة جزيرة كريت من المسلمين حتى تأمن شواطىء دولته من الاغارات التي دأب مسلمو كريت شنها عليها بين حين وآخر ، ولقد نزلت الحملة على شاطىء كريت استعداداً لعملية الغزو حيث تعرضوا لهجوم مفاجىء من جانب المسلمين فقتل وأسر عدد كبير من رجال الحملة وفرّ بالباقين في حال يرثى لها[1] .

---

(١) عاشور ، سعيد تاريخ الدولة البيزنطية ص ١٩٩ .

المعارك والاسر في المرحلة الثالثة
(٣٣٤هـ - ٤٦٣هـ / ٩٤٦م - ١٠٧١م)

مقدمة :

في بداية المرحلة الثالثة آل الى سيف الدولة (علي بن حمدان) حماية الثغور الذي أعاد شيئاً من نشاط المسلمين ضد الروم ، لكنه انتهى اخيراً الى هزيمة ماحقة مكنت الروم من مناطق الثغور الاسلامية ، ومن مداهمة مدن الشام وثغوره البحرية بما في ذلك مدينة حلب نفسها عاصمة سيف الدولة . وتنتهي بأسر الامبراطور البيزنطي رومانوس في موقعة مانزكرت ٤٦٣هـ / ١٠٧١م حيث حلت الهزيمة بالبيزنطيين .

- في امارة سيف الدولة :

سنة ٣٣٦هـ . خرج سيف الدولة الى بلاد الروم حيث هزم هناك واستولى الروم على حصن مرعش وأوقعوا بطرسوس[١] .

سنة ٣٣٩ هـ . دخل سيف الدولة بلاد الروم ، ومعه خلق كبير ، فغزا وأوغل فيها وفتح حصوناً كثيرة ، وسبى وغنم ، ولما أراد الخروج من بلاد الروم اخذوا عليه المضايق فهلك من كان معه من المسلمين اسراً وقتلاً ، واسترد الروم الغنائم والسبي ، وغنموا انقاذ المسلمين ، وما سلم الا سيف الدولة مع عدد

(١) عاشور ، سعيد الامبراطورية البيزنطية ص ١٩٩ .

يسير من رجاله[1] .

وفي سنة ٣٤٠ هـ . كانت المعارك بين المسلمين والروم في صقلية ليلة الاضحى واقتتلوا واشتد القتال وانهزم الروم وركبهم المسلمون يقتلون ويأسرون الى الليل وغنموا جميع اثقالهم وسلاحهم ودوابهم وكان على صقلية الحسن بن علي بن أبي الحسين الكبي[2] .

ولقد وصف الشاعر المتنبي المعارك التي حدثت سنة ٣٣٩ هـ . بشقيها انتصارات سيف الدولة بادىء الامر والهزيمة التي حلت به بعدها قائلاً :

أ ـ في النصر :

حتى أقام على ارباض خرشنة ... تشقى بها الروم والصلبان والبيع
للسبي ما نكحوا والقتل ما ولدوا ... والنهب ما جمعوا والنار ما زرعوا
يطمع الطير فيهم طول أكلهم ... حتى تكاد على احيائهم تقع
وما نجا من شفار الموت منفلت ... نجله ومنهن في أحشائه فزع
يباشر الأمن دهراً وهو مختبل ... ويشرب الخمر حولاً وهو ممتقع

ب ـ في الهزيمة التي حلت بسيف الدولة يعللها قائلاً :

قل للدمستق ان المسلمين لكم ... خانوا الامير فجازاهم بما فعلوا
وجدتموهم نياماً في دمائكم ... كأن قتلاكم اياهم فجعوا
ضعفى تعف الايادي عن مثالهم ... من الاعادي وان همّوا بهم فزعوا
لا تحسبوا من أسرتم كان ذا رمق ... فليس يأكل الا الميتة الضبع

ويوجه كلامه الى سيف الدولة قائلاً :

لقد اباحك غشا في معاملة ... من كنت منه بغير الصدق تنتفع
الدهر معتذر والسيف منتظر ... وأرضهم لك مصطاف ومرتبع

---

(١) ابن العديم تاريخ حلب ج ٢ ص ١٢١ .
ابن الاثير الكامل ج ٨ ص ٤٨٥ ـ ٤٨٦ .
(٢) ابن الاثير الكامل ج ٨ ص ٤٩٤ .

فقد يظن شجاعاً من به خرق[1] وقد يظن جباناً من بـه زمع[2]
ان السلاح جميع النـاس تحمله وليس كل ذوات المخلب السبع[3]

أسر ملك الروم (قسطنطين بن برداس) :

سنـة ٣٤١ هـ . دخل سيف الـدولة بـلاد الروم ، وأغـار عـلى زبـطرة[4] والتقاه قسطنطين بن برداس الـدمستق على درب مـوزار[5] . وقتل من الفـريقين خلق . . . ثم دخل سيف الدولة سميساط ، فخرج الدمستق الى ناحية الشام ، ورجع سيف الدولة ، فلحقه امام مرعش وأوقع به ، وهزم جيشه ، وقتـل لآون البـطريق في الحـرب ، وأسـر قسـطنـطين ولـد الـدمستق وجـرح الـدمستق في وجهه[6] .

وفي ذلك قال المتنبي واصفاً ما حل بالروم :

ليـالي بعـد الـطاغين شكـول طـوال وليل العـاشقين طـويل
رمى الدرب بالجرد الجياد الى العدى ومـا علموا ان السهـام خيـول
وأمسى السبـايا ينتحبن بفـرقة كـأن جيوب الشـاكـلات ذيـول

الى ان يقـول معيراً الـدمستق بـأنـه أسلم ابنـه لـلأسـر وهـرب مستهـزءاً باغترارهم بجيوشهم الجرارة التي اعتاد سيف الدولة القضاء عليها :

فـودّع قتـلاهم وشيّـع فلهم بضرب حزون البيض فيه سهول

---

(١) الخرق : الخفة .
(٢) الزمع : الرعشة .
(٣) المتنبي الديوان رقم ٢ ص ٢٢٩ .
(٤) مدينة بـين ملطية وسميساط والحـدث في طرف بلد الـروم . ياقـوت . معجم البلدان ج ٣ ص ١٣٠ .
(٥) حصن ببلاد الروم استجـد عمارتـه هشام بن عبـد الملك . ياقـوت . نفس المصدر ، ج ٥ ص ٢٢١ .
(٦) ابن العـديم تاريخ حلب ج ٢ ص ١٢٣ ـ ١٢٤ . كنـار الامـير سيف الـدولـة ص ٩٦ ـ ٩٧ .

على قلب قسطنطين منه تعجب ... وان كان في ساقيه منه كبول[1]
لعلك يـوماً يـا دمستق عائـد ... فكم هـارب ممـا اليـه يـأول[2]
نجوت باحدى مهجتيك جريحة ... وخلفت احدى مهجتيك تسيل[3]
اتسلم للخـطيـة ابنـك هـاربـاً ... ويسكن في الـدنيا اليـك خليل
بوجهك ما انساكـه من مرشـة ... نصيـرك منها رنـة وعويـل[4].

معركة الحدث سنة ٣٤٣ هـ / ٩٥٥م .

كـان سيف الدولـة قد بنى الحـدث ، وقصده الـدمستق بردس فـاقتتـلا ، وكان النصر للمسلمين ، وأسر صهر الدمستق عـلى ابنته اعـور جرم[5] بعـد ان سلمها اهلها الى الدمستق[6] . وعن هذه المعركة قال ماريوس كنار[7] : « انه في هذه المعركة قتل نحو ثلاثة آلاف من جنود البيزنطيين فضلاً عن عـدد ضخم من الاسرى من بطارقة وجنود وفي مقدمتهم تودس الاعـور ، بطريق سمنـدو وصهر فوكاس ، كما اسر ايضاً ابن ابنة الدمستق ، وكانت معركة الحدث شرفا للعرب ومهينة للبيزنطيين ، وفي نفس الوقت مريرة للطرفين ، وقـد أمدت نشـوة الظفـر شاعرية المتنبي فوصف هذه المعركة بأبيات حماسية قائلاً[8] :

---

(١) لما اسر سيف الدولة قسطنطين اكرمه واقام عنده بحلب مدة ، والشاعر يشير الى تعجبـه من حلم سيف الدولة وكرم اخلاقه وان كان مقيدا عنده .

(٢) يهدده ويقول : لعلك يوما تعود الى مواقعة سيف الدولة فيحيق بك الهلاك الذي استـدفعته بفرارك ، فرب هارب مما يأول اليه والمعنى قدر اي انك تعود فتؤسر ، يهرب الانسان مما يعود اليه .

(٣) اي ان ابنه يذوب في القيد هماً وغماً .

(٤) يعني جراحه ترش الدم ارشـاشا يقـول : بوجهـك جراحـة انستك ابنـك ، وليس لك من ينصرك منها الا الرنين والصياح ، والمعنى انك عاجز عن نصرة نفسك فكيف تنصر ابنك .

(٥) اسر تودس الاعور بطريق سمندوية ولغـدوية ، وهـو صهر الـدمستق ، ويدعـوه المؤرخون ابن الاعور وطورا بأعورج او اعور جرم .

(٦) ابن العـديم تـاريـخ حلب ج ٢ ص ١٢٥ . ابن الاثـير الكـامـل ج ٨ ص ٥٠٨ . المتنبي الديوان ص ٣٧٤ .

(٧) كنار ، ماريوس ، الامير سيف الدولة ص ١٠٦ ـ ١٠٧ .

(٨)) المتنبي الديوان ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤ .

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم
يكلف سيف الدولة الجيش همّه وقد عجزت عنه الجيوش الخضارم

الى ان يقول :

بناها فأعلى والقنا تقرع القنا وموج المنايا حولها متلاطم
هل الحدث الحمراء تعرف لونها وتعلم أي الساقيين الغمائم(١)
سقتها الغمام الغر قبل نزوله فلما دنا منها سقتها الجماجم
وكان بها مثل الجنون فأصبحت ومن جثث القتلى عليها تمائم(٢)
وكيف ترجي الروم والروس هدمها وذا الطعن اساس لها ودعائم
وقد حاكموها والمنايا حواكم فما مات مظلوم ولا عاش ظالم(٣)
أتوك يجرون الحديد كأنما سروا بجياد ما لهن قوائم
اذا برقوا لم تعرف البيض منهم ثيابهم من مثلها والعمائم

وذكر ولد الدمستق فقال :

وقد فجعته بابنه وابن صهره وبالصهر حملات الامير الغواشم
يسر بما اعطاك لا عن جهالة ولكن مغنوماً نجا منك غانم

واستمرت الغزوات بين سيف الدولة الحمداني والبيزنطيين ، وكان الروم عندما يشعرون بمسير سيف الدولة الى مدنهم الجميلة حتى يخربوها ، ويولوا الادبار ويتوغل بعدها سيف الدولة في أرض البيزنطيين وعندما يحاول العودة الى بلاده ، يبدأ الدمستق بالتحرش به فتقع المعارك بين الطرفين ويقتل من الجنود

(١) الحدث : قلعة بناها سيف الدولة بين ملطية وسميساط ومرعش .
ياقوت معجم البلدان ج ٢ ص ٢٢٧ .

(٢) تمائم جمع تميمة وهي تعويذة يتوقون بها من مس الجنون . اي كان الروم كالمجانين فقتلهم وعلق جثثهم على حيطانها .

(٣) اي ان الروم حاكموا هذه القلعة وكانت المنايا في الحرب حاكمة فحكمت للقلعة بالسلامة وللروم بالهلاك .

البيزنطيين مقتلة عظيمة ، كما حدث عندما اتجه سيف الـدولة من نصيبين نحو بلاد الروم ، ووصوله الى قـاليقلا التي لم يكن الـروم قد انتهـوا من بنائهـا ، وفي هذه الحادثة قال الشاعر النامي مخاطباً سيف الدولة[1] .

ونادى الهوى مستصرخاً فأجبته « بقاليقلا »[2] اذا انت بالخيل سهماً
ولم تتئد «هفجيج»[3] أيدي بناتها ابـدتهم تحت السنابـك رغـما
لئن حسبت عذراء والبحر خدرها لقـد وجدت فيـه شكولا وايمـا

الغزو وردة الفعل :

سنة ٣٤٤ هـ . سار سيف الدولة في جيوش الى بلاد الروم وغزاهـا . . . وأسر وأحرق وخرب وأكثر القتـل فيهم . . . فلما سمع الـروم بذلـك ساروا الى ميافارقين وأحرقوا ، ونهبوا ، وسبوا ، وعادوا[4] . وفي سنـة ٣٤٥ هـ غزا سيف الدولة بطن هنزيط[5] ونزل شاطىء ارسناس[6] وقتل في هذه الوقعـة رومانـوس بن البلنطس صهر ابن شمشقيق[7] وأسر ابنه قلموط[8] . وفي نفس السنة قصد ليون بن الدمستق ابا العشائر الحسين بن علي الذي كـان قد ولاه سيف الـدولة عمارة عرنداس[9] ، فهزمه وأسره ، وحمله الى القسطنطينية فمات بهـا ، وخرّب مع أهل الثغور مواضع من بلاد الـروم مثل خـرشنة وصـارخة وأسـر الرست بن

---

(١) الشكعة ، مصطفى . سيف الدولة الحمداني ص ٤٦ ـ ٤٧ .
كنار . سيف الدولة ص ٧٣ ـ ٧٤ .
(٢) قاليقلا : مدينة بأرمينية العظمى من نواحي خلاط ثم من نواحي منازجرد .
ياقوت معجم البلدان ج ٤ ص ٢٩٩ .
(٣) مدينة بالقرب من قاليقلا .
(٤) ابن الاثير الكامل ج ٨ ص ٥٠٨ .
(٥) هنزيط : من الثغور الرومية . ياقوت معجم البلدان ج ٥ ص ٤١٨ .
(٦) ارسناس : نهر في بلاد الروم ، يوصف ببرودة مائـه ، عبره سيف الـدولة ليغـزو . ياقـوت معجم البلدان ج ١ ص ١٥١ .
(٧) حفيد تيوفيل ابن العديم تاريخ حلب ج ٢ حاشية ص ١٢٥ .
(٨) نفس المصدر ص ١٢٥ .
(٩) حصن في بلاد الروم ابن العديم تاريخ حلب ج ٢ حاشية ص ١٢٦ .

البلنطس ولاون بن الاسطراطيغوس وابن عذال بطريق مقدونية ، وهرب الدمستق وبركيل بطريق الخالديات ، ولما قفل سيف الدولة فك قيود الاسرى وخلع عليهم وأحسن حالهم(١) .

ردة فعل سيف الدولة على محاولة قتله :

في جمادي الاولى سنة ٣٤٦هـ . كاتب الروم جماعة من غلمان سيف الدولة بالقبض عليه ، وحمله الى الدمستق عند شخوصه لمحاربته وبذل لهم مالاً عظيماً على ذلك . فخرج سيف الدولة عن حلب وقد عزموا على ذلك فعلم سيف الدولة بواسطة بعض الفراشين فجمع الاعراب والديلم وأمرهم بالايقاع بهم عند اعلامه اياهم بذلك فأوقعوا بهم وقتل منهم ١٨٠ غلاماً وقبض على مائتي غلام فقطع ايديهم وأرجلهم وألسنتهم وهرب بعضهم . وعاد بعدها الى حلب وقتل من بها من الاسرى البيزنطيين وكانوا زهاء ٤٠٠ اسير وضيق على ابن الدمستق وزاد في قيده وصيره في حجرة معه في داره وأحسن الى الفراش الذي اعلمه بذلك وتنكر على سائر غلمانه(٢) .

بدء هزائم سيف الدولة :

وفي سنة ٣٤٧ هـ خرج يانس بن شمشقيق الى ديار بكر ونزل على حصن اليماني وعرف سيف الدولة خبره فسير اليه نجا الكاسكي في عشرة آلاف فارس فالتقاه وانهزم ونجا وقتل من أصحابه خمسة آلاف فارس وأسر مقدار ثلاثة آلاف راجل . وتابع ابن شمشقيق والبراكموس الى حصن سميساط وفتحاه ثم سارا الى رعيان(٣) ، وحاصراها وسار سيف الدولة اليها ولقيها واستظهر الروم عليه استظهاراً كبيراً وعاد سيف الدولة منهزماً وتبعه الروم وقتلوا وسبوا من عشيرته وقواده ما يكثر عدده ، وذلك سنة ٣٤٣ م(٤) .

---

(١) ابن العديم تاريخ حلب ج ٢ ص ١٢٦

(٢) ابن العديم تاريخ حلب ج ٢ ص ١٢٧ .

(٣) مدينة بالثغور بين حلب وسميساط قرب الفرات وهي قلعة تحت الجبل معدودة في العواصم . ياقوت معجم البلدان ج ٣ ص ٧٩١ .

(٤) ابن العديم تاريخ حلب ج ٢ ص ١٢٧ وما يليها .

أسر محمد بن ناصر الدولة :

وفي سنة ٣٤٨هـ . توفي قسطنطين بن لاون ملك الـروم وصيّر نقفـور بن الفقاس دمستقا على حرب المغـرب وأخاه ليـون بن الفقاس دمستقـا على حـرب المشرق فتجهز ليـون الى نواحي طـرسوس وسبى وقتـل . . . وسار الى ديـار بكر حيث توجه إليه سيف الدولة فرحل راجعاً الى الشام وقتل من أهله عدداً متوافراً وأخرب حصوناً كثيرة من حصون المسلمين وأسر محمد بن ناصر الدولة[1] .

أسر أبي فراس الحمداني :

وفي سنة ٣٤٩ هـ . غزا سيف الدولة بلاد الروم في جمع كبير فقتل وسبى وأخذ من الغنائم والاسرى شيئاً كبيراً وبلغ الى خرشنة ، فوجد ليون بن الفقاس قد سبقه الى درب المغارة الذي كان يقصده فتحـاربا وأخـذ الروم عليـه المضايق ولما اراد الرجوع قال له من معه من أهل طرسوس : ان الروم قد ملكوا الـدرب خلف ظهرك فلا تقدر على العودة منه والرأي ان ترجـع معنا . . فلم يقبـل منهم لأنه كان معجباً برأيه يحب أن يستبد ولا يشاور احداً لئلا يقال انـه أصاب بـرأي غيـره وعاد في الـدرب الذي دخـل منه فـظهر الـروم واستردوا مـا كان معـه من الغنائم والاسرى ووضعـوا السيف في اصحابـه وأتوا عليهم قتـلاً وأسراً وتخلص هـو في ثلاثمـائة رجـل بعد جهـد ومشقة[2] وأسـر في هـذه المـرحلة ابـو فـراس الحمداني وعلي بن منقذ بن نصر الكناني ، ومطر بن البلدي ، وقاضي حلب أبو حصين الرقي وهـذان الاخيران قتـلا . . . وقيل ان ابـا حصين قتـل في المعركـة فداسه سيف الدولة بحصانه وقـال : « لا رضي الله عنك فـانك كنت تفتـح لي أبواب الظلم » وقيـل انهم لما أخـذوا الطرق عـلى سيف الدولـة وثب به حصـانه عشرين ذراعاً وقيل اربعين فنجا في نفر قليل[3] .

وأبو فراس الحمداني الذي وقع في الاسر في تلك المـرحلة كتب وهو اسـير

---

(١) ابن العديم تاريخ حلب ص ١٢٩ .

(٢) ابن الاثير الكامل ج ٨ ص ٥٣٠ ـ ٥٣١ . ابن العديم تاريخ حلب ج ٢ ص ١٣٠ .

(٣) ابن العديم تاريخ حلب ج ٢ ص ١٣٠ .

أحسن شعره متأسياً شاكياً ، عاتباً طالباً من سيف الدولة ان يفديه .

وأسر في نفس السنة غلام سيف الدولة « نجا » الذي دخل بلاد الروم خمسمائة الفاً أتى بهم في السلاسل[١] .

سقوط حلب وهزيمة سيف الدولة :

سنة ٣٥١ هـ . وبينما كان سيف الدولة على بانقوسا[٢] وردت عساكر الروم الى الهزازة[٣] فالتقوا وانهزم الحلبيون وقتل وأسر منهم جماعة كبيرة وكان سيف الدولة راكباً على فرس له يعرف بالضحى فانهزم مشرقاً حتى بعد عن حلب ثم انحرف الى فنسرين فبات بها[٤] بعدما قتل أكثر من كان معه ومن القتلى جميع ابناء داود بن حمدان[٥] .

وبعدما اقام الروم على ظاهر البلدة اربعة أيام محاصرين لها . . . وبعد خروج شيوخ حلب لمقابلة نقفور بطلب منه . . . وبعد مفاوضات بين الطرفين . . . دخل نقفور حلب بعد ان قاتل اهلها بواسطة السلالم التي نصبوها على السور وأخذ الدمستق من سكانها خلقاً من النساء والاطفال وقتل معظم الرجال ولم يسلم الا من اعتصم بالقلعة من العلويين والهاشميين والكتاب . وزحف اليها ابن اخت الملك فرماه ديلمي فقتله فطلبه من الناس فرموه برأسه فقتل عند ذلك من الاسرى اثني عشر آلف اسير[٦] ، وقيل انه لما قرب من بابها (باب القلعة) القي عليه حجر فسقط ورمي بخشب فقتل فأخذه اصحابه وعادوا به الى الدمشق فلما رآه قتيلاً قتل من معه من اسرى المسلمين وكانوا ١٢٠٠ رجل وعاد الى بلاده[٧] .

---

(١) الطبري صلة ص ٣٩٢ .
(٢) جبل في ظاهر مدينة حلب في الشمال معجم البلدان ج ١ ص ٤٨٣ .
(٣) حي قائم في الشمال الغربي من حلب . ابن العديم تاريخ حلب ج ٢ هامش ص ١٣٤ .
(٤) ابن العديم . تاريخ حلب ج ٢ ص ١٣٤ .
(٥) مسكويه . تجارب الامم ج ٢ ص ١٩٢ .
(٦) ابن العديم تاريخ حلب ج ٢ ص ١٣٧ ـ ١٣٨ .
(٧) ابن الاثير الكامل ج ٨ ص ٥٤١ ـ ٥٤٢ .

وكان في حلب من أسرى الروم ١٢٠٠ رجل فتخلصوا وحملوا السلاح على المسلمين بعد ان وصل الروم اليها وأشرفوا عليها ورأوا الفتنة والنهب فنزلوا وفتحوا الابواب ووضعوا السيف في الناس فقتلوا كل من لقيهم ولم يرفعوا السيف الى ان كلّوا وضجروا وسبي من البلد بضعة عشر الف صبي وصبية وغنموا ما لا يوصف كثرة ، وكان سيف الدولة قد أعد من الروم سبعمائة رجل ليفادى بهم فأخذهم الدمستق وأخذ من خزائن سيف الدولة وامتعة التجار ما لا يحد ولا يوصف كثرة فلما لم يبق معه شيء يحمل عليه أحرق الباقي بالنار وعمد الى الخباب التي يحرز فيها الزيت فصب فيها الماء حتى فاض الزيت على وجه الارض ، وأمر باحراق المساجد وأكثر الاسواق والدار التي لسيف الدولة وأكثر دور المدينة ، وكان قد بذل لأهل حلب الامان على ان يسلموا اليه ثلاثة آلاف صبي وصبية ومالاً حتى ينصرف عنهم فلم يجيبوه على ذلك ، وخرج بعدها الى القسطنطينية بعد ان اقام فيها تسعة أيام[١] .

وكان لا بد لسيف الدولة من الانتقام فأرسل جنداً من طرسوس اوغلوا حتى قونية وخربوا في أرض الروم وعادوا بالاسرى ، وأرسل فريقاً آخر من ملطية فاتجهوا الى مبافارقين ، في الوقت الذي خرج سيف الدولة نفسه رغم مرضه على رأس قواته ليغير على اراضي العدو ، وكان ذلك في الوقت الذي عمّ الاستياء المسلمين جميعاً لما حلّ بحلب على ايدي الروم[٢] ، وقد سقط في هذه الحروب الدمستق بن الشمشقيق الى الأرض وكاد يؤسر فقاتل عليه الروم وأسر أهل طرسوس بطريقاً من بطارقة الروم ورحل الروم عنهم[٣] .

---

(١) مسكويه ، تجارب الامم ج ٢ ص ١٩٣ .
ابن الاثير الكامل ج ٦ ص ٥٤١ - ٥٤٢ .
ابن العديم ، تاريخ حلب ج ٢ ص ١٤٠ .
الطبري . صلة ص ٣٩٤ .
كنار ، سيف الدولة الحمداني ص ١٤٨ .
(٢) عاشور ، سعيد ، تاريخ الدولة البيزنطية ص ٢٠٥ .
(٣) ابن الاثير ، الكامل ج ٨ ص ٥٥٥ .

احتلال المصيصة وطرسوس :

سنة ٣٥٤ هـ . ارسل ملك الروم الى المصيصة قائداً من قواده فأقام عليها يحارب اهلها ثم جاء الملك بنفسه فأقام عليها وفتحها عنوة بالسيف ووضع السيف في أهلها فقتل منهم مقتلة عظيمة ثم رفع السيف وأمر أن يساق من بقي في المدينة من الرجال والنساء والصبيان الى بلد الروم وكانوا نحو مائتي الف انسان ثم سار عنها الى طرسوس فحاصرها فاذعن أهلها بالطاعة فاعطاهم الامان وفتحوا ابوابها فدخلها ولقي اهلها بالجميل ودعا رؤساءهم الى طعامه فأكلوا معه وأمرهم بالانتقال عنها وان يحمل كل واحد من ماله وسلاحه ما اطاق حمله ويخلف الباقي ففعلوا وساروا وسيّر معهم ثلاثة نفرَ من البطارقة يحمونهم فعرض لهم قوم من الارمن فأوقع الملك بهم وعاقبهم وقطع انوفهم لمخالفتهم امره ، ولم يزل طول طريقهم يتعرف أخبارهم بكتبه ورسله الى ان عرف سلامتهمَ وحصولهم بانطاكية وحمل بعضهم شلندبات له الى حيث ارادوا(١) .

ثم جعل الملك المسجد الجامع بطرسوس اصطبلاً لدوابه ونقل ما كان فيه من قناديل الى بلده وأحرق المنبر وقلد البلد بطريقا من بطارقته في خمسة آلاف رجل وقلد المصيصة بطريقاً آخر وتقدم بعمارة طرسوس وتحصينها وجلب الميرة اليها من كل جهة فعمرت ورخص السعر بها حتى صار الخبز بها رطلين بـ دانق فتراجع اهلها ودخلوا في طاعة الملك وتنصر بعضهم . وعمل الملك على ان يجعلها حصناً ومعقلاً لحصانتها وليقرب عليه ما يريد من بلدان الاسلام .

وعندما رجع جماعة من أهل المصيصة اليها وتنصروا كان السبب في فتح المصيصة انهم هدموا سورها بالنقوب فأشار عليهم رجل بحيث ان يخرجوا الاسارى ليعطف عليهم الملك نقفور فأخرجوهم فعرفه الاسارى بعدم الاقوات وأطمعوه في فتحها فزحف عليها ، ولقد قاتل أهلها في الشوارع حتى ابادوا من الروم اربعة آلاف ثم غلبوهم بالكثرة وقتلوهم وأخذوا من اعيانهم مائة ضربوا رقابهم بازاء طرسوس فأخرج اهل طرسوس من عندهم من الاسرى فضربوا اعناقهم على باب البلد وكانوا ثلاثة آلاف : وفي هذه السنة اشتد الحصار على مدينة طرسوس وتكاثرت عليهم جموع الروم وضعفت عزائمهم بأخذ المصيصة وبما هم

(١) مسكويه تجارب الامم ج ٢ ص ٢١١ .

فيه من الغلة والغلاء ، وعجز سيف الدولة عن نجدتهم وانقطعت المواد عنهم وطال الحصار وخذلوا فراسلوا نقفور ملك الروم في ان يسلموا اليه البلد بالامان على أنفسهم وأموالهم واستوثقوا منه بإيمان وشروط . ودخل طائفة من وكلاء الروم فاشتروا منهم من البز الفاخر والاواني المخروطة واشتروا من الروم دواب كثيرة تحملهم لأنه لم يبق عندهم دابة الا أكلوها وخرجوا بحريمهم وسلاحهم وأموالهم(١) .

وفاة سيف الدولة والصراع بين خلفائه والبيزنطيين :

ونتيجة لما حل بالمصيصة جعل حصن طرسوس يستسلم دون مقاومة . اما سيف الدولة فقد أدرك استحالة الوقوف في وجه نقفور بعد ان استولى على حصن قليقية فلجأ هذه المرة الى مسالمته على أساس تبادل الاسرى بين الطرفين وما لبث ان توفي سيف الدولة في شباط سنة ٩٦٧م / ٣٥٦هـ(٢) .

وبوفاة سيف الدولة تفككت الدولة الحمدانية وغدا الامراء الحمدانيون فريسة بين امراء بني بويه من ناحية وضغط الخلفاء الفاطميين من ناحية اخرى وهجوم الجيوش البيزنطية من ناحية ثالثة ، مما دفع الامبراطور البيزنطي نقفور فوقاس في التقدم بـ خمسة آلاف فارس وراجل وصار الى نواحي حلب فواقعه قرغويه(٣) بعسكر حلب فأسر قرغويه ثم افلت وانهزم اصحابه وأسر ملك الروم جماعة من غلمان سيف الدولة ، ثم خرج نقفور ملك الروم الى معرّة النعمان ففتحها وأحرق جامعها . . وكذلك فعل بمعرة مصرين(٤) ولكنه أمّن اهلها من القتل وكانوا الفاً ومائتي نفس وأسرهم وسيّرهم الى بلد الروم ، وتابع طريقه الى حمص وأسر من كان صار الى تلك الناحية ووصل الى عرقة ففتحها وأسر

---

(١) مسكويه تجارب الامم ج ٢ ص ٢١١ .

(١) مسكويه . تجارب الامم ج ٢ هامش ص ٢١٢ .
كنار سيف الدولة الحمداني ص ١٤٩ وما يليها .

(٢) عاشور ، سعيد تاريخ الدولة البيزنطية ص ٢٠٦ .

(٣) حاجب سيف الدولة .

(٤) هي تليدة وكورة بنواحي حلب من اعمالها ، بينهما ٥ فراسخ (معجم البلدان) .

أهلها . ووصل الى انطاكية وفي يده من السبي مائة الف رأس ، ولم يكن يأخذ الا الصبيان والصبايا والشباب وأما الكهول والمشايخ والعجائز فمنهم من قتله ومنهم من تركه[١] .

واستغل البيزنطيون النزاع بين الحاجب قرغويه وأبي المعالي بن سيف الدولة وأسرعوا الى حلب واستطاعوا دخولها ووافقوا على عقد هدنة بينهم وبين قرغويه أمير حلب[٢] وهكذا استطاع نقفور فوقاس ان يبسط سيطرة الامبراطورية البيزنطية على شمال الشام بحيث اصبح النفوذ البيزنطي في تلك الانحاء حقيقة فعلية[٣] .

أسر القائد البيزنطي (مليح) :

سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٣ هاجم قائد الجيش البيزنطي في الشرق واسمه مليح (Milh) وهو ارمني اعالي الفرات عازما الاستيلاء على آمد فتوجه اليه غلام ابي الهيجاء بن حمدان فكتب الى ابي تغلب في آمد يستنجده فسيّر اليه أخاه ابا القاسم هبة الله بن ناصر الدولة واجتمعا على حرب الدمستق وجرت الموقعة على نهر دجلة قريبا من المدينة ميا فارقين وذلك سنة ٩٧٣ م (رمضان ٣٦٢ هـ) واسر مليح ولقي عدد كبير من العساكر مصرعهم وارسل « مليح » ومن وقع معه في الاسر من القادة وكلهم من ذوي الرتب العالية وعددهم أربعون الى آمد مكبلين بالاغلال[٤] .

ولقد ارسل الطائع لله الى ركن الدولة البويهي رسالة يخبره فيها بانتصار المسلمين على الروم واسر الدمستق مليح . قائلا : « وقد عرفت ـ احسن الله الولاية فيك ـ ما كان من عظيم الروم لما تطاول بواسط مقام عز الدولة ابي منصور مولى امير المؤمنين ـ رعاه الله ـ وثقته ببعد المسافة على ابي تغلب فضل

---

(١) ابن النديم تاريخ حلب ج ٢ ص ١٥٨ .
ابن الاثير الكامل ج ٨ ص ٥٩٦ و ٥٩٧ .
(٢) نفس المصدر ص ١٦١ .
(٣) عاشور ، سعيد تاريخ الدولة البيزنطية ص ٢٠٧ .
(٤) ابن الاثير الكامل في التاريخ ج ٨ ص ٤٦١ ..

الله ابن ناصر الدولة عامل امير المؤمنين في الاستصراخ والاستنجاد ، وطول الشقة في الاستنفار والاستمداد وانتهازه هذه الفرصة ومسيره في العدو الجم من الكفار وتناهيه في الاحتشاد والاستكثار ، وتوغله في دار الاسلام الى نصيبين وايقاعه ونكايته بمن بها من المسلمين والمعاهدين . . . وتواترت بعد ذلك على ابي تغلب والمنفذين اليه اخبار عسكر ببطن هنزيط ونواحيه ومعبر الفرات وما يليه ، فأنفذ اخاه هبة الله من ناصر الدولة في معظم الرجال الذين امده بها عز الدولة ـ رعاه الله ـ وساروا بصدور منشرحة وآمال منفسحة ، ووردوا ظاهر آمد يوم الثلاثاء لثلاث بقين من شهر رمضان سنة ٣٦٢ هـ . فعرفوا صحة خبر الدمستق لعنه الله وحصوله على افواه الدروب في خمسين الف رجل ، منهم عشرون الفا من المدججة وذوي المراتب المقدمة . . . فلما استعرت الملحمة وعلت الغمغمة ودارت رحى الحرب واستحر الطعن والضرب واشتجرت سمر الرماح وتصافحت بيض الصفاح ، تداعى الأولياء بشعار امير المؤمنين المنصور وتنادى الكفار بالويل والثبور ، فنكصوا على اقدامهم مجبرين في الهزيمة ، واعتدوا الحشاشات لو سلمت لهم من اعظم الغنيمة ، واستلحمتهم السيوف واحتكمت فيهم الحتوف، واخذ المسلمون منهم الثأر وعجل الله بأرواحهم الى النار ، واسر بعد قتل الوف منهم في المعركة الدمستق رئيس عساكرهم وقائدها ومدبر حروبهم ومرتبها . وما اخذ المسلمون قبله دمستقا ، وحصل معه المعروف بابن البلنطي وهو طريده[1] في الرئاسة ورسيله[2] في السياسة ، وجماعة من البطارقة، قد اذلهم الله بوثائق الاسر واذاقهم وبال الكفر، وافاء على اوليائه الصالحين من الخيل والسواد والاسلاب ما ازدادت به قوتهم واشتدت معه شوكتهم[3]» .

حملة الامبراطور تزيمسكس (٣٦٤ هـ ـ ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ م ـ ٩٧٦ م) :

بعدما انتهى الامبراطور البيزنطي تزيمسكس من محاربة البلغار ، توجه

(١) طريده : الشخص الثاني والذي يليه مباشرة في الرتبة .
(٢) توفيق ، عمر كمال مقدمات العدوان الصليبي ص ٢٠٣ ـ ٢١٠ .
(٣) توفيق ، عمر كمال مقدمات العدوان الصليبي ص ٢٠٣ ـ ٢١٠ .

بحملة على المسلمين في الشرق ، واتجه نحو الشام وفلسطين ونزل على حمص واقتحمها . وفرض على اهلها جزية وعن هذه الحملة يقول ابن حوقل الذي كتب بعد هذه الحملة مباشرة سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م[١] « وحمص دخلها الروم ، فأتوا على سوارها واخربوها ، وقد زاد اختلالها بعد دخول الروم اليها ، وانصرف سكانها عنها . . . وما اظن الروم تركت بها رمقا لما بعد » . ثم توجه نحو بعلبك عبر منخفض نهر العاصي فأخذها واخذ منها ، ومما حولها سلبا كثيرا واشعل الحرائق وانتشرت جيوشه في عمال بعلبك والبقاع تحرق وتسبي ، وعندما اقترب من دمشق خرج اليه « فتكين » صاحبها طائعا ودعاه لدخولها على ان يحمل اهلها اليه في كل عام ستين الف دينار[٢] .

وتابع تزيمسكس زحفه جنوبا ، فاستولى على بانياس ثم اخذ طبريا وعيّن عليها حاكما بيزنطيا حتى وصل الى قيساريه واستولى عليها[٣] ونزل بعدها في غالبية مدن الساحل اللبناني من صيدا الى بيروت الى جبيل الى طرابلس ، وكان يسبي في طريقه من اهالي تلك البلاد اذ عند وصوله الى ثغر بيروت ، وعند امتناع اهله معتمدين على عساكر « نصر الخادم » قاتلهم وافتتح الثغر عنوة وسبى منه السبي الكثير ، واخذ القائد نصرا الخادم اسيرا مع الفين من العسكر الفاطمي[٤] .

وتوجه بعدها الى جبيل فاعتصم اهلها بحصنها ، فنازله حتى افتتحه ، وجرى امرها مجرى بيروت ، وعندما وصل الى طرابلس اصطدم بدفاع اهلها بعد تكاتفهم بقيادة « ريان الخادم » واستعدوا لقتال اتزيمسكس[٥] ، واصطدمت فرقة من حامية طرابلس مع طلائع القوات البيزنطية قبل وصولها الى طرابلس ، إلا ان ذلك لم يمنعه من دخول المدينة[٦] ، ثم غادر بعدها طرابلس باتجاه

(١) ابن حوقل صورة الارض ص ١٦٣ ـ ١٦٤ .
(٢) المقريزي خطط ج ٣ ص ١٣٠ طبعة مصر ١٣٢٥ هـ .
(٣) توفيق ، عمر كمال مقدمات العدوان الصليبي ص ١٥٠ ـ ١٥١ .
(٤) توفيق ، عمر كمال مقدمات العدوان الصليبي ص ١٥٣ .
(٥) توفيق ، عمر كمال مقدمات العدوان الصليبي ص ١٥٤ .
(٦) تدمري ، عمر عبد السلام تاريخ طرابلس ص ١٩٣ .

الشمال واستولى على بانياس وجبله وتسلم حصني برزويه[1] وصهيون[2] ورحل اخيرا الى انطاكية ومنها الى القسطنطينية حيث مات (٣٦٥ هـ/ ٩٦٧ م) ومات ايضا المعز لدين الله[3].

(١) برزويه : حصن قرب السواحل الشامية على سن جبل شاهق ، يضرب بها المثل في بلاد الافرنج بالحصانة ياقوت معجم البلدان ص ٣٨٣ . ج : ١ .

(٢) صهيون : حصن من اعمال سواحل بحر الشام من اعمال حمص .
ياقوت معجم البلدان ج ٣ ص ٤٣٦ .

(٣) تدمري ، عمر عبد السلام تاريخ طرابلس ص ١٩٦ .

أسر ورد الرومي

سبب الأسر :

لما توفي ارمانوس ملك الروم اتفق ان نقفور الدمستق ، وهو رجل ذو سياسة وصرامة كان قد خرج الى بعض بلاد الاسلام ، ونكأ فيها ثم عاد فعرف خبر وفاة ارمانوس حين قرب من القسطنطينية ، فاجتمع اليه وجوه الجند ، وقالوا له : ان الملك قد مضى وخلف ولدين لا غناء عندهما مع صغر سنهما ، وما يصلح للنيابة عنهما في تدبير الملك غيرك ونحن نرى ذلك من المصلحة للناس والمملكة ، فامتنع ، فراجعوه حتى اجابهم . ودخل الملكان وخدمهما واظهر الحجبة لهما والنيابة عنهما ثم لبس التاج وتزوج بوالدتهما ، ثم وقع منه جفاء لها استوحشت به منه ، ثم ما لبثت هذه المرأة ان راسلت ابن الشمشقيق واطمعته في قتل نقفور واقامته مقامه في التدبير ، واستقر الامر بينهما على ان صار هو وعشرة نفر من خواصه سرا الى البلاط التي تنزلها هي ونقفور فأدخلته ليلا ، وكان نقفور يجلس اكثر الليل للنظر في الامور وقراءة السير ويبت على باب البيت الذي يأوى الى فراشه فيه خادمان ، فلما حصل ابن الشمشقيق داخل البلاط هجموا على الموضع وقتلوا الخادمين وافضوا الى نقفور وقتلوه ووقعت الصيحة وظهرت القصة واستولى ابن الشمشقيق على الامر وقبض على لاون اخي نقفور وعلى ورد بن لاون . وكان ورد كبيرا من كبراء اصحاب الجيوش ومقيما في بعض

الاعمال ، فطمع في الامر وجمع الجموع واستجاش بالمسلمين من الثغور ، وكاتب ابا تغلب بن حمدان وواصله وصاهره ، واخرج الملكان اليه عسكر فكسرهم وسار الى القسطنطينية ، ثم انهزم ورد ودخل الى بلاد الاسلام ووصل الى ميا فارقين ، وراسل عضد الدولة وانفذ اخاه اليه فأحسن تقبله ووثق به واعاده عليه بوعد جميل في انجاده ، وتلاه رسول ملك الروم يلاطف عضد الدولة في امره فقوي في نفسه ترجيح جانب ملك الروم على ورد ، وبدا له رأي في تدبير القبض عليه ، فكاتب ابا علي التميمي بالتوصل الى تحصيله ، فخرج ابو علي اليه بعد مراسلة ترددت بينهما في الاجتماع وقبض عليه وعلى ولده واخيه وجماعة من اصحابه[١] . وكان عددهم يقدر بـ ٣٠٠ نفس ، ولما وصل ورد انزله عضد الدولة دارا خليت له ووسع عليه الجراية واعتقله واحتاط عليه ووعده باطلاقه وتجريد عسكره معه ، وبقي ورد واصحابه في الحبس مدة ثمانية اعوام ثم افرج عنهم صمصام الدولة[٢] .

وفي سنة ٣٧٥ م . افرج عن ورد الرومي ومن معه من الاسارى بسفارة زياد بن شهراكويه بعدما شرطت عليه شروط وعقدت معه عقود ، وكان شرح الحال في حضوره ان فرشت دار المملكة بالفروش العضدية (منسوبة الى عضد الدولة) المستعملة لمجالسها وعلقت الستور الديباج على جميع ابوابها وصحونها وممراتها ودهاليزها ، واقيم الديلم من وجله الى حضرة صمصام الدولة على مراتبهم صفين بأجمل لباس وابهى عدد وسلاح وفي ايديهم وايدي غلمانهم الزوبينات (الرمح القصير) وجلس صمصام الدولة على سدة كبيرة من تحتها نهر مرصص يجري فيه الماء وقد وضعت بين يديه الكوانين[٣] فيها قطع العود تتقد وتبخر ، ووافى وردو اخوه وابنه بين السماطين[٤] وعلى ورد القباء[٥] وبين يديه

(١) مسكويه تجارب الامم ج ٣ ص ١٢ ـ ١٤ .
(٢) الصابىء رسوم دار الخلافة ص ١٦ ـ ١٧ .
(٣) الكوانين : جمع كانون : الموقد الذي يُصطلى عليه ايام الشتاء .
(٤) السمَّاط : كل شيء يصطف .
(٥) القباء : ثوب يلبس فوق الثياب يسمى القمباز : كلمة فارسية .

الحجاب بالسيوف والمناطق المخروزة وسلم على صمصام الدولة سلاما لم يزده فيه على الانحناء قليلا وتقبيل يده له وطرح له كرسي من فوق مخدة ، وتخاطبا خطابا كان الترجمان يفسره لكل منهما وانصرف من باب غير الباب الذي دخل فيه ، وقد اقيم في الدار الاخرى من الجند مثل ما كان في الاولى ، فان عدة الديلم كانت يومئذ نحو عشرة آلاف رجل وكان ذاك مع جلالته في وقته لا يقاس ببعض ما كان في ايام المقتدر بالله صلوات الله عليه ، وكان ما تقدمه من مثله في ايام الخلفاء المتقدمين لا ينقاس به لعظم الامر سالفا وتناقصه آنفا[1] .

واستمرت المناوشات بين حكام الاقاليم فيما بينهم من جهة ، واستنجادهم بالبيزنطيين للقضاء على مناوئيهم ، كما حدث عندما استنجد سعيد الدولة الحمداني بباسل الثاني محذرا من استيلاء منجوتكين الفاطمي على حلب قائلا : « متى اخذت حلب ، اخذت انطاكية ومتى اخذت انطاكية اخذت القسطنطينية[2] .

ونتيجة لهذا الشقاق الذي دب بين صفوف المسلمين ، فقد تعرضت بلاد الشام لكثير من الاضطرابات بسبب الخلافات بين حكامها المحليين من جهة ، فضلا عن التنافس بين الخلافة الفاطمية والامبراطور البيزنطي من جهة اخرى ، وكان ذلك في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله (٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م) . وزاد هذا الموقف سوءا ان الاطراف الاسلامية المتنازعة اعتاد بعضها على الاستنجاد بالبيزنطيين ، من ذلك ما حدث في صور سنة ٣٨٣ هـ/ ٩٩٣ م . اذ قامت فيها ثورة للتخلص من سيادة الخلافة الفاطمية واستعان الثوار بالدولة البيزنطية . كما حدث سنة ٣٨٨ هـ/ ٩٩٨ م ان تعرضت افامية في شمال الشام لهجوم مباغت من قبل دوق انطاكية فهبت لنجدتها القوات الفاطمية من بيروت وصور ودمشق وانزلت ضربة قاصمة بالبيزنطيين ، اذ هلك دوق انطاكية وسقط معظم جنده قتلى واسرى وكان من جملة الاسرى ابناء الدوق وجماعة من كبار قادته[3] .

---

(١) الصابىء : رسوم دار الخلافة ص ١٦ ـ ١٧ .

(٢) تدمري ، عمر عبد السلام تاريخ طرابلس ص ٢٠٤ .

(٣) عاشور ، سعيد تاريخ الدولة البيزنطية ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ .

حملة الامبراطور باسيل الثاني على طرابلس :

كان الامبراطور البيزنطي باسيل الثاني قد وجّه حملته الاولى لاحتلال طرابلس سنة ٣٨٥ هـ/ ٩٩٥ م . ولكنها باءت بالفشل واتصفت حملاته على المواقع الاسلامية في شمال الشام بالتدمير والتخريب وقتل الرجال وابادتهم بحيث تبقى الارض والمدن خرابا لا يوجد من يفلحها او يعمرها .

في ٣٨٩ هـ / ٩٩٩ م ، فرض حصارا شديدا على مدينة طرابلس ، غير ان جميع جهوده باءت بالفشل مثلما حدث في المرة السابقة ولكنه بدأ بارسال قوات لمهاجمة المواضع الاسلامية القريبة ـ مثل جبيل وبيروت وجبله ـ فكانت تخربها وتعود باعداد كبيرة من الاسرى والسبايا الذين تم شحنهم في السفن ليباعوا رقيقا في اسواق ازمير والقسطنطينية وسالونيقا وغيرها[١] .

حالة السلم بعد الحملة :

ولقد شهدت بلاد الشام حالة سلم نسبية بين الدولة الفاطمية والامبراطورية البيزنطية بعد حملة باسيل الثاني الاخيرة فلم تتعرض لحملات بيزنطية جديدة طوال عشرين عاما . اذ أظهرت اخت الحاكم بأمر الله « ست الملوك » بعد وفاته سنة ٤١٦ هـ/ ١٠٢٠ م . حسن نواياها نحو الامبراطورية البيزنطية فأرسلت بطريرك بيت المقدس « نيقيفور » الى القسطنطينية ليطلع باسيل على عودة الكنائس في بيت المقدس وجميع بلاد مصر والشام الى النصارى لمزاولة طقوسهم الدينية ورجوع اوقافها عليها ، واطلاق التجارة للروم في بلاد الاسلام[٢] .

على ان وفاة الامبراطور باسيل الثاني ٤١٨/ ١٠٢٥ م . تعتبر نقطة تحول هامة في تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، نظرا لما اعقب هذه الوفاة من انحلال في تلك الامبراطورية الداخلية والخارجية ، ذلك ان باسيل الثاني لم يترك ابنا يرثه .

---

(١) عاشور ، سعيد ، تاريخ الدولة البيزنطية ص ٢٢٥ .
(٢) ماجد ، عبد المنعم ، الامام المستنصر بالله الفاطمي ص ٧٤ .

فانفرد اخوه قسطنطين الثامن بعرش الامبراطورية (٤١٨ هـ - ٤٢١ هـ/ ١٠٢٥ م - ١٠٢٨ م) وذلك بعد ان بلغ به كبر السن درجة جعلته لا يهتم بشؤون امبراطوريته[١] او بتعديل اسلوب حياته[٢] . وعقد هدنة مع الخليفة الظاهر الذي تفرغ للقضاء على خصومه في بلاد الشام[٣] .

وفي سنة ٤٣٢ هـ . اسر ابن عم ملك الروم في وقعة بين عسكر المصريين والروم[٤] .

وبوفاة الامبراطور قسطنطين الثامن ، الذي لم يترك وريثاً يحفظ اسم البيت المقدوني ، انتقل الحكم بالتتابع الى ابنتيه زوى وتيودورا . فالامبراطورة زوى حكمت حتى سنة ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م . ولحق بها زوجها قسطنطين السابع سنة ٤٤٦ هـ/ ١٠٥٤ م . حيث تزوجت ثلاث مرات وكانت مشاكلها الداخلية كثيرة ، اضافة الى استنزاف اموال الدولة وازدياد التذمر من الاهالي بسبب قسوة الضرائب ، والانشقاق الديني بين روما والقسطنطينية ، كل ذلك جعلها تحافظ على الهدنة التي عقدها والدها مع الخليفة الظاهر . اما الامبراطورة تيودورا فلم تتسلم الحكم الا سنة ٤٤٧ هـ/ ١٠٥٥ م . التي اتصفت بصلابة الرأي . الا انها توفيت في السنة التالية لحكمها ٤٤٨ هـ/ ١٠٥٦ م[٥] .

أسر قاريط (ملك الابخاز) :

وكان المسلمون قد اغتنموا فرصة الاضطرابات الداخلية في الفترة الاخيرة لحكم الامبراطورة زوى ، وغزا ابراهيم ينال[٦] الروم وظفر بهم وغنم . . . وكان ذلك عندما وصل ابراهيم الى ملازكرد وقاليقلا ، وبلغ بجيشه طرابزون

---

(١) عاشور ، سعيد تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ٢٢٨ .

(٢) كان يحيا قبل انفراده بالحكم في قصره محاطا بالغانيات والخصيان الذين ترك لهم شؤون الدولة . نفس المرجع السابق ص ٢٢٨ .

(٣) تدمري ، عمر عبد السلام تاريخ طرابلس ص ٢٢٢ .

(٤) ابن الاثير الكامل ج ٩ ص ٤٩٣ .

(٥) عاشور ، سعيد تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ٢٢٩ .

(٦) شقيق السلطان ركن الدين طغرلبك . ابن الاثير الكامل ج ٩ ص ٥٤٦ .

حيث لقيهم عسكر للروم يبلغ الخمسين ألفا ، وكان ذلك سنة ٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨ م . واشتد القتال . . . وكان آخر الامر النصر للمسلمين الذين اكثروا من القتل في الروم ، وهزموهم واسروا جماعة كثيرة من بطارقتهم ، وكان ممن اسر قاريط ملك الابخاز . الذي بذل في نفسه ثلاثمائة الف دينار وهدايا بمئة الف ولم يجب الى طلبه ، وبقي ابراهيم ينال يجول في تلك البلاد ينهبها ، الى ان بقي بينه وبين القسطنطينية خمسة عشر يوما ، حيث استولى المسلمون على تلك النواحي ونهبوها وما فيها وسبوا اكثر من مائة الف فارس ، واخذوا الغنائم التي حملت على عشرة آلاف عجلة ومن جملتها تسعة عشر الف درع[١] .

على ان الغزو السلجوقي هذا لاراضي الدولة البيزنطية ، لم يتخذ طابعا اجماعيا مفاجئا ورغم غزوة ابراهيم ينال ، لم يكن لدى طغر لبك رغبة في العداء مع القسطنطينية ، فأمر باطلاق سراح القائد البيزنطي الذي اسره ابراهيم ينال وارسل بعثة الى القسطنطينية لعقد الصلح[٢] .

أسر ملك الروم رومانوس :

أورد ابن الجوزي :[٣] انه سنة ٤٦٣ هـ/ ١٠٧١ م . ورد على السلطان خبر ملك الروم في جمعه العساكر الكثيرة ، ومسيره نحو البلاد الاسلامية حيث كان السلطان في قل من العسكر . لانهم عادوا من الشام جافلين الى خراسان للغلاء الذي استنفد اموالهم ، فطلبوا مراكزهم راجعين . وبقي السلطان في نحو اربعة آلاف غلام ، ولم ير مع ذلك ان يرجع الى بلاده ، ولم يجمع عساكره فيكون هزيمة على الاسلام . وبعد موقعة بينهما انتصر السلطان نظام الملك وقتل من الروم خلق كثير ، وإستعداد كل من الطرفين لقتال الآخر ، ارسل السلطان الى ملك الروم طالبا منه العودة الى بلاده ويعود هو فتتم الهدنة بينهما التي توسط فيها الخليفة ، وكان ملك الروم قد بعث رسوله يسأل الخليفة ان يتقدم الى

(١) ابن الاثير الكامل ج ٩ . ص ٥٤٦ .
(٢) عاشور ، سعيد تاريخ الدولة البيزنطية ص ٩ .
(٣) ابن الجوزي . المنتظم ج ٨ ص ٢٦٠ - ٢٦٢ .

السلطان بالصلح والمهادنة ، فعاد جواب ملك الروم بأني قد انفقت الاموال الكثيرة وجمعت العساكر الكثيرة للوصول الى مثل هذه الحالة ، فاذا ظفرت بها فكيف اتركها هيهات لا هدنة الا بالري ولا رجوع الا بعد ان افعل ببلاد الاسلام مثل ما فعل ببلاد الروم . ولما كان وقت الصلاة يوم الجمعة صلى السلطان بالعسكر ودعا الله تعالى وابتهل وبكى وتضرع وقال لهم :

نحن مع القوم واريد ان اطرح نفسي عليهم في هذه الساعة التي يدعى فيها للمسلمين على المنابر ، فاما ان ابلغ الغرض واما ان امضي شهيدا الى الجنة ، فمن احب ان يتبعني منكم فليتبعني ومن احب ان ينصرف فليمض مصاحبا عني فما ها هنا سلطان يأمر ولا عسكر يؤمر ، فأنا اليوم واحد منكم وغاز معكم ، فمن تبعني ووهب نفسه لله تعالى فله الجنة والغنيمة ومن مضى حقت عليه النار والفضيحة . فقالوا له : أيها السلطان نحن عبيدك ومهما فعلته تبعناك فيه واعناك عليه فافعل ما تريد . وزحف السلطان وجيشه الى الروم وحمل عليهم واقتتلوا ساعة اجلت الحال فيها عن هزيمة الكفار فقتلوا يومهم وليلتهم القتل الذريع ونهبوا وسبوا النهب والسبي العظيم ، ثم عاد السلطان الى موضعه فدخل عليه الخادم فقال : يا سلطان احد غلماني قد ذكر ان ملك الروم في اسره ، وهذا الغلام عرض على نظام الملك في حملة العسكر فاحتقره واسقطه فخوطب في امره ، فأبى ان يثبته وقال مستهزيا : لعله ان يجيئنا بملك الروم اسيرا فجرى الله تعالى اسر ملك الروم على يده واستبعد السلطان ذلك واستحضر غلاما يسمى شاذي كان مضى دفعات مع الرسل الى ملك الروم ، فأمره لمشاهدته وتحقيق امره فمضى فرآه ثم عاد فقال : هو ، هو فتقدم بضرب خيمة له ونقله اليها وتقييده وغل يده الى عنقه وان يوكل به مائة غلام وخلع على الذي اسره واعطاه ما اقترحه واستشرحه الحال فقال : قصدته وما اعرفه وحوله عشرة صبيان من الخدم فقال لي احدهم : لا تقتله فانه الملك فأسرته وحملته ، فتقدم السلطان باحضاره ، فاحضر بين يديه فضربه بيده ثلاث مقارع أو أربعا ورفسه مثلها فقال له : ألم آذن لرسل الخليفة في قصدك وامضاء الهدنة معك واجابتك في ذلك الى ملتمسك ؟ ألم ارسلك الان وابذل لك الرجوع عنك فابيت الا ما يشبهك ؟ وأي شيء حملك على البغي ؟ فقال : قد جمعت ايها السلطان

واستكثرت واستظهرت وكان النصر لك فافعل ما تريد ودعني من التوبيخ قال : فلو وقعت معك ماذا كنت تفعل بي ؟ قال : القبيح . قال : صدق والله ولو قال غير ذلك لكذب وهذا رجل عاقل جلد لا ينبغي ان يجلد ، قال : وما تظن الآن ان يفعل بك ؟ قال : احد ثلاثة اقسام ، الاول قتلي والثاني استشهادي في بلادك التي كدت بقصدها وآخذها والثالث لا فائدة في ذكره فانك لا تفعله ، قال : فاذكر ، قال : العفو عني وقبول الاموال والفدية مني واصطناعي وردي الى ملكي مملوكا لك نائبا في ملك الروم عنك . فقال : ما اعتزمت فيك الا هذا الذي وقع يأسك منه وبعد ظنك عنه فهات الاموال التي تفك رقبتك ، فقال : يقول السلطان ما شاء فقال : اريد عشرة آلاف دينار ، فقال : والله انك تستحق مني ملك الروم اذا وهبت لي نفسي ولكني قد انفقت واستملكت من اموال الروم عشرة آلاف دينار منذ وليت عليهم في تجديد العساكر والحروب التي بليت بها الى يومي هذا فافقرتهم بذلك ، ولولا هذا ما استكثرت شيئا تقترحه ، فلم يزل الخطاب يتردد الى ان استقر الأمر على الف الف دينار وخمسمائة الف دينار ، وفي الهدنة على ثلاثمائة وستين الف دينار في كل سنة ، واطلاق كل اسير في بلاد الروم[1] . ولما انصرف رومانوس مأنوسا ، رمى ناسه اسمه ، ومحوا من الملك رسمه ، وقالوا هذا من عداد الملك ساقط ، وزعموا ان المسيح عليه ساخط[2] .

ولقد كانت موقعة ما نزكرت اكبر كارثة حلت بالامبراطورية البيزنطية حتى نهاية القرن الخامس الهجري والحادي عشر الميلادي ، وهي تبرر ما حدث سنة ١٠٩٥ م . من دعوة للحروب الصليبية في الغرب الاوروبي ، على اساس ان هذه الدعوة انما جاءت رد فعل للكارثة التي حلت بالدولة البيزنطية سنة ١٠٧١ م[3] .

---

(١) ابن الجوزي المنتظم ج ٨ ص ٢٦٣ .

(٢) ابن شداد الاعلاق الخطيرة ج ٣ حاشية ٣٧٦ ـ ٣٧٧ .

(٣) عاشور ، سعيد الامبراطورية البيزنطية ص ٢٤٢ .

استخدام المكائد والجاسوسية في الصراع بين المسلمين والبيزنطيين :

ان تاريخ الصراع بين المسلمين والبيزنطيين مليء بمواقف الخداع الحربي الذي كان يقوم به الطرفان في عمليات الحصار والقتال ، ولقد اورد النويري[1] مكيدة « سحيم بن المهاجر » وهي مكيدة دبرها معاوية لأحد بطارقة القسطنطينية على الشكل التالي : « من مكايد معاوية ان رجلا من قريش اسر فحمل الى صاحب القسطنطينية ، فكلمه ملك الروم فجاوبه القرشي بجواب لم يوافقه ، فقام اليه رجل من بطارقة القسطنطينية فوكزه ، فقال القرشي : وامعاوياه ! لقد غفلت امورنا واضعتنا . فوصل الخبر الى معاوية فطوي عليه واحتال في فداء الرجل ، فلما وصل اليه سأله عن امره مع صاحب القسطنطينية وعن اسم البطريق الذي وكزه فلما عرفه ارسل الى رجل من قواد صور الذين كانوا قواد البحر ممن عرفوا النجدة وغزو الروم ، وقال له : انشىء مركبا يكون له مجاذيف في جوفه ، واستعمل السفر الى بلاد الروم واظهر انك تسافر لبلادهم على وجه السر والاستتار منا ، وتوصل الى صاحب القسطنطينية ومكنه من المال ، واحمل اليه الهدايا والى جميع اصحابه ، ولا تعرض لفلان (يعني الذي لطم الرجل القرشي) واعمل كأنك لا تعرفه ، فاذا كلمك وقال لك : لأي معنى تهادي اصحابي وتتركني فاعتذر اليه وقل له : انا رجل ادخل الى هذه المواضع مستترا ولا اعرف الا من عرفت به ، فلو عرفت انك من وزراء الملك لهاديتك كما هاديت اصحابك ، ولكني اذا انصرفت اليكم مرة اخرى سأعرف حقك . ففعل القائد ذلك ، ولما انصرف اليهم ثانية هاداه والطفه واربى في هديته على اصحابه ، ولم يزل حتى اطمأن اليه العلج . فلما كان في احدى سفراته قال له البطريق : كنت احب ان تجلب الي من بلاد المسلمين وطاء ديباج يكون على الوان الزهر ، قال : نعم ، فلما انصرف اخبر معاوية بما طلبه البطريق ، فامر له ببساط على ما وصف وقال : اذا دخلت وادي القسطنطينية فاخرجه وابسطه على ظهر المركب وتربص في الوادي حتى يصل الخبر الى ذلك العلج ، وابعث له في السر وتحيّن خروجه الى ضيعته التي له على ضفة وادي القسطنطينية ، فاذا

---

(١) النويري ، نهاية الارب في فنون الادب ج ٦ ص ١٨٥ ـ ١٨٧ .

وصلت الى حد ضيعته فابتدىء بها ، لعل يحمله الشره على الدخول اليك ، فاذا حصل عندك في المركب فمر الرجال باشارة تكونْ بينك وبينهم ان يستلموا المجاديف التي في جوف المركب وكر به راجعا الى الشام ، ففعل ما امر به معاوية ، وصادف ذلك القائد وجود البطريق في ضيعته ، فبسط ذلك البساط على ظهر المركب ووصل الى عرض ضيعة العلج ، فلما عاين البساط حمله الشره والحرص الى ان دخل المركب ، فلما صار في المركب اشار القائد الى رجاله فرجعوا بالمركب بعد أن اوثق البطريق ومن معه ، وسار بهم حتى قدم على معاوية ، فاحضر معاوية البطريق ووقفه بين يديه ، واحضر القرشي وقال : هذا صاحبك ؟ قال : نعم قال : قم فاصنع به ما صنع بك ولا تزد . فقام القرشي فوكزه كما كان فعل به العلج . ثم قال معاوية للبطريق : ارجع الى ملكك وقل له : تركت ملك الاسلام يقتص من اصحاب بساطك ، وقال للذي ساقه : انصرف به الى اول ارض الروم واخرجه ، واترك له البساط وكل ما سألك ان تحمله اليه من هدية ، فانصرف به الى فم وادي القسطنطينية فوجد ملك الروم قد صنع سلسلة على فم الوادي ووكل بها الرجال فلا يدخل احد الى الوادي الا بإذنه ، فاخرج العلج ومن معه وما معه . فلما وصل الى ملكه ووصف له ما صنع به معاوية قال : هذا ملك كبير الحيلة . فعظم معاوية في اعينهم وفي نفوسهم فوق ما كان .

ولقد اتسع نطاق استخدام الجواسيس في العصر العباسي ، فسافروا رجالا ونساء الى الاقاليم المجاورة متنكرين في صور عديدة من تجار او اطباء يجمعون الاخبار وينقلونها . وهذا واجب ان دعت اليه الحاجة ، فلقد ارسل الرسول (ص) عبد الله بن ابي حدرد الاسلمي ليذهب فيدخل بين المشركين قبل غزوة حنين سنة ٥٨ . ويقيم فيهم ويعلم اخبارهم ثم يعود بذلك اليه (ص) فانطلق حتى دخل بينهم وطاف بمعسكرهم ثم جاءه بخبرهم[1] ولقد استطاعت امرأة رومية كانت تتكفف الناس ان تتعرف على شخصية عبد الله بن قيس الحارثي الذي لم ينكب في خمسين غزاة بين شاتية وصائفة في البحر ، وكان

---

(١) البوطي ، محمد سعيد رمضان ، فقه السيرة ص ٣٨٥ .

قد انتهى الى المرقى من ارض الروم وحده في قارب استطلاع فدلت المرأة الروم عليه فقاتلوه حتى قتل[1] .

وقد روى المسعودي في كتابه مروج الذهب[2]: اخبرني بعض الروم ممن كان قد اسلم وحسن اسلامه : ان الروم صوّرت عشرة انفس في بعض كنائسها من اهل البأس والنجدة والمكايد في النصرانية والحيلة من المسلمين .

ولقد اورد البلاذري[3] ان الحسن بن قحطبة الذي وجّهه المهدي لقتال الروم « ثقلت وطأته على اهلها حتى صوروه في كنائسهم » وعن طريق هذا التصوير يتعالم الناس اوصاف اعداء الدولة فيسهل الاستدلال عليهم . وفي عهد الرشيد اشتغل شخص يدعى عبد الله السيدي بالجاسوسية في اراضي الامبراطورية البيزنطية مدة عشرين عاما[4] .

هذا وكان جائزا للامام ان يستعين في الجهاد وغيره بالعيون والمراقبين ، يبثهم بين الاعداء ليكتشف المسلمون خططهم واحوالهم وليتبينوا ما هم عليه من قوة في العدة والعدد ، ويجوز اتخاذ مختلف الوسائل لذلك ، شرط ان لا تنطوي الوسيلة على الاضرار بمصلحة هي اهم من مصلحة الاطلاع على حال العدو . وربما استلزمت الوسيلة تكتما او نوعا من المخادعة او التحايل . وكل ذلك مشروع لانه واسطة لا بد منها لمصلحة المسلمين وحفظهم . وهذا ما قام به الرسول في غزوة حنين سنة ٨ هـ . فقد بعث عبد الله بن ابي حدرد الاسلمي ليتجسس اخبار العدو ويأتي المسلمين بالخبر عن عددهم وعدتهم[6] .

---

(١) عثمان ، فتحي الحدود الاسلامية البيزنطية ج ٢ ص ٣٠٨ .
(٢) المسعودي مروج الذهب ج ٨ ص ٧٤ - ٧٥ ج ٢ ص ٣١٦ - ٣١٨ .
(٣) البلاذري فتوح البلدان ص ١٩٨ .
(٤) عثمان ، فتحي الحدود الاسلامية البيزنطية ج ٢ ص ٣٠٩ .
(٥) البوطي ، محمد سعيد رمضان فقه السيرة ص ٢٢٠ - ٢٢١ .
(٦) نفس المرجع ص ٣٩٢ .

الخاتمة

وبالعودة الى ما بدء به هذا الباب من معارك في عهد الخليفة المنصور الى ما انتهى اليه في موقعة مانزكرت ـ يمكن تلخيص العلاقة بين العباسيين والبيزنطيين على الشكل التالي :

ـ رغم ان الحروب كانت مستديمة طوال ثلاثة قرون ، الا ان خط الحدود العربي ـ الرومي لم يتغير نتيجة لهذه الحروب ، حيث كان عبارة عن نقاط محصنة تبدأ من طرسوس ثم تذهب شرقا الى اضنة على نهر سيحان والمصيصة ثم الى الشمال الشرقي في مرعش . ومنذ عهد الرشيد اضحى القسم الجنوبي (الشامي) يدعى بالعواصم لانها تعصم الحدود . اما الحصون في شمال الجبهة فكانت تدعى بالثغور .

ـ كان كل خصم يسعى لاضعاف خصمه بتقوية الثورات الناشئة في ارض عدوه . فالروم استغلوا ثورة نصر بن شيث العقيلي فكاتبوه وبعثوا اليه الرسل . كما استغل الروم ايضا ثورة بابك فكانت بينه وبينهم مفاوضات سرية وتعاون . كما ان العباسيين اعانوا ثورة من اهم الثورات على القسطنطينية هي ثورة توماس التي كانت ذات نتائج سياسية واجتماعية ودينية عميقة في الامبراطورية البيزنطية ، وكان في جيش توماس فرق عربية تحارب معه وقد اسر بعضها عند هزيمته .

وفي النهاية لم تغير هذه الحروب من العلاقة بين العرب والروم ، والتي لم تتميز بصفة الخصومة ، بل كانت اقرب الى التودد .

ـ وكنتيجة حتمية للغزوات بين الدولتين المتجاورتين الاسلامية والبيزنطية ، كان هناك اسرى لدى الطرفين ، حيث استمر فداؤهم واتخذ شكلاً جديدا منظما خلال العصر العباسي في المرحلة الاولى ، بدأ بايفاد الرسل وتبادل الرسائل الشفهية حينا ، والمكتوبة احيانا الى مفاوضات وتوقيع هدن وعقد صلح وامان ، بعد الاطلاع على اعداد الاسرى وكيفية معيشتهم ودراسة احوالهم . ولقد احتلت هذه المفاوضات جانبا هاما من جوانب الدبلوماسية لمدى قرنين من الزمن[1] وهذا ما سنتناوله في الباب الثاني .

---

(١) فوده ، عز الدين النظم الدبلوماسية ص ١٣٥ .

الباب الثاني

الاتصالات الدبلوماسية

الفصل الاول : الرسائل المكتوبة .

الفصل الثاني : قواعد المراسلات

الفصل الثالث : السفارات الشخصية

الاتصالات الدبلوماسية

مقدمة :

على الرغم من ان الدول تهتم اهتماما كبيرا بتنظيم جيوشها واساطيلها لحماية حدودها من الاعداء الا انها لا تغفل الجوانب الدبلوماسية التي كثيرا ما تجنب تلك الدول الوقوع في الحروب ، وتوفر طاقات بشرية واقتصادية هامة ، لان النشاط الدبلوماسي يصطنع الاصدقاء ويبذر الشقاق بين الاعداء فيتحقق توازن القوى ويحجز العدو المتربص عن المخاطرة بالعدوان .

فالاتصالات الدبلوماسية بين بيزنطة والدولة الاسلامية استمرت طويلا واخذت طابعا مميزا زمن الدولة العباسية . فالشؤون الخارجية كانت من اختصاص الوزير المسمى Logothete of the Course عند بيزنطة وهو الذي يتولى استقبال السفراء الاجانب وايفاد السفراء البيزنطيين واختيارهم ، لكن بعض الشؤون الدبلوماسية كان يعهد بها الى السلطات المحلية فكان قائد خرسون في القرم ينظم ارسال البعثات الى شؤون الاستبس ، واعتبر قسطنطين السابع خرسون قاعدة ملائمة للنشاط الدبلوماسي في تلك الارجاء ، وفي ايطاليا كان القائد المحلي يتصل بالعرب ، ولم يكن هناك سفراء دائمون لبيزنطة في اي بلد اجنبي[١] .

وكان على المسلمين ايضا ان يباشروا الاتصالات الدولية مع القوى

(١) عثمان ، فتحي الحدود الاسلامية البيزنطية ج ٢ ص ٣٨٣ .

السياسية الكبرى في عصرهم ، ومن اقرب هذه الدول اليهم جيرانهم البيزنطيون ولم تكن علاقات الفريقين حروبا متصلة الحلقات ، بل كانت تستلزم اتصالات تتعلق بشؤون الحرب من توقيع هدن ، والاتفاق على تبادل اسرى أو الكشف على عدد الاسرى وطرق معاملتهم ومكان اقاماتهم .

وكانت هذه الاتصالات تأخذ اشكالا مختلفة من مراسلات مكتوبة او سفارات شخصية او وفود لتبادل اسرى .

والرسائل المتبادلة تلفتنا الى حقيقتين في شأن الصراع العربي ـ الرومي ، الاولى تتعلق بالتبادل الحضاري بين الشعبين ، والثانية بمغزى تلك الغزوات التي كان المسلمون يقومون بها في بلاد الروم ، ولم يكن العداء ليقيم سدا منيعا بين الدولتين ، فسبيل الاتصال قائم بحكم الظروف الجغرافية والتاريخية ، ومسالك الثقافة يتعذر سدها ، ولعب اقليم الثغور والعواصم دوره الحضاري كما لعب دوره التجاري والحربي حيث انتقلت مدرسة الاسكندرية الى مدينة انطاكية في عهد عمر بن عبد العزيز حيث ظلت زاهرة اكثر من ١٣٠ سنة ثم انتقلت بعدها الى حران في العراق في عهد المتوكل[١] .

(١) العروى ، ابراهيم الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ١٣٨ ـ ١٤٣ .

الرسائل المكتوبة

مقدمة :

من اقدم المراسلات المكتوبة بين المسلمين والبيزنطيين مـا رواه الطبـري[1] في اخبار سنة ١٧ هـ/ ٦٣٨ م . اذ ارتحلت اياد بن نزار فـاقتحموا ارض الـروم على اثر الفتح الاسلامي ، فكتب بـذلك الـوليد بن عقبـة الى عمر بن الخـطاب فكتب هذا الى ملك الروم : « انه بلغني ان حيا من احياء العرب ترك دارنا واتى دارك ، فوالله لتخرجنه ، أو لننبذن الى النصارى ثم لنخرجهم اليك »[1] .

واستمرت المراسلات زمن معاوية وعبد الملك بن مـروان الذي اضـطر الى مهادنة الروم وصالحهم على الف دينار في كل جمعة ، وصالح طـاغية الـروم على مـال يؤديه اليـه لشغله عن محاربتـه وتخوفـه ان يخرج الى الشـام فيغلب عليـه ، واقتدى في صلحه بمعاوية حين شغل بحرب اهل العراق ، فانه صالحهم على ان يؤدي اليهم مالا وارتهن منهم رهنا وضعهم ببعلبك[2] .

وكـانت المعـاهـدات من صـور الكتـابـات الـدبلومـاسيـة بـين المسلمـين والبيزنطيين ، وهي اصل عام مشـروع في الاسلام حتى مـع المشركـين ، تنظيما

(١) الطبري تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ١٩٧ ـ ١٩٨ .
(٢) البلاذري فتوح البلدان ص ١٦٤ .

لعلاقات غير المسلمين بالمسلمين[1] وقد دعا القرآن الى الوفاء بها فقال : « اوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها »[2] . وقال : « اوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤولاً[3] » وقال : ﴿ يا ايها الذين آمنوا اوفوا بالعقود ﴾[4] .

ففي سنة ١٣٣ هـ عندما هاجم ملك الروم ملطية مستغلا فرصة الصراع بين الامويين والعباسيين ، وانشغال العباسيين بتوطيد الخلافة ارسل الى اهلها قائلا : « يا أهل ملطية اني لم آتكم الا على علم بامركم وتشاغل سلطانكم عنكم ، انزلوا على الامان واخلوا المدينة أخربها وامضي عنكم » . فأبوا عليه فوضع عليها المجانيق فاضطروا لقبول شروطه ، فرحلوا عنها واخربها[5] .

وفي سنة ١٦٥ هـ/ ٧٨٠ م . عندما توغل هارون الرشيد في بلاد الروم ، وبلوغه خليج القسطنطينية ، جرت بينه وبين امرأة اليون مكاتبات في طلب الصلح ، والموادعة ، واعطاء الفدية ، فقبل منها هارون وشرط عليها الوفاء بما اعطت له ، ووقع الصلح بينه وبينها تسعة آلاف دينار تؤديها في نيسان من كل سنة ، وكتبوا كتاب هدنة الى ثلاث سنوات ، وسلمت الاسارى[6] . وقد رعيت هذه الهدنة في السنة التالية ١٦٦ هـ وقدمت الروم الجزية ، الى ان تولى عرش الخلافة الرشيد ، فكتب اليه نقفور ملك الروم الرسالة التالية : « من نقفور ملك الروم الى هارون ملك العرب ، اما بعد فان الملكة التي كانت قبلي اقامتك مقام الرخ ، واقامت نفسها مقام البيدق ، فحملت اليك من اموالها ما كنت حقيقيا بحمل اضعافه اليها ، ولكن ذلك ضعف النساء وحمقهن ، فاذا قرأت كتابي هذا ، اردد ما حصل لك من اموالها ، والا فالسيف بيننا وبينك »[7] .

---

(١) ابن العربي ، المالكي احكام القرآن ج ٢ ص ٨٨٢ .
(٢) سورة النحل آية ٩ .
(٣) سورة الاسراء آية ٣٤ .
(٤) سورة المائدة آية ١ .
(٥) البلاذري فتوح البلدان ص ١٩٠ .
(٦) الطبري تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٣٤٢ - ٣٤٥ .
(٧) السيوطي تاريخ الخلفاء ص ٢٦٧ - ٢٦٨ .

فلما قرأ الرشيد الرسالة غضب ، وكتب الى نقفور بخط يده الرسالة التالية : بسم الله الرحمن الرحيم « من هارون امير المؤمنين الى نقفور كلب الروم وقد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه لا ما تسمعه »[١] .

على ان هذه اللهجة الملتهبة في الخطابات الدبلوماسية لم تكن دائما هي السائدة فلم تكد تمضي سنوات معدودة حتى فتح الرشيد هرقلية واحتلها وسبى اهلها سنة ١٩٠ هـ/ ٨٠٦ م . فأرسل اليه نقفور رسالة راجيا ان يعيد اليه جارية اخذها من هرقلية هي خطيبة ابنه : « لعبد الله هارون امير المؤمنين ، من نقفور ملك الروم . السلام عليكم ، اما بعد ايها الملك : ان لي اليك حاجة لا تضرك في دينك ولا دنياك هينة يسيرة ، ان تهب لابني جارية من بنات اهل هرقلية كنت قد خطبتها على ابني فان رأيت ان تسعفني حاجتي فعلت ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » وقد سلمت الجارية الى رسول نقفور وبعث اليه بما سأل من العطر وبعث اليه من التمور والزبيب والتّرياق فسلم ذلك كله اليه رسل الرشيد ، فأعطاه نقفور وقر دراهم اسلامية على برذون كميت كان مبلغه ٥٠ الف درهم ومائة ثوب ديباج ومائتي ثوب بزيون[٢] واثني عشر بازيا واربعة كلاب من كلاب الصيد وثلاثة براذين[٣] .

والاموال هذه التي كان ينالها المسلمون من البيزنطيين تطبيقا لنصوص المعاهدات اعتبرت جزية ، والجزية لها شروط في عقدها .

شروط عقد الجزية :

الجزية هي ما كان يوضع على رؤوس اهل الذمة وهي تؤخذ من الرجال القادرين لا ممن يتصدق عليهم ولا ممن لا قدرة له على العمل وكانوا يقدرونها حسب احوال اهل الذمة غنى وفقرا ، لكن لا تزيد على ثمانية واربعين درهما ولا

---

(١) ابن الوردي تاريخه ج ١ ص ٣١٢ .
ابن كثير البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٩٣ - ١٩٤ .
السيوطي تاريخ الخلفاء ص ٢٦٧ - ٢٦٨ .
(٢) ثوب من نسيج البز او من رقيق الديباج مركب من (بز) ومن (يون) .
(٣) الطبري تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٣٢١ .

تنقص عن اثني عشر درهما في السنة وكانت تسقط بالاسلام[١] .

وللجزية شرطان في عقدها مستحق ومستحب ، اما المستحق فخمسة شروط احدهما ان لا يذكروا كتاب الله تعالى بطعن فيه ولا تحريف له والثاني ان لا يذكروا رسول الله بتكذيب له ولا ازدراء والثالث ان لا يذكروا دين الاسلام بذم له ولا قدح فيه ، والرابع ان لا يصيبوا مسلمة بزنا ولا باسم نكاح ، والخامس ان لا يعينوا اهل الحرب ولا يأووا اغنياءهم بهذه الخمسة حقوق ملتزمة فتلزمهم بغير شرط وانما تشترط اشعارا لهم وتأكيدا لتغليظ العهد عليهم ويكون ارتكابها بعد الشرط نقضا لعهدهم .

أما المستحب فستة اشياء أولها تغيير هيأتهم بلبس الغيار وشد الزنار والثاني ان لا يعلوا على المسلمين في الابنية ويكونون ان لم ينقصوا مساوين لهم ، والثالث ان لا يسمعوهم اصوات نواقيسهم ولا تلاوة كتبهم ولا قولهم في عزيز ، والمسيح والرابع ان لا يجاهروهم بشرب خمورهم ولا باظهار صلبانهم وخنازيرهم ، والخامس ان يخفوا دفن موتاهم ولا يجاهروا بندب عليهم ولا نياحة والسادس ان يمنعوا من ركوب الخيل عناقا وهجانا ولا يمنعوا من ركوب البغال والحمير وهذه الستة المستحبة لا تلزم بعقد الذمة حتى تشترط فتصير بالشرط ملتزمة ولا يكون ارتكابها بعد الشرط نقضا للعهد لكن يؤخذون بها اجبارا ويؤدبون عليها زجرا ولا يؤدبون ان لم يشترط ذلك عليهم ويثبت الامام ما استقر من عقد الصلح معهم في دواوين الامصار ليؤخذوا به اذا تركوه فان لكل قوم صلحا ربما خالف سواه ولا تجب الجزية عليهم في السنة الا مرة واحدة بعد انقضائها بشهور هلالية ومن مات منهم فيها اخذ من تركته بقدر ما مضى منها ومن اسلم منهم كان ما لزم من جزيته دينا في ذمته يؤخذ بها واسقطها ابو حنيفة باسلامه وموته[٢] .

---

(١) شلبي ، ابو زيد الدولة العباسية ـ العصر الذهبي ص ٤٣٣ .
(٢) الماوردي الاحكام السلطانية ص ١٣٨ ـ ١٣٩ .

رواية صاحب الاغاني عن مراسلة بين الرشيد وملك الروم بشأن ابي العتاهية :

ورد في الاغاني(١) ان رسولا لملك الروم قدم الى الرشيد فسأل ابا العتاهية وانشده شيئا من شعره ، وكان الرسول يحسن العربية فمضى الى ملك الروم وذكر له فكتب ملك الروم اليه ورد رسوله يسأل الرشيد ان يوجّه بأبي العتاهية ويأخذ فيه رهائن من اراد والح في ذلك فكلم الرشيد ابا العتاهية في ذلك فاستعفى منه واباه .

رسالة الرشيد الى الامبراطور قسطنطين يدعوه الى الاسلام :

أورد فريد الرفاعي في كتابه عصر المأمون(٢) نص الرسالة التي ارسلها هارون الرشيد الى قسطنطين ملك الروم يدعوه فيها الى الاسلام بعد ان يشرح له مبادئه ويجادله بالتي هي احسن مختتما تلك الرسالة بقوله : انه اذا استبان لامير المؤمنين عذركم ونقضكم ونكثكم واستخفافكم بدينكم وجرأتكم على ربكم ، فليس بين امير المؤمنين وبينكم الا الاسلام او الحرب المحلية ان شاء الله . . . والسلام على من اتبع الهدى . . .

ولم يكن المأمون اقل حرصا على كرامة الخلافة الاسلامية ولا ازهد في جهاد الروم فقد غزا ديارهم في السنوات ٢١٥ هـ ، ٢١٦ هـ ، ٢١٧ هـ وقد كتب اليه تيوفيل ملك الروم رسالة يعرض فيها الهدنة .

رسالة تيوفيل ملك الروم الى المأمون يعرض هدنة مازجا لينا بشدة :

بعد ان غزا المأمون الروم سنة ٢١٦ هـ . وفتح اثني عشر حصنا ارسل اليه تيوفيل وزيره مع رسالة عارضا عليه هدنة ومازجاً فيها ليناً بشدة قائلا :

أما بعد ، فان اجتماع المختلفين على حظهما اولى بهما في الرأي مما عاد بالضرر عليهما ولست حريا ان تدع الحظ يصل الى غيرك حظا تحوزه الى نفسك ،

---

(١) الاصفهاني الاغاني ج ٣ ص ١٧٩ .

Canard, Marius. Rélations entre byzanaces et les Arabes P. 103.

(٢) الرفاعي ، فريد عصر المأمون ج ٢ ص ١٨٨ ـ ٢٣٦ .

وفي علمك كاف عن اخبارك وقد كنت كتبت اليك داعيا الى المسالمة راغباً في فضيلة المهادنة لتضع اوزار الحرب عنا ، ونكون كل واحد لكل واحد وليا وحزبا مع اتصال المرافق والفسح في المتاجر وفك المستأسر وامن الطرق والبيضة ، فان أبيت فلا ادب لك في الخمر[1] ، ولا ازخرف لك في القول ، فاني لخائض اليك غمارها آخذ عليك اسدادها شأن خيلها ورجالها ، وان افعل فبعد ان قدمت المعذرة واقمت بيني وبينك علم الحجة ، والسلام[2] .

وخلاصة هذه الرسالة انه يذكر المأمون بما كتبه اليه من قبل ينشد السلام والموادعة بين الشعبين مع اتصال المرافق بينهما ، وتبادل التجارة ، وفك الاسرى ، وتأمين الطرق ، وانه مازالت هذه رغبته ، وانه اذا رفض المأمون هذا العرض فانه ـ اي ملك الروم ـ سيقود اليه الجيوش الجرارة التي لا تبقي ولا تذر .

رسالة جوابية من المأمون الى تيوفيل :

أما بعد : فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة ودعوت اليه من الموادعة وخلطت فيه من اللين والشدة مما استعطفت به من شرح المتاجر واتصال المرافق وفك الاسارى ورفع القتل والقتال ، فلولا ما رجعت اليه من اعمال التؤدة والاخذ بالحظ في تقليب الفكرة والا اعتقد الرأي في مستقبله الا في استصلاح ما اؤ ثمره في معتقبه لجعلت جواب كتابك خيلا تحمل رجالا من اهل البأس والنجدة والبصيرة ينازعونكم عن ثكلكم ويتقربون الى الله بدمائكم ويستقلون في ذات الله ما نالهم من الم شوكتكم ثم اوصل اليهم من الامداد وابلغ لهم كافيا من العدة والعتاد هم اظمأ الى موارد المنايا منكم الى السلامة من مخوف معرتهم عليكم ، موعدهم « احدى الحسنيين »[3] عاجل غلبة او كريم منقلب ، غير اني رأيت ان التقدم اليك بالموعظة التي يثبت الله بها عليك الحجة من الدعاء لك

---

(١) الخمر : ما ستر الشيء من شجر او نحوه مسعود ، جبران . الرائد ص ٦٤٢ .

(٢) الطبري تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٦٢٩ ـ ٦٣٠ .

(٣) سورة التوبة آية ٥٢ .

ولمن معك الى الوحدانية والشريعة الحنيفية ، فان ابيت ففدية توجب ذمة وتثبت نظرة ، وان تركت ذلك ففي يقين المعاينة لنعوتنا ما يغني عن الابلاغ في القول والاغراق في الصفة ، والسلام على من اتبع الهدى[1] .

ومن الواضح ان عبارات المأمون الاخيرة انه يعد الغزوات جهادا في سبيل نشر الاسلام ، وهو لذلك يعرض على ملك الروم ومن قبله دين التوحيد والشريعة الحنيفة ، فان ابى عليه حكم الشريعة في اصحاب الذمة في دفع الجزية ، وان ابى فالسيف ، هي اذن حرب جهاد ، **وليست مجرد غزوات للسلب والغنائم ، وهذا المعنى سيظل الدافع الاساسي لكل من غزا الروم بعد ذلك** . على ان المأمون لم يحدد معنى هذه الغزوات وهدفها للمرة الاولى ، بل كان هذا دائما هو المعنى وهو الهدف ، وكل ما في الامر انه عاد فابرزه واكده بعد مضي ما يقرب من مائتي عام على اول غزوة للصائفة لبلاد الروم في عهد الخليفة عمر بن الخطاب .

رسالة ثانية من ملك الروم تيوفيل الى المأمون طالبا هدنة مدتها خمس سنوات :

ذكر اليعقوبي ان تيوفيل ملك الروم ارسل رسالة ثانية الى المأمون مع اسقف وبدأ فيها بنفسه فرفض المأمون قراءتها لأنه لم يبدأ به قائلا : « لا اقرأ له كتابا يبدأ فيه باسمه » ورده . وكتب اليه تيوفيل رسالة ثانية : « لعبد الله غاية الناس في الشرف ملك العرب من تيوفيل بن مخائيل ملك الروم من قبل . . . وسأل ان يقبل منه مائة الف دينار والاسرى الذين عنده وهم سبعة آلاف اسير وان يدع لهم ما افتتحه من مدائن الروم وحصونهم ويكف عنهم الحرب خمس سنوات ، فلم يجبه الى ذلك وانصرف الى كيسوم من ارض الجزيرة من ديار مصر[2] .

رسالة من ملك الروم الى المعتصم طالبا الصلح :

سنة ٢٢٣ هـ . عندما انزل الامبراطور البيزنطي الدمار والخراب

---

(١) ابن طيفور بغداد في تاريخ الخلافة العباسية ص ٥٦ .

(٢) [اليعـ]ـقوبي تاريخه ج ٢ ص ٤٦٥ - ٤٦٦ .

بزبطرة ، طلب هذا الاخير التماس الصفح من الخليفة المعتصم ، فأوفد اليه وفداً يقول : ان الذين فعلوا بزبطرة ما فعلوا تعدوا امري ، وانا ابنيها بمالي ورجالي وارد من اخذ من اهلها ، واخلي جملة من في بلد الروم من الاسارى وابعث اليك بالقوم الذين فعلوا بزبطرة على رقاب البطارقة . . .(١) غير ان الخليفة لم يستجب لتوسلات الامبراطور وشيّع رسله بالاحتقار والسخرية(٢) .

رسالة المعتصم الى ملك الروم جواب رسالة وردته منه فيها تهديد ووعيد :

أرسل ملك الروم الى المعتصم كتابا يتهدده فأمر بجوابه فلما قرىء عليه الجواب لم يرضه ، وقال للكاتب : اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم : اما بعد « فقد قرأت كتابك وسمعت خطابك ، والجواب ما ترى لا ما تسمع ، وسيعلم الكفار لمن عقبي الدار » . وبعدها غزا المعتصم بلاد الروم سنة ٢٢٣ هـ . وبعدما دخلها وقتل ثلاثين الفا وسبى مثلهم وكان في سبيه ستون بطريقا وطرح النار في عموريه من سائر نواحيها فأحرقها وجاء ببابها الى بغداد(٣) .

رسالة من ملوك الروم الى الراضي سنة ٣٢٦ هـ/ ٩٧٧ م. في طلب الهدنة :

في سنة ٣٢٦ هـ . ورد كتاب من ملوك الروم الى الراضي وكانت الكتابة الرومية بالذهب والترجمة العربية بالفضة يطلب منه الهدنة قائلا : من رومانس وقسطنطين واسطفانس عظماء ملوك الروم الى الشريف البهي ضابط سلطان المسلمين . بسم الله والابن والروح القدس الاله الواحد . الحمد لله ذي الفضل العظيم الرؤوف بعباده الجامع للمفترقات والمؤلف للأمم المختلفة في العداوة حتى يصيروا واحدا (ولما بلغنا ما رزقته ايها الأخ الشريف الجليل من وفور العقل وتمام الادب واجتماع الفضائل اكثر ممن تقدمك من الخلفاء حمدنا الله تعالى اذ جعل في كل امة من يمتثل امره . وقد وجهنا شيئا من الالطاف وهي

---

(١) اليعقوبي ، تاريخه ج ٢ ص ٤٧٦ .
(٢) فازيلييف العرب والروم ص ١٤٣ .
(٣) البغدادي ، تاريخ بغداد ج ٣ ص ٣٤٤ .

اقداح وجرار وفضة وذهب ، وجواهـر وقضبان فضـة وسفور وثيـاب سقلاطـون ونسيج ومناديل واشياء كثيرة فاخرة[1] .

جواب الراضي على رسالة ملوك الروم بطلب عقد الصلح :

كتب الراضي الى ملوك الروم جوابا عن رسالتهم في طلب الهدنة بانشاء احمد بن جعفر بن ثوابه[2]: بعد البسملة: من عبد الله ابي العباس الامام الراضي بالله امير المؤمنين الى رومانس وقسطنطين واسطفانس رؤساء ملوك الروم: سلام على من اتبع الهدى وتمسك بالعروة الوثقى وسلك سبيل النجاة والزلفى . . . ثم اجابهم الى ما طلبوا[3].

رسالة جوابية من الاخشيد الى ملك الروم ارمانوس:

كان ملك الروم قد ارسل كتابا الى الاخشيد يذكر فيه انه ليس من عادته ان يراسل الا الخليفة فأجابه الاخشيد برسالة ابتدأها بقوله:

اما بعد: فقد ترجم لنا كتابك الوارد مع نقولا واسحاق رسوليك فوجدناه مفتتحا بذكر فضيلة الرحمة ، وما نمي عنا اليك وصح من شيمنا فيها لديك ، وما نحن عليه من المعدلة وحسن السيرة في رعايانا ، وما وصلت به هذا القول من ذكر للفداء والتوصل الى تخليص الاسرى الى غير ذلك مما اشتمل عليه وتفهمناه . . . فمن كان منا في ايديكم فهو على بينة من ربه وعزيمة صادقة من امره ، وبصيرة فيما هو لسبيله ، وان في الاسرى من يؤثر مكانه من ضنك الاسر وشدة البأساء على نعيم الدنيا وخيرها لحسن منقلبه وحميد عاقبته ، ويعلم ان الله تعالى قد اعاذه من ان يفتنه ، ولم يعذه من ان يبتليه . هذا الى اوامر الانجيل الذي هو امامكم وما توجبه عليكم عزائم سياستكم ، والتوصل الى

---

(١) ابن الجوزي المنظم ج ٦ ص ٢٩٣ .
أبن تغرى بردى النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .

(٢) وهو الذي تولى ديوان الرسائل بعد ابيه محمد بن جعفر سنة ٣١٢ هـ . الى ان مات وهو في تولية ايام معز الدولة سنة ٣٤٩ هـ .
ابن تِغرى بردى النجوم الزاهرة ج ٣ هامش ص ٢٦٣ .

(٣) ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٦٣ .

استنقاذ اسراكم ، لولا ان ايضاح القول في الصواب اولى بنا من المسامحة في الجواب لاضربنا عن ذلك صفحا . . وبعدما يبين له ممالكة المتعددة التي كان يتقلد في سالف الدهر كل منها ملك عظيم الشأن . . يجيبه عن رأيه في ما طلب قائلا :

واما الفداء ورأيك في تخليص الاسرى ، فانا كنا واثقين لمن في ايديكم باحدى الحسنيين وعلى بينة لهم من امرهم، وثبات من حسن العاقبة وحسن المثوبة ، عالمين بما لهم ، فان فيهم من يؤثر مكانه من ضنك الاسر وشدة البأساء على نعيم الدنيا ولذتها ، سكونا الى ما يتحققه من حسن المنقلب وجزيل الثواب ، ويعلم ان الله قد اعاذه من ان يفتنه ، ولم يعذه من ان يبتليه وقد تبينا مع ذلك في الباب ما شرعه لنا الائمة الماضون والسلف الصالحون فوجدنا ذلك موافقا لما التمسته وغير خارج عما احببته ، فسررنا بما تيسر منه ، وبعثنا الكتب والرسل الى عمالنا وسائر اعمالنا وعزمنا عليهم في جمع كل من قبلهم واتباعهم بما وفر الايمان في انقاذهم وبذلنا في ذلك كل ممكن ، واخرنا اجابتك عن كتابك لتقدم فعلنا قولنا وانجازنا وعدنا ، ويوشك ان يكون قد ظهر لك من ذلك ما وقع احسن المواقع منك ان شاء الله . . .

واخيرا يختتم رسالته موضحا ان من ابتدأ بجميل لزمه الجرى عليه والزيادة ، ولا سيما اذا كان من اهله وخليقا به ، وقد ابتدأنا بالمؤانسة والمباسطة وانت حقيق بعمارة ما بيننا وباعتمادنا بحوائجك وعوارضك قبلنا ، فابشر بتيسير ذلك ان شاء الله والحمد لله احد ما ابتدىء به وختم ذكره . وصلى الله على محمد نبي الهدى والرحمة وعلى آله وسلم تسليما[1].

رسالة ابن طولون الى عامله على الثغور بعدم منح الهدنة للروم:

تولى ابن طولون اصرة الثغور فوضع عاملا من قبله ، حيث حارب هذا العامل الروم وانتصر عليهم ، فطلب ملك الروم الهدنة ، فأرسل العامل الى ابن طولون يستأذنه في ذلك فرفض ابن طولون واجابه: انما حملهم على ذلك

---

(١) القلقشندي صبح الاعشى ج ٧ ص ١٠ ـ ١٨ .

تخريبكم لقلاعهم وحصونهم فيكون في الصلح راحة لهم فحاشى الله منه[1].

رسالة نقفور فوقاس ملك الروم لاهل طرسوس والمصيصة:

حارب نقفور اهل الثغور حتى ضعفوا كل الضعف ولم ينجدهم احد، فارسلوا اليه يعرضون عليه اتاوة يؤدونها له، وقد اوشك ان يقبل ذلك لولا انه عرف شدة ضعفهم فرفض وقال لرسولهم:

«مثلكم مثل الحية في الشتاء اذا لحقها البرد ذبلت وضعفت حتى يقدر من رآها انها قد ماتت، فاذا اخذها انسان واحسن اليها وادفأها انتعشت ولدغته، وانتم انما بخعتم بالطاعة لما ضعفتم، وان تركتم حتى تستقيم احوالكم تأذيت لكم».

ثم قال للرسول: امض اليهم وعرفهم ان ليس عندي الا السيف[2].

رسالة من نقفور فوقاس الى اهل المصيصة:

بعد ان حاصر نقفور فوقاس اهل المصيصة وضايقها كل المضايقة انصرف عنها بعد ان ارسل الى اهلها يقول:

اني منصرف عنكم لا لعجز عنكم وعن فتح مدينتكم ولكن لضيق العلوفة، وانا عائد اليكم بعد هذا الوقت، فمن اراد منكم الانتقال الى بلد آخر قبل رجوعي فلينتقل، ومن وجدته بعد عودتي قتلته[3].

قصيدة من نقفور الى المسلمين بعد انتصاراته عليهم في اقليم الثغور:

اورد تاج الدين السبكي[4] قصيدة من نقفور الى المسلمين ساءتهم وشقت عليهم وكانت موجهة الى الفضل الامام المطيع لله امير المؤمنين قائلا:

اما سمعت اذناك ما انا صانع   بلى فعداك العجز عن فعل حازم

---

(١) ابن خلدون، تاريخ العبر ج ٤ ص ٦٤٢ - ٦٤٣.
(٢) ابن مسكويه، تجارب الامم ج ٢ ص ٢١٠.
(٣) ابن مسكويه تجارب الامم، ص ٢٠٣.
(٤) السبكي، تاج الدين طبقات الشافعية الكبرى ج ٢ ص ١٧٩ وما يليها.

ثغوركم لم يبق فيها لوهنكم ... وضعفكم الا رسوم المعالم
فتحنا ثغور الارمينة كلّها ... بفتيان صدق كالليوث الضراغم
نحن جلبنا الخيل تعلك لجمها ... ويلعب منها بعضها بالشكائم
الى كل ثغر بالجزيرة آهل ... الى جند قنسرينكم والعواصم
ومرعش اذللنا اعزة اهلها ... فصارت لنا من بين عبيد وخادم
وملنا على طرسوس ميلة غامر ... اذقناهم فيها بحز الحلاقم
واقربطش مالت اليها مراكبي ... على ظهر بحر مزيد متلاطم
فخزناهم اسرا وسيقت نساؤهم ... ذوات الشعور المسبلات الفواحم
وانطاك لم تبعد عليّ وانني ... سألحقها يوما بنزوة خازم
ومصر سأفتحها بسيفي عنوة ... وأحرز اموالا بها في غنائمي
وكافور اغزوه بما يستحقه ... بمشط ومقراض ومص الجماجم
ألا شمروا يا اهل بغداد ويلكم ... فملكم مستضعف غير دائم

وقد ردّ المسلمون على هذه القصيدة بقصيدة نظمها الشيخ الامام القفال الشاشي وأرسلت الى نقفور(١):

اتاني مقال لامرىء غير عالم ... بطرق مجاري القول عند التخاصم
تشبث هداك الله ان كنت طالبا ... لحق فليس الخبط فعل المقاسم
ولا تتكبر بالذي انت لم تنل ... كلابس ثوب الزور وسط المقادم(٢)
ترى نحن لم نوقع بكم وبلادكم ... وقائع يثنى ذكرها في المواسم
اتذكر هذا ام فؤادك هائم ... فليس بناس كل ذا غير هائم
طردناكم قهرا الى ارض رومكم ... قطرتم من الساحات طرد النعائم
ولولا وصايا للنبي محمد ... بكم لم تنالوا تلك المجائم
وقلتم ملكناكم نجوم قضاتكم ... وبيعهم احكامهم بالدراهم
وفي ذاك اقرار بصحة ديننا ... وانا ظلمنا فابتلينا بظالم
وعددت بلدانا تريد افتتاحها ... او ارتد منهم حشوه كالبهائم

(١) السبكي ، تاج الدين ، طبقات الشافعية الكبرى ج ٢ ص ١٨٣ - ١٨٤ .
(٢) يقصدان معظم الفتوحات التي يتشدق به نقفور لم تحدث في عهده .

لقد اسلمت بالشرق هند وسندها وصين واتراك الرجال الاعاجم
ونرجو بفضل الله فتحا عاجلا ننال بقسطنطين ذات المحارم
هناك يرى نقفور والله قادر ينادي عليه قائما في المقاسم
فيضحك منا سن جذلان باسم ويقرع منه سن خزيان نادم
وان تسلموا فالسلم فيه سلامة واهنأ عيش للفتى عيش سالم

رسالة شفوية من رسول عضد الدولة الى ملك الروم بشأن عقد اتفاق هدنة:

ارسل عضد الدولة ابن شهرام رسولا الى ملك الروم من اجل الوصول الى عقد اتفاق هدنة ، ولكنه لم ينجح وصادف صعوبات كثيرة لتعدد الاحزاب حول الملك وتضارب ارائهم ومصالحهم فقرر ابن شهرام استعمال ذكائه وارسل مع شخص من حاشية الملك استماله اليه هذه الرسالة الشفوية وطلب تبليغها للملك:

اريد ان تحمل عني رسالة الى ملك الروم فقد طال مقامي وتعرفني آخر ما عنده ، فان فعل ما اريده والا فلا وجه لمقامي .

انه يجب عليك اولا ان تحفظ ايها الملك نفسك ثم ملكك ثم اصحابك ، ولا تثق بمن صلاحه في فسادك فان معاونة ابي تغلب عليك تم في بلد الروم ما جرى . وكيف تكون الحال مع عضد الدولة ان عاون عليك ايها الملك ؟ واني ارى اصحابك لا يريدون تمام الهدنة بينك وبين اوحد الدنيا وملك الاسلام . والانسان لا يخفي علـه الا ما لم يجـربه . وانت فقد جربت سبع سنين عند عصيان من عصى عليك لملكك ، وملكك لا يبقى نفسك الروم ، متأمل خطابي واعمل بعد ذلك برأيك[1].

جواب ملك الروم لابن شهرام (رسول عضد الدولة):

اجاب ملك الروم ابن شهرام: الامر كما ذكرت ، لكن ليس يمكن مخالفة

(١) ابي شجاع ، ذيل تجارب الامم ج ٣ ص ٣٤ ـ ٣٥ .

الجماعة ويروني بصفة من قد خانهم واهلكهم ، ولكن سأتم الامر وافعل كل ما يمكن فعله[1].

رسالة الب ارسلان السلجوقي للامبراطور البيزنطي رومانوس ديوجينس قبل معركة ملاذكرد سنة ١٠٧١:

التقى الب ارسلان وهو في قلة من عسكره ، بجيش ضخم للروم يقوده ملك الروم ، فاحب الب ارسلان ان يتصالح مع ملك الروم او ان يعقد معه هدنة ولا سيما ان ملك الروم كان ارسل الى الخليفة قبيل ذلك ان يقترح هذه الهدنة . فكتب الب ارسلان الى ملك الروم يقول:

«ان كنت ترغب في الهدنة اتممناها ، وان كنت تزهد فيها ولكنا امرنا الى الله عز وجل»[1].

جواب امبراطور الروم على الرسالة السابقة:

ظن امبراطور الروم ان الب ارسلان اقترح هذه الهدنة عن ضرورة فأبى واستكبر واجاب الب ارسلان قائلا: «اني قد انفقت الاموال الكثيرة وجمعت العساكر الكثيرة للوصول الى مثل هذه الحالة . فاذا ظفرت بها فكيف اتركها ؟ هيهات! لا هدنة الا الري ولا رجوع الا بعد ان افعل ببلاد الاسلام مثل ما فعل ببلاد الروم»[2].

موجز الرسالة القبرصية حول معاملة اسرى المسلمين:

هذه الرسالة ارسلها احمد بن تيمية الحراني (تقي الدين احمد بن عبد الحليم)، الذي عاش في النصف الثاني من القرن السابع الهجري واوائل النصف الاول من القرن الثامن الهجري ، الى سرجوس ملك قبرص وهي في ٣٦ صفحة تتضمن طلبا الى ملك قبرص بمعاملة اسرى المسلمين معاملة حسنة ، بعدما يذكره بما انزل من الاديان السماوية من مسيحية واسلامية من

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٧ .

(٢) ابن الجوزي ، المنتظم ج ٨ ص ٢٦١ .

تعاليم دينية ، فلا المسيح امر بجهاد الحنيفية ولا الحواريون من بعده: «هؤلاء الاسرى اخذوا غدرا، والغدر حرام في جميع الملك والشرائع والسياسات» مستعملا الليونة حينا والشدة احيانا بادئا بالقول:

من احمد بن تيمية الى سرجوس ملك قبرص وعظيم اهل ملته ومن تحوط به عنايته من رؤساء الدين وعظماء القسيسين والرهبان والامراء والكتاب واتباعهم: سلام على من اتبع الهدى . والحمد لله الذي لا اله الا هو اله ابراهيم وآل عمران ونسأله ان يصلي على عباده المصطفى وانبيائه المرسلين ويخص بالصلاة والسلام اولى العزم الذين هم سادة الخلق وقادة الامم الذين خصّوا بأخذ الميثاق وهم نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد كما سماهم الله في كتابه[1] .

ثم ينتقل بعدها الى شرح ما تقول تلك الشرائع الدينية التي تأمر بعبادة الله والتجرد للدار الاخرة والاعراض عن الحياة الدنيا ، يذكره بما خاطب به التتار يوم قدومهم الى دمشق طالبا منهم اطلاق الاسرى حيث اطلقهم غازان وقطلو شاه قائلا: خاطبت مولاي فيهم فسمح باطلاق المسلمين قال لي : لكن معنا نصارى اخذناهم من القدس فهؤلاء لا يطلقون فقلت بل جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم اهل ذمتنا فانا نفكهم ولا ندع اسيرا[2] لا من اهل الملة ولا من اهل الذمة واطلقنا من النصارى من شاء الله فهذا عملنا واحساننا والجزاء على الله . وكذلك السبي الذي بأيدينا من النصارى يعلم كل احد احساننا ورحمتنا ورأفتنا بهم كما اوصانا خاتم المرسلين حيث قال: «الصلاة وما ملكت ايمانكم» . قال الله تعالى: ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما واسيرا .

ومع خضوع التتار لهذه الملة وانتسابهم اليها فلم نخادعهم ولم ننافقهم بل بينا لهم ما هم عليه من الفساد والخروج عن الاسلام والموجب لجهادهم وان جنود الله المؤيدة وعساكره المنصورة المستقرة بالديار الشامية والمصرية ما زالت

(١) ابن تيمية ، الرسالة القبرصية ص ٥ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٢٠ ـ ٢٢ .

منصورة على من ناوأها مظفرة على من عاداها(١).

وبعدما يشرح له تعاليم النبي وسيرته يقول له ص ٢٦: ثم المسيح صلوات الله عليه لم يأمر بجهاد الامة الحنيفية ولا الحواريون بعده: فيا ايها الملك كيف تستحل سفك الدماء وسبي الحريم واخذ الاموال بغير حجة من الله ورسله. ثم اما يعلم الملك ان بديارنا من النصارى اهل الذمة والامان ما لا يحصي عددهم الا الله ومعاملتنا فيهم معروفة فكيف يعاملون اسرى المسلمين بهذه المعاملات التي لا يرضى بها ذو مروءة ولا ذوو دين. لست اقول عن الملك واهل بيته ولا اخوته فان ابا العباس شاكر للملك ولاهل بيته كثيرا معترف بما فعلوه معه من الخير وانما اقول عن عموم الرعية. أليس الاسرى في رعية الملك ؟ اليست عهود المسيح وسائر الانبياء توصي بالبر والاحسان فأين ذلك ؟.

ثم ان كثيرا منهم انما اخذوا غدرا، والغدر حرام في جميع الملل والشرائع والسياسات فكيف تستحلون ان تستولوا على من اخذ غدرا ؟ افتأمنون مع هذا ان يقابلكم المسلمون ببعض هذا وتكونون مغدورين والله ناصرهم ومعينهم ولا سيما في هذه الاوقات والامة قد امتدت للجهاد واستعدت للجلاد ورغب الصالحون واولياء الرحمن في طاعته، وقد تولى الثغور الساحلية امراء ذوو بأ س شديد وقد ظهر بعض اثرهم وهم في ازدياد، ثم عند المسلمين من الرجال الفداوية الذين يغتالون الملوك في فرنسا وعلى افرسها من قد بلغ الملك خبرهم قديما وحديثا وفيهم الصالحون الذين لا يرد الله دعواتهم ولا يخيب طلباتهم الذين يغضب الرب لغضبهم ويرضى لرضاهم وهؤلاء التتار مع كثرتهم وانتسابهم الى المسلمين، كما غضب المسلمون عليهم احاط بهم من البلاء ما يعظم عن الوصف فكيف يجب ايها الملك بقوم يجاورون المسلمين من اكثر الجهات ان يعاملوهم هذه المعاملة التي لا يرضاها عامل مسلم ولا معاهد، هذا وانت تعلم ان المسلمين لا ذنب لهم اصلا بل هم المحمودون على ما فعلوه فان الذين اطبقت العقلاء على الاقرار بفضله هو دينهم. حتى الفلاسفة اجمعوا على انه لم يطرق العالم دين افضل من هذا الدين فقد قامت البراهين على وجوب

---

(١) ابن تيمية، الرسالة القبرصية ص ٢٢.

متابعته . فما يؤمن الملك ان هؤلاء الاسرى المظلومين ببلدته ينتقم لهم رب العباد والبلاد كما ينتقم لغيرهم وما يؤمنه ان تأخذ المسلمين حمية اسلامهم فنالوا منها ما نالوا من غيرها ونحن اذا رأينا من الملك واصحابه ما يصلح عاملناهم بالحسنى والا فمن يعني عليه لينصرنه الله وانت تعلم ان ذلك من ايسر الامور على المسلمين وانا ما غرض الساعة الا مخاطبكم بالتي هي احسن والمعاونة على النظر في العلم واتباع الحق فعل ما يجب . فان كان عند الملك من يثق بعقله ودينه فليبحث معه عن اصول العلم وحقائق الاديان ولا يرضى ان يكون من هؤلاء النصارى المقلدين الذين لا يسمعون ولا يعقلون ان هم الا كالانعام بل هم اضل سبيلا(١), واصل ذلك ان تستعين بالله وتسأله الهداية وتقول: اللهم ارني الحق حقا واعني على اتباعه وارني الباطل باطلا واعني على اجتنابه ولا تجعله مستبها علي فاتبع الهدى والكتاب ولا يحتمل البسط اكثر من هذا لكن انا ما اريد للملك الا ما ينفعه في الدنيا والاخرة وهما شيئان احدهما له خاصة وهو معرفته بالعلم والدين وانكشاف الحق وزوال الشبهة وعبادة الله كما امر فهذا خير له من ملك الدنيا بحذافيرها وهو الذي بعث به المسيح وعلمه الحواريون . الثاني له وللمسلمين وهو مساعدته للاسرى الذين هم في بلاده واحسانه اليهم والمعاونة لنا في خلاصهم فان في الاساءة اليهم دركا على الملك في دينه ودين الله تعالى وعند المسلمين وكان المسيح اعظم الناس توصية بذلك .

ومن العجب كل العجب ان يأسر النصارى قوما غدرا او غير غدر ولم يقاتلوهم ، والمسيح يقول: «من لطمك على خدك الايمن فأدر له خدك الايسر ، من اخذ رداءك اعطه قميصك». وكلما كثرت الاسرى عندكم كان اعظم لغضب الله وغضب عباده المسلمين فكيف يكون السكوت على اسرى المسلمين في قبرص سيما وعامة هؤلاء الاسرى قوم فقراء وضعفاء ليس لهم من يسعى فيهم . وهذا ابو العباس مع انه من عباد المسلمين وله عبادة وفقر وفيه مشيخة ومع هذا فما كاد يحصل له فداؤه الا ما لشدة ودين الاسلام يأمرنا ان نعين الفقير والضعيف . فالملك احق ان يساعد على ذلك من وجوه كثيرة ولا سيما والمسيح

(١) ابن تيمية ، الرسالة القبرصية ، ص ٢٦ ـ ٢٩ .

يوصي بذلك في الانجيل ويأمر بالرحمة العامة والخير الشامل كالشمس والمطر، والملك واصحابه اذا عاونوننا على تخليص الاسرى والاحسان اليهم كان الحظ الاوفر لهم في ذلك في الدنيا والاخرة .

ثم ينتقل بعد ذلك الى التهديد «فالمسلمون اقدر على المكافأة في الخير والشر من كل احد ومن حاربوه فالويل كل الويل له ، والملك لا بد ان يكون قد سمع السير وبلغه انه ما زال في المسلمين النفر القليل منهم من يغلب اضعافا مضاعفة كل النصارى وغيرهم[1]

وبعدما ذكره انه في بلاد المسلمين من النصارى اضعاف ما عندكم من المسلمين فان منهم من رؤس النصارى من ليس في البحر مثلهم الا قليل واسرى المسلمين فيهم ، فليس منهم من يحتاج المسلمون اليه ولا من ينتفعون به وانما يسعى الى تخليصهم من اجل الله تعالى رحمة لهم وتقربا اليه يوم يجزي الله المصدقين ولا يضيع اجر المحسنين ، واما في الآخرة فان الله يثيب على ذلك ويأجر عليه وهذا عند علماء المسيحيين الذين لا يتبعون الهدى بل كل من اتقى الله وانصف علم انهم اسروا بغير حق ولا سيما من اخذ غدرا والله تعالى لم يأمر ولا المسيح امر ولا احد من الحواريين ولا من اتبع المسيح على دينه لا يأسر ملة ابراهيم ولا يقتلهم وكيف وعامة النصارى يقرون بأن محمدا رسول الاميين فكيف يجوز ان يقاتل اهل دين اتبعوا رسولهم .

واخيرا يختتم الرسالة الوصية بالشيخ ابي العباس وبغيره من الاسرى والمساعدة لهم والرفق بمن عنده من اهل القرآن والامتناع من تغيير دين واحد منهم وسوف يرى الملك عاقبة ذلك ، ونحن نجزي الملك على ذلك باضعاف ما في نفسه . والله يعلم اني قاصد للملك الخير لان الله تعالى امرنا بذلك وشرع لنا ان نزيد الخير لكل احد ونعطف على خلق الله وندعوهم الى الله تعالى والى دينه وندفع عنهم شياطين الانس والجن» .

والله المسؤول ان يعين الملك على مصلحته التي هي عند الله المصلحة

(١) ابن تيمية ، الرسالة القبرصية ، ص ٢٩ ـ ٣٣ .

وان يخير له من الاقوال ما هو خير له عند الله ويختتم لـه بخاتمـة خير . والحمـد لله رب العالمين وصلواته على انبيائه اجمعين[1] .

(١) ابن تيمية ، الرسالة القبرصية ، ص ٣١ - ٣٦ .

قواعد المراسلات

مقدمة :

حدد المؤلفون المسلمون قواعد للمراسلات السياسية ، فمراسلات الهدن تكون بين ملكين واكثر ما تكون من ملك الاسلام لملك كافر وتكون الى رجل معلوم يهادن بها احدهما الآخر على نفسه وعساكره وبلاده ورعاياه وما يدخل في دائرته وينضوي الى سائرته او على شيء يقرره له على ذلك واما لا على شيء ، فاما اذا كان من الجانبين فتلك مواصفه[١] .

كيف تكتب الهدنة ؟

ان سبيل الكتابة فيها بعد البسملة هذا ما هادن عليه وأجل اليه مولانا السلطان فلان خلد الله سلطانه وشرف به زمانه الملك فلان الفلاني هادنه حين ترددت اليه رسله وتوالت عليه كتبه واملها ليمهله وسأله ليكف عنه حين ابت صفاحة ان يصفح وسماء عجاجه بالدماء الا ان تسفح فرأى سدد الله آراءه ان الصلح اصلح وان معاملة الله اربح وهادن هذا الملك ويسميه على نفسه واهله وولده ونسله وجميع بلاده وكل طارفه وتلاده وما له من ملك ومال وجهات واعمال وعسكر وجنود وجموع وحشود ورعايا في مملكته من المقيم والطارىء

(١) ابن العمري ، التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٦٧ .

والسائر بها والساري هدنة مدتها لاول تاريخ هذه الساعة الراهنة وما يتلوهـا مدة كذا وكذا ولهم عادة ان يحسبوها مدة سنين شمسية فيحرر حسبها بالقمرية ويذكر سنين واشهرا واياما وساعات حتى يستكمل السنين الشمسية المهادن عليها يحمل فيها هذا الملك فلان الى بيت مال المسلمين والى تحت يد مولانا السلطان فلان قسيم امير المؤمنين في هذه المدة ، ويذكر المقرر ويحرر ثم يقول يقوم بها هذا الملك من ماله ومما يتكفل بجنيه من جزية اهل بلاده وخراج اعماله يقوم به ثم يذكر اقساطه قياما لا يحوج معه الى تكلف مطالبه ولا الى تناوله بيد مغالبه على ان يكف مولاه السلطان عنه بأس بأسائه وخيله المطلة عليه في صباحه ومسائه ويضم عن بلاده اطراف جنوده وعساكره واتباعهم ويؤمنه من بطئهم وسراعهم ويمنع عن بلاد هذا الملك المتاخمة لبلاده المزاحمة لدوافق امداده ويرد عنها وعما جاورها من بقيت ما في مملكته وهي كذا وكذا ويذكر ايدي النهب ويكف الغارات ويمنع الاذى ويرد ممن نزح من رعايا هذا الملك اليه ما لم يدخل في دين الاسلام ويشهد الشهادتين ويقر بالكلمتين المعتادتين ويؤمن جلابة هذا الملك وتجاره والمترددين من بلاده الى بلاد الاسلام في عوارض الاشغال ولا يحصل عليهم ضرر في نفس ولا مال وان اخذت المتحرمة لهم مالا او قتلت منهم احدا امر بانصافهم من ذلك المتحرم وان يؤخذ بحقهم من ذلك الجرم وعليه مثل ذلك فيمن يدخل اليه من بلاد الاسلام وان لا يفسح لنفسه ولا لاحد من اهل بلاده في ايواء مسلم متنصر ولا يرخص لذوي عمى منهم ولا متبصر وانه كلما وردت عليه كتب مولانا السلطان فلان او كتب نوابه او احد من المتعلقين باسبابه يسارع الى امتثاله والعمل به في وقته الحاضر ولا يؤخره ولا يهمله ولا يطرحه ولا يمهله وعليه ان لا يكون عونا للكفار على بلاد الاسلام وان دنت او بعدت الدار ولا يواطىء على مولانا السلطان فلان اعداءه واولهم التتار وان يفعل ما تسكت عنه به الاسنة وما اشبهها من الالسنة وعليه ان ينهي ما يتجدد عنه من اخبار الاعداء ولو كانوا اهل ملته وينبه على سوء مقاصدهم ويعرف ما يهم سماعه من احوال ما هم عليه . وهذه هدنة تم عليها الصلح الى منتهى الاجل المعين فيه ما استمسك بشروطها وقام بحقوقها ووقف عند حدها الملتزم به وصرف اليها عنان اجتهاده وبنى عليها قواعد وفائه وصان من التكدير فيها

سرائر صفائه ، سأل هو في هذه الهدنة المقررة واجابه مولانا السلطان اليها على شروطها المحرزة وشهد به الحضور في المملكتين وتضمنته هذه الهدنة المسطرة وبالله التوفيق . ويؤرخ بالعربي والسرياني[1] .

شروط عقد الهدنة :

اورد القلقشندي[2] شروط عقد الهدنة بين اهل الاسلام واهل الكفر ، وهي شروط اربعة حيث لا يصح عقدها مع اهمال شيء منها :

الاول : في العاقد ، حيث يختلف الحال باختلاف المعقود عليه ، فان كان المعقود عليه اقليما كالهند والروم ونحوهما او مهادنة الكفار مطلقا فلا يصح العقد فيه الا من الامام الاعظم او من نائبه العام المفوض اليه التحدي في جميع امور المملكة .

وان كان على بعض القرى والاطراف ، فلأحد الولاة المجاورين لهم عقد الصلح معهم .

الثاني : ان يكون في ذلك مصلحة للمسلمين ، بأن يكون في المسلمين ضعف او في المال قلة او توقع اسلامهم بسبب اختلاطهم بالمسلمين او طمع في قبولهم الجزية من غير قتال وانفاق مال فان لم تكن مصلحة ، فلا يهادنون بل يقاتلون حتى يسلموا او يؤدوا الجزية ان كانوا من اهلها .

الثالث : ان لا يكون في العقد شرط يأباه الاسلام : كما لو شرط ان يترك بأيديهم مال مسلم او ان يرد اليهم اسير انفلت منهم او شرط لهم على المسلمين مال من غير خوف على المسلمين او شرط رد مسلمة اليهم فلا يصح العقد مع شيء من ذلك بخلاف ما لو شرط رد الرجل المسلم او المرأة الكافرة فانه لا يمنع الصحة . قال الغزالي : وقد جرت العادة ان يقول : على ان من جاءكم من المسلمين رددتموه ومن جاءنا مسلما رددناه فان كان في المسلمين ضعف جاز التزام المال لهم دفعا للشر كما لا يجوز فك الاسير المسلم اذا عجزنا عن انتزاعه .

---

(١) ابن العمري ، التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٦٨ ـ ١٦٩ .

(٢) القلقشندي ، صبح الاعشى ج ١٤ ، ص ٧ ـ ٨ .

الرابع : ان لا تزيد مدة الهدنة عن اربعة اشهر عند قوة المسلمين وامنهم فلا يجوز ان تبلغ سنة بحال وفيما دون سنة وفوق اربعة اشهر قولان للشافعي اصحهما انه لا يجوز اما اذا كان في المسلمين ضعف وهناك خوف فانه تجوز المهادنة الى عشر سنين .فقد هادن رسول الله (ص) اهل مكة عشر سنين ، وقيل : ان كانت في حال ضعف المسلمين حملت على عشر سنين وان كانت في حال القدرة : فقد قيل تحمل على الاقل وهو اربعة اشهر وقيل على الاكثر وهو ما يقارب السنة(١).

مواصفات الهدنة(٢) :

واما مواصفاتها فهي ما يقرر بين ملكين على تقرير من الجانبين وسبيل الكتابة فيها بعد البسملة : هذه هدنة استقرت بين السلطان فلان والسلطان فلان هادن كل واحد منهما الاخر على الوفاء عليه واجل له اجلا ينتهي اليه لما اقتضته المصلحة الجامعة وحسمت به مواد الامال الطامعة تأكدت بينهما اسبابها وفتحت بها ابوابها وعليهما عهد الله على الوفاء بشرطها والانتهاء الى امدها ورد حبل الموادعة الى آخر مددها ضربا لها اجلا اوله ساعة تاريخه والى نهاية المدة وهي مدة كذا ويذكر على ان كل واحد منهما يغمد بينه وبين صاحبه سيف الحرب ويكن ما بينهما من السهام الراشقة ويعقل الرماح الخطارة ويقر على مرابطها الخيل المغيرة وبلاد السلطان فلان كذا وكذا وبلاد السلطان فلان كذا وكذا وما في مملكة كل منهما من الثغور والاطراف والموانىء والرساتيق والجهات والاعمال برا وبحرا وسهلا وجبلا ونائيا ودانيا وما فيها من ملكها المسمى وعليه واهله وامواله وجنده وعساكره وخاص ما يتعلق به وسائر رعاياه على اختلاف انواعهم وعلى انفرادهم واجتماعهم البادىء والحاضر والمقيم والسائر والتجار والسفارة وجميع المترددين من سائر الناس اجمعين على ان يكون على فلان كذا وعلى فلان كذا ويعين ما يعين من مال او بلاد او مساعدة في حرب او غير ذلك يقوم بذلك لصاحبه وينهض من حقه المقرر بواجبه وعليهما الوفاء المؤكد والمواثيق

---

(١) القلقشندي ، صبح الاعشى ج ١٤ ، ص ٨ .

(٢) ابن العمري ، التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٦٩ ـ ١٧٠ .

المحافظة على العهد والتمسك بسببه الوثيق هدنة صحيحة صريحة نطقا بها وتصادقا عليها وعلى ما تضمنته المواصفة المستوعبة بينهما فيها واشهدا الله عليها بمضمونها وتواثقا على ديونها وشهد من حضر مقام كل منهما على هذه الهدنة وما تضمنته من المواصفة وجرت بينهما على حكم المناصفة رأيا فيها سكون الجماح وغضب طرف الطماح وعلى ان على كل منهما رعاية ما جاوره من البلاد والرعية وحملهم في قضاياهم على الوجوه الشرعية ومن نزع من احدى المملكتين الى الاخرى اعيد وما اخذ منها باليد الغاصبة استعيد وبهذا تم الاشهاد وقرىء على المسامع وعلى رؤوس الاشهاد .

الشروط التي يقع الاتفاق عليها بين الملوك في كتابة الهدن:

كانت الهدن بين اهل الكفر واهل الاسلام تشترك في شروط يلتزم بها الطرفان وهي كما اورده القلقشندي[1] ان يشترط عليه ان يكون لوليه مواليا ولعدوه معاديا ولمسالمه مسالما ولمحاربه محاربا فلا يواطىء عليه عدوا ولا يوقع عليه صلحا ولا يوافق على ما يقدح في امره ولا يقبل سؤال سائل ولا بذل باذل ولا رسالة مراسل مما يخالف الاتفاق الجاري والاخذ على يد من سعى لنقض الصلح ونكث العهد ان كان من اهل طاعته والمقاتلة ان كان من المخالفين له وانه اذا جنى من اهل مملكتهم جان كان عليه احضاره او الاخذ منه بالجناية . ومن ذلك ان يشترط عليه ان يكف عن بلاده واعماله ومتطرف ثغوره وشاسع نواحيه ، وان لا يجاوز حدود مملكته الى المملكة الاخرى بنفسه ولا بعسكر من عساكره كما يشترط عليه ان يفرج عمن بحوزته ممن احاطت به ربقة الاسر ويمكنهم من المسير الى بلادهم بانفسهم وخدمهم وعيالهم واتباعهم واصناف اموالهم في اتم حراسة واكمل خفارة دون كلفة ولا مشونة تلحقهم على اطلاقهم .

كما يشترط عليه مالا يحمله اليه في كل سنة او ان يسلم اليه ما يختاره من حصون وقلاع واطراف وسواحل مما وقع الاستيلاء عليه من بلاد المسلمين او

---

(١) القلقشندي ، صبح الاعشى ج ١٤ ، ص ٩ - ١١ .

احب انتزاعه او استضافته من بلاد من يهادنه من ملوك الكفر وان يبقى من بها من اهلها ويقررهم فيها بحرمهم واولادهم ومواشيهم وازوادهم وسلاحهم وآلاتهم دون ان يلتمس عن ذلك او عن شيء عنه مالا او يطلب عنه بدلا وما ينخرط في هذا السلك .

ومن ذلك ايضا ان يشترط فيه عدم التعرض لتجار مملكته والمسافرين من رعيته برا وبحرا بنوع من انواع الاذية والاضرار في انفسهم ولا في اموالهم وللمجاورين للبحر عدم ركوب المراكب الحربية التي لا يعتاد التجار ركوب مثلها .

ومن ذلك ـ ان يشترط عليه امضاء ما وقعت عليه المعاقدة وان لا يرجع عن ذلك ولا عن شيء منه ولا يؤخر شيئاً عن الوقت الذي اتفق عليه .

ومن ذلك ان يشترط عليه انه اذا بقي من مدة الهدنة مدة قريبة مما يحتاج الى التعبىء فيه ان يعلمه بما يريده من مهادنة او غيرها .

ويشترط عليه اذا انقضى عليه ، اذا انقضى امد الهدنة على احد من الطائفتين وهو في بلاد الاخرين ان يكون له الامن حتى يلحق مأمنه .

كما يشترط مالا يحمله اليه في الحال او في كل سنة او حصونا او بلادا يسلمها من بلاده او مما يغب عليه من بلاد مهادنة الى غير ذلك من الامور التي يجري الاتفاق مما لا تحصى كثيرة(١) .

كما يشترط رد من اسلم من رجالهم اليهم فاذا اسلم احدهم رد اليهم ان كانوا مأمونين على دمه ولم يرد اليهم ان لم يؤمنوا عليه،ولا يشترط رد من اسلم من نسائهم لانهن ذوات فروج محرمة فان شرط ردهن لم يجز ان يرددن ودفع الى ازواجهن مهورهن اذا طلبن(٢) .

الامور التي تعتمد في كتابة الهدن

مما يلزم الكاتب في كتابة الهدنة تحرير اوضاعها وترتيب قوانينها واحكام

---

(١) القلقشندي ، صبح الاعشى ج ١٤ ، ص ١١ .

(٢) النويري : نهاية الادب ج ٦ ، ص ١٦٤ .

معاقدها وذلك باعتماد الامور التالية[1]:

ـ ان تكتب الهدنة فيما يناسب الملك الذي تجري الهدنة بينه وبين ملكه .

ـ ان يأتي في ابتداعها ببراعة الاستهلال اما بذكر تحسين موقع الصلح والندب اليه ويمن عاقبته او بذكر السلطان الذي تصدر عنه الهدنة او السلطانين المتهادنين او الامر الذي ترتب عليه الصلح وما يجري هذا المجرى مما يقتضيه الحال ويستوجبه المقام منها .

ـ ان يأتي بعد التصدير بمقدمة يذكر فيها السبب الذي اوجب الهدنة ودعا الى قبول الموادعة ، فان كانت الهدنة مع اهل الكفر احتج للاجابة اليها بالائتمار بأمر القرآن والانقياد اليه حيث امر رسول الله (ص)، بالمطاوعة على الصلح والاجابة الى السلم بقوله «وان جنحوا للسلم فاجنح وتوكل على الله» وما وردت به السنة من مصالحته (ص) قريشا عام الحديبية وذكر ما سنح له من آيات الصلح واحاديثه وما جرى عليه الخلفاء الراشدون من بعده وكفهم عن القتال وقوفا عندما حد لهم وانه لولا ذلك لشرعوا الاسنة الى مخالفيهم في الدين . وان كان الصلح بين مسلمين احتج بنحو قوله تعالى: «ان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما»[2] وبأحاديث التحذير من تقاتل المسلمين كقوله (ص) «اذا التقى المسلمان بسيفيهما فقتل احدهما صاحبه فالقاتل والمقتول في النار» .

ـ ومنها ان يراعى المقام في تبجيل المتهادنين او احدهما بحسب ما تقتضيه الحال ووصف كل واحد منهما بما يليق به من التعظم او التوسط او انحطاط الرتبة حسب المقام ويجري على حسب ذلك في الشدة واللين .

فان كانت الهدنة بين متكافئين سُوّى بينهما في التعظيم وجرى بهما في الشدة واللين على حد واحد الا ان يكون احدهما اسن من الآخر فيراعى للاسن ما يجب له على الحدث من التأدب ويراعى للحدث ما يجب له على الكبير من الحنو والشفقة . وان كانت الهدنة من قوي لضعيف اخذ في الاشتداد آتيا بما يدل على

---

(١) القلقشندي ، صبح الاعشى ج ١٤ ، ص ١٤ .
(٢) سورة الحجرات ، آية ١٠ .

علو الكلمة وانبساط القدرة وحصول النصرة واستكمال العدد وظهور الايد ووفور الجند وقصور الملوك عن المطاولة وعجزهم عن المحاولة لا سيما اذا كان القوي مسلما والضعيف كافرا فانه يجب الازدياد من ذلك وذكر ما للاسلام من العزة وما توالى له من النصرة وذكر الوقائع التي كانت فيها نصرة المسلمين على الكفار في المواطن المشهورة والاماكن المعروفة .

وان كانت الهدنة من ضعيف لقوي اخذ في الملاينة بحسب ما يقتضيه الحال مع اظهار الجلادة وتماسك القوة خصوصا اذا كان القوي المعقود معه الهدنة كافرا وان شرط له مالا عند ضعف المسلمين للضرورة اتى في كلامه بما يقتضي ان في ذلك رغبة في الصلح المأمورية لا عن خور طباع وضعف قوة ان اللّٰه تعالى يقول: ﴿**فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وانتم الاعلون والله معكم**﴾[1] .

ومنها ان يبين ان الهدنة وقعت بعد استخارة الله تعالى وتروية النظر في ذلك وظهور الخير فيه ومشاورة ذوي الرأي واهل الحمى وموافقتهم على ذلك .

- ومنها ان يبين مدة الهدنة لان الصحيح من مذهب الشافعي انه اذا لم تبين المدة في مهادنة اهل الكفر فسدت الهدنة.

- ومنها ان يتعرض الى ما يجّري من التحليف في آخرها على الوفاء وعدم النكث والاخلال بشيء من الشروط والخروج عن شيء من الالتزامات .

- ومنها ان تفتح الهدنة بلفظ «هذا ما هادن عليه» او هذه هدنة موادعة او مواصفة او سلم او صلح[2] .

وكانت معاهدات الصلح بين بيزنطة وجيرانها بما فيهم العرب تعقد للابد وكانوا يقولون فيها «طالما تشع الشمس ويظل العالم ثابتا» او «طالما تشع الشمس وما بقي الكون بعد ذلك والى الابد»[3] .

---

(١) سورة محمد ، آية ٣٤ .

(٢) القلقشندي ، صبح الاعشى ج ١٤ ص ١٢ ـ ١٧ .

(٣) نورمان ، بينز ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٣٦٦ .

نموذج عن هدنة من ملك مضعوف الى ملك قوي:

اورد القلقشندي[1] هذه النسخة عن هدنة كتب بها ابو اسحاق الصائي عن صمصام الدولة بن عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه الديلمي بأمر امير المؤمنين الطائع لله الخليفة العباسي ببغداد يومئذ لوردس المعروف بسفلاروس ملك الروم حين حيل بينه وبين بلاده والتمس ان يفرج له طريقه الى بلاده على شروط التزمها وحصون يسلمها وهي:

« هذا كتاب من صمصام الدولة وشمس الملة ابي كاليجار بن عضد الدولة وتاج الملة ابي شجاع بن ركن الدولة ابي علي مولى امير المؤمنين كتبه لوردس ابن بينير المعروف بسفلاروس ملك الروم: انك سألت بسفارة اخينا وعدتنا وصاحب جيشنا (ابي حرب زياد بن بن شهر اكويه) تأمل حالك في تطاول حبسك واعتيافك عن مراجعة بلدك وبذلت متى افرج عنك وخلّي طريقك واذن لك في الخروج الى وطنك والعود الى مقر سلطانك ان تكون لولينا وليا ولعدونا عدوا ولسلمنا سلما ولحربنا حربا: من جميع الناس كلهم على اختلاف احوالهم واديانهم واجناسهم واجيالهم، ومقارهم واوطانهم فلا تصالح لنا ضدا مباينا ولا تواطىء علينا عدوا مخالفا وان تكف عن تطرق الثغور والاعمال التي في ايدينا وايدي الداخلين في طاعتنا فلا تجهز اليها جيشا ولا تحاول لها غزوا ولا تبدأ اهلها بمنازعة ولا تشرع لهم في مقارعة ولا تتناولهم بمكيدة ظاهرة ولا باطنة ولا تقابلهم باذية جلية ولا خفية ولا تطلق ممن ينوب عنك في قيادة جيوشك ومن ينسب الى جملتك ويتصرف على ارادتك الاجتراء على شيء من ذلك على الوجوه والاسباب كلها وان تفرج عن جميع المسلمين واهل ذمتهم الحاصلين في محابس الروم ممن احاطت بعنقه ربقة الاسر واشتملت عليه قبضة الحصر والقسر في قديم الايام وحديثها وبعيد الاوقات وقريبها المقيمين على اديانهم والمختارين للعود الى اوطانهم وتنهضهم بما ينهض به امثالهم وتمكنهم من البروز والمسير بنفوسهم وحرمهم واولادهم وعيالاتهم واتباعهم واصناف اموالهم موفورين مضمونين محروسين غير ممنوعين ولا معوقين ولا

(١) القلقشندي، صبح الاعشى ج ١٤، ص ٢٠ - ٢٤.

مطالبين بمؤونة ولا كلفة صغيرة ولا كبيرة : وان تسلم تتمة سبعة من الحصون (ذكرها له مفصلة)[1] مع كل من بها من طبقات اهلها اجمعين المختارين لسكناها والاستقراء فيها بحرمهم واولادهم واسبابهم ومواشيهم واضاف اموالهم وغلاتهم وازوادهم وسلاحهم وآلاتهم ليكون جميعها حاصلا في ايدينا وايدي المسلمين على غابر الايام والسنين من غير ان تلتمس عنها او عن شيء منها مالا ولا بدلا ولا عوضا من الاعواض كلها وعلى انك تمضي ما عقدته على نفسك من ذلك كله بابا بابا وتفي به اولا اولا منذ وقت وصولك الى اوائل اعمالك والى غاية استيلائك عليها ونفاذ امرك فيها ولا ترجع عن ذلك ولا عن بعضه ولا تؤخر شيئا منه عن الوقت الذي تقدر فيه عليه ولا ترخص لنفسك في تجاوز له ولا عذول عنه . ومتى سعت طائفة من الطوائف التي تنتسب اليها الروم والارمن وغيرهم في امر يخالف شرائط هذا الكتاب كان عليك منعهم من ذلك ان كانوا من اهل الطاعة والقبول منك او مجاهدتهم ومما نعتهم ان كانوا من اهل العنود عنك والخلاف عليهم حتى تصرفهم عما يرومونه وتحول بينهم وبين ما يحاولونه بمشيئة الله واذنه وتوفيقه وعونه .

واشترطت علينا بعد الذي شرحته لنا من ذلك التخلية عن طريقك وطريق من تضمنته حملتك واشتملت عليه رفقتك، من طبقات الاصحاب والاتباع في جميع اعمالنا حتى تنفذ عنها الى ما وراءها غير معوق ولا معتقل ولا مؤذى ولا معارض ولا مطالب بمئونة ولا كلفة ولا ممنوع من ابتياع زاد ولا آله ولا نؤثر عليك احدا ناوأك في اعمالك ونازعك سلطان بلادك ودافعك عنه وناصبك العداوة فيه : ممن ينتسب الى الروم والارمن والخزرية وسائر الامم المضادة لك ولا نوقع معه صلحا عليك ولا موافقة على ما يعود بثلمك او قدح في امرك ولا نقبل سؤال سائل ولا بذل باذل ولا رسالة مراسل فيما خالف شرائط هذا الكتاب او عاد باعلاله او اعلال وثيقة من وثائقه ومتى وفد الينا رسول من جهة احد من اضدادك راغبا الينا في شيء يخالف ما انعقد بيننا وبينك امتنعنا من اجابته الى ملتمسه ورددناه خائبا خاليا من طلبته واذا سلمت

---

(١) القلقشندي ، صبح الاعشى ج ١٤ ، ص ٢١ .

الحصون المقدم ذكرها الى من نكـاتبك بـالتسليم له كـان ذلك علينـا ان نقر من فيها وفي رساتيقها على نعمهم ومنازلهم وضياعهم وامـلاكهم وان لا نزيلهم عنهـا ولا عن شيء منها ولا نحول بينهم وبين ما تحـويه ايـديهم من جميع امـوالهم وان نجريهم في المعاملات والجبايات على رسومهم الجارية الماضيـة التي عوملوا عليهـا على مر السنين والى الوقت الـذي يقع فيـه التسليم من جميع فسـخ ولا تغيير ولا نقض ولا تبديل ، فانهينا الى مولانا امير المؤمنين الطائع لله مـا سألت والتمست وضمنت وشـرطت واشترطت من ذلـك كله واستـأذنـاه في قبـولـه منـك وايقـاع المعـاهدة عليـه معك فـأذن لنا فيـه وامرنـا ان نحكمه ونمضيـه لما فيـه من انتظام الامور وحياطة الثغور وصلاح المسلمين والتنفيس عن المأسورين . . . فـأمضيناه على شرائطه وتراضينا جميعا به وعاقدناك عليـه وحلفت لنا بـاليمين المؤكـدة التي يحلف اهل شريعتك بها ويتحرجون من الحنث فيها على الوفاء بـه واشهدنـا على نفوسنا واشهدت على نفسك الله جلّ ثناؤه وملائكتـه المقربـين وانبياءه المـرسلين واخانا وعدتنا ابا حرب ربار بن شهراكويه مولى امير المؤمنين ومن حضر المجلس الذي جرى فيه ذلك باستقرار جميعه بيننا وبينك ولزومه لنا ولك .

ثم حضر بعد تمام هذه الموافقة واستمرارها وثبوتها واستقـرارها قسـطنطين بن بينير اخورودس بن بينير وارمانوس بن وردس بن بينير فوقعا على هذا الكتاب واحاطا به علما واستوعباه معرفة وشهدا على وردس بن بينير ملك الـروم باقـراره به وبالتزامه اياه .

وصـار هذا العقـد جامعـا لهم ولنا ولإولادنـا واولادهم وعقبنا وعقبهم مـا عشنا وما عاشوا يلزمنا واياهم الوفاء بما فيه علينا وعليهم ولنا ولهم على مر الليالي والايام واختلاف الادوار والاعوام .

كتب هذا الكتاب على ثلاث نسخ متساويات خلدت اثنتان منهـا بدواوين مـدينـة السـلام وسلمت الثـالثـة الى وردس بن بينـير ملك الـروم واخيـه وابنـه المذكورين معه فيه .

نص المعاهدة بين قرغويه وبطرس فوقاس سنة ٣٥٩ هـ.(٩٦٩ م.ـ ٩٧٠ م.):

اورد المؤرخ كمال الدين ابن العديم[١] نص المعاهدة التي عقدت بين قرغويه وبطرس فوقاس بعد سقوط انطاكية ومن بعدها حلب سنة ٣٥٩ هـ . / ٩٦٩م. وهي تتضمن الشروط التالية:

١ ـ ان يحمل قرغويه الى (ملك الروم في كل سنة) عن كل صغير وكبير من سكان المواضع التي وقعت الهدنة دينارا قيمته ستة عشر درهما وان يحمل اليهم عن البلاد التي وقعت الهدنة سبعماية الف درهم .

٢ ـ البلاد التي جرت الاشارة اليها هي: حمص ـ جوسيه[٢] وسلميه[٣] وحماه وشيزر[٤] وافاميه[٥] ومعرة النعمان[٦] وحلب وجبل السماق[٧] ومعرة مصرين[٨] وقنسرين والاثارب[٩] الى طرف البلاط[١٠] الى كيمار[١١] الى المرج الذي هو قريب غزاز ويمين الحد كله لحلب والباقي للروم .

٣ ـ شرطوا ان الامير على المسلمين قرغويه والامر بعده لبكجور وبعدهما ينصب ملك الروم اميرا يختاره من سكان حلب وليس للمسلمين ان ينصبوا احدا .

---

(١) ابن العديم ، تاريخ حلب ج ١ ص ١٦٤ وما يليها .
(٢) من قرى حمص على مسافة ٣٥ كلم منها .
ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ج ٢ ص ١٨٥ .
(٣) سلميه : من اعمال حماه بينها مسيرة يومين . الحموي معجم البلدان ج ٣ . ص ٢٤٠ .
(٤) شيزر : قلعة قرب المعره . بينها وبين حماه يوم . معجم البلدان ج ٣ . ص ٣٨٢ .
(٥) افاميه : مدينة حصنية من سواحل الشام . ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٢٢٦ .
(٦) معرة النعمان : مدينة قديمة بين حلب وحماه . ياقوت : معجم البلدان ج ٥ ص ١٥٦ .
(٧) جبل السماق : جبل من اعمال حلب الغربية . نفس المصدر ج ٢ ص ١٢ .
(٨) معرة مصرين : بلدة بنواحي حلب ، بينهما خمسة فراسخ . نفس المصدر ج ٥ ص ١٥٥ .
(٩) الاثارب : قلعة بين حلب وانطاكية بينهما ثلاثة فراسخ . نفس المصدر ج ١ ص ٨٨ .
(١٠) البلاط : قرية من قرى غوطة دمشق . نفس المصدر ج ١ ص ٤٧٦ .
(١١) كيمار : على مبسافة ١٢ كلم من ماسوفان . ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ص ١٦٤ حاشية ٨ .

٤ ـ لا يؤخذ من نصراني جزية في هذه الاعمال الا اذا كان له بها مسكن او ضيعة .

٥ ـ وان ورد عسكر اسلامي يريد غزو الروم منعه قرغويه وقال: امض من غير بلادنا ولا تدخل بلد الهدنة ، فان لم يسمع ذلك امر الجيش قاتله ومنعه وان عجز عن دفعه كاتب ملك الروم لينفذ اليه من يدفعه .

٦ ـ ومتى وقف المسلمون على حال عسكر كبير كتبوا الى الملك والى رئيس العسكر واعلموهما به لينظروا في امرهما .

٧ ـ وان عزم الملك او رئيس العسكر على الغزاة الى بلد الاسلام تلقاه بكجور الى المكان الذي يؤمر بتلقيه اليه وان يشيعه في اعمال الهدنة ولا يهرب من في الضياع ليبتاع العسكر الرومي ما يحتاجون اليه سوى التبن فانه يؤخذ منهم على رسم العساكر بغير شيء .

٨ ـ ويتقدم الامير بخدمة العساكر الرومية الى الحد فاذا خرجت من الحد عاد الامير الى عمله .

٩ ـ وان غزا الروم غير ملة الاسلام سار اليه الامير وغزوا معه كما يأمر .

١٠ ـ واي مسلم دخل في دين النصرانية فلا سبيل للمسلمين عليه ومن دخل من النصارى في ملة الاسلام فلا سبيل للروم عليه .

١١ ـ ومتى هرب عبد مسلم او نصراني ذكرا كان او انثى من غير الاعمال المذكورة اليها لا يستره المسلمون ويظهرونه ويعطى صاحبه ثمنه عن الرجل ٣٦ دينارا وعن المرأة عشرون دينارا رومية وعن الصبي والصبية ١٥ دينارا فان لم يكن له ما يشتريه اخذ الامير في مولاه ثلاثة دنانير وسلمه اليه .

١٢ ـ فان كان الهارب معمدا فليس للمسلمين ان يمسكوه بل يأخذ الامير حقه من مولاه ويسلمه اليه .

١٣ ـ وان سرق سارق من بلاد الروم واختفى هاربا انفذه الامير الى رئيس العسكر الرومي ليؤدبه .

١٤ ـ وان دخل رومي الى بلد الاسلام فلا يمنع من حاجته .

١٥ ـ وان دخل من بلد الإسلام جاسوس الى بلد الروم اخذ وحبس .

١٦ ـ ولا يخرب المسلمون حصنا ولا يحدثوا حصنا فان خرب شيء اعادوه .

١٧ ـ ولا يقبل المسلمون اميرا مسلما ولا يكاتبوا احدا غير الحاجب وبكجور فان توفيا لم يكن لهم ان يقبلوا اميرا من بلاد الاسلام ولا يلتمسوا من المسلمين معونة بل ينصب لهم الامبراطور من يختاره من بلاد الهدنة وينصب لهم الملك بعد وفاة الحاجب (قرغويه) وبكجور قاضيا منهم يجري احكامهم على رسمهم .

١٨ ـ يحق للروم ان يعمروا الكنائس الخربة في هذه الاعمال ويسافر البطارقة والاساقفة اليهم ويكرمهم المسلمون .

١٩ ـ وان العشر الذي يؤخذ من بلد الروم يجلس عشار الملوك مع عشار قرغويه وبكجور فمهما كان من التجارة من الذهب والفضة والديباج للرومي والقز غير معمول والاحجار والجوهر واللؤلؤ والسندس عشر عشار الملك والثياب والكتان والبهائم وغير ذلك من التجارات يعشره عشار الحاجب وبكجور بعده وبعدهما بعشر ذلك كله عشار الملك .

٢٠ ـ ومتى جاءت قافلة من الروم مقصد حلب يكتب الزروار[١] المقيم في الطرف الى الامير ويخبره بذلك لينفذ من يتسلمها ويوصلها حلب وان قطع الطريق عليها بعد ذلك فعلى الامير ان يعطيهم ما ذهب وكذلك ان قطع على القافلة اعراب او مسلمون في بلد الامير فعلى الامير غرامة ذلك .

ولقد وقع عليها جماعة من شيوخ حلب مع قرغويه وبكجور اللذين بعثا بالرهائن ضمانا لتنفيذها ، وتم ابرام هذه المعاهدة قبيل مصرع الامبراطور نقفور فوقاس الذي حدث في ١١ ديسمبر سنة ٩٦٩م . / ٣٥٨ هـ . [٢] .

---

(١) الزرواره : هم القواد اللاحقين بالامراء .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ج ١ ص ١٦٦ .

هدنة بين سعد الدولة وفوكاس

اشار ابن العديم[1] انه سنة ٣٧٦ هـ / ٩٨٦م. تم عقد هدنة بين سعد الدولة وبارداس فوكاس تعهد فيها الاخير بالامان لسعد الدولة ولرعاياه على ان يحمل الحلبيون الى الامبراطور باسيل في كل سنة ما هو مقرر عليهم من المال وقدره عشرون الف دينار وان يؤدوا ما تأخر عليهم من الاموال التي التزموا بها من قبل .

في عقد الامان لاهل الكفر :

الامان هو اقوى امور الصلح دلالة على اشتداد السلطان اذ كان يؤمن الخائف آمنا عوض عنه في عاجل ولا آجل وفيه طرفان :

الطرف الاول يتعلق في ذكر اصله وشرطه وحكمه ، على ان الامان هو الامر الاول من الامور الثلاثة التي يرفع بها القتل عن الكفار . قال العلماء : وهو من مكايد القتال ومصالحه وان كان فيه ترك القتال لان الحاجة داعية اليه ، والاصل فيه من الكتاب بقوله تعالى: «وان احدا من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه مأمنه»[2] وهذا امان خاص يجب ان يبذله كل مسلم من رجل وامرأة وحر وعبد لقول النبي (ص) «المسلمون تتكافأ دماؤهم وهم يد على من سواهم يسعى بذمتهم ادناهم » يعني عبيدهم وقال النبي (ص): لا يصح امان العبد الا ان يكون مأذونا له في القتال[3].

وللامان اركان وشرائط واحكام[4] :

اما الاركان فهي ثلاثة الاول: العاقد للامان من المسلمين وليُعلم من الامان على ضربين عام وخاص . فالعام هو عقده للعدد الذي لا يحصر كأهل ناحية ولا يصح عقد الامان فيه الا من الامام او نائبه كما هو في الهدنة ،

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ص ١٧٧ .

(٢) القلقشندي صبح الاعشى ج ١٣ ص ٣٢١ .

(٣) النويري ، نهاية الادب م ٦٠ ص ١٦٧ .

(٤) القلقشندي ، صبح الاعشى ج ١٣ ص ٣٢٢ .

والخاص هو عقده للواحد العدد المحصور ويصح من كل مسلم مكلف وان لم تكن له اهلية القتال . . اما الركن الثاني : فهو المعقود له ويصح عقده للواحد والعدد من ذكور الكفار واناثهم. والركن الثالث فصيغة العقد التي هي كل لفظ يفهم الامان كناية كان او صريحا وفي معنى ذلك الاشارة المفهمة ويعتبر فيه قبول الكافر فلا بد منه حتى لو رد الامان لم ينعقد .

اما شرط الامان فانه لا يكون على المسلمين ضرر في مستأمن ، بأن يكون طليعة او جاسوسا فانه يقتل ولا يبالى بامانة ويعتبر ان لا تزيد مدة الامان على سنة بخلاف الهدنة التي تجوز عند ضعف المسلمين الى عشر سنين .

وحكم الامان فانه اذا عقد لزم المشروط «فلو قتله مسلم وجبت الدية ثم هو جائز من جهة الكفار فيجوز للكافر نبذه متى شاء ولازم من جهة المسلمين فلا يجوز النبذ الا ان يتوقع من المستأمن الشر فاذا توقع منه ذلك جاز نبذ العهد اليه ويلحق بمأمنه[١] .

ولقد اورد القلقشندي نصا لامان كتب عن السلطان الملك الناصر (محمد بن قلاوون) لفراكس صاحب السرب من ملوك النصارى وزوجته ومن معهما من الاتباع عند طلبهم التمكين من زيارة القدس الشريف الى حين عودهم امنين على انفسهم واموالهم[٢] .

وعندما كان يمنح الامان ، كانت شخصية السفير البيزنطي مقدسة كما هي منذ القدم في جميع المجتمعات المتحضرة ، وكما كانت عند الاسلام قديما حيث كان السفير يتمتع بحصانة دبلوماسية تامة ، مع جميع مرافقيه ، فلم يسجن ، ولم يعامل بقسوة ، ولم يرهق ، ولم يتعرض بشتى الحالات للقتل[٣] .

الغاء الهدن :

وهذا ما سمي بالمفاسخة وهي نوعان فسخ وهو ما وقع من احد الجانبين

---

(١) القلقشندي صبح الاعشى ج ١٣ ص ٣٢٢ - ٣٢٣ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٢٧ - ٣٢٨ .

(٣) Camard Marius. Deux épisodes des rélations diplomatiques Arabo - Byzantines au xe siecle. P 54.

فيه نقض عهد حصلت المواثقة عليه وقل ان يكون في هذا الا ما يبعث به السنة الرسل . ويبدأ «بعد البسملة هذا ما إستخار الله تعالى فلان استخارة بين له فيها غدر الغادر واظهر له سر الباطن بما حققه الظاهر فسخ فيها فلان ما كان بيننا وبينه من المهادنة التي كان آخر الوقت الفلاني اخر مدتها وطهر السيوف الذكور فيها من الدماء الى انقضاء عدتها وذلك حين بدا منه من موجبات النقض وحل المعاهدة التي كانت يشد بعضها ببعض وهي كذا وكذا وتذكر وتعد مما يوجب كل ذلك اخفار الذمة ونقض العهود المرعية الحرمة وهو قواعد الهدنة وتخلية ما كان قد امسك الاعنة كتب للانذار وقدم والحذار وممن يشهد بوجوب هذا الفسخ دخول ملة تلك الهدنة في حكم الفسخ عن فلان لفلان وقد نبذ اليه عهده وانفذ اليه سهمه وانجز وعده بعد ان صبر مليا على ممالاته واقام مدة يداوي مرض وفائه ولا ينجح فيه شيء من مداواته ولينصرن الله من ينصره ويحذر من بأس مكره من يحذره وامر فلان بأن يقرأ هذا الكتاب على رؤوس الاشهاد لينقل مضمونه الى البلاد انفة من امر لا ينادي به الاعلان وينصب به لهذا الغادر لواء لا يقال هذا اللواء لغدرة فلان[1] .

اما المفاسخة فتكون من الجهتين وصورة ما يكتب فيها: «هذا ما اختاره فلان وفلان من فسخ ما كان بينهما من المهادنة التي هي الى آخر مدة كذا . اختارا فسخ بنائها وفسخ ابنائها ونقض ما ابرم من عقودها واكد من عهودها جرت بينهما على رضى من كل منهما بايقاد نار الحرب التي كانت اطفأت واعتقاد من كل منهما ان بنصحه في هذا لجهته واسقط ما يحمله الاخر من ربقته ورضي فيه بقضاء السيوف ومضاء امر القدر والقضاء في ماقاة الحتوف وقد اشهدا عليهما بذلك وخلقه ومن حضر ومن سمع ونظر وكان ذلك في تاريخ كذا والله الموفق والهادي الى طريق الحق[2] .

ولقد كان الكاتب في ديوان الرسائل ينشىء كتب الخليفة الذي يتولى

---

(١) ابن العمري ، شهاب الدين ، التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٧٠ ـ ١٧١ .

(٢) ابن العمري ، شهاب الدين ، التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٧٢ .

التوقيع عليها حيث كانت تمر على ديوان التوقيع في العصر العباسي كل المراسلات والوثائق السياسية[1].

(1) عثمان ، فتحي ، الحدود الاسلامية ـ البيزنطية . الجزء الثاني ص ٣٩٣ .

السفارات الشخصية

مقدمة :

تستدعي الاتصالات الدبلوماسية قديما وحديثا ارسال سفراء لتبادل وجهات النظر عند الرغبة في حل المسائل المهمة بين البلدان ، سواء كانت هذه المسائل حربية او تجارية او لتبادل المجاملات ، ويعرف اليوم هذا النوع من السفراء بالسفراء فوق العادة .

ولقد راعى اولو الامر في الدولتين تزويد السفير بكتاب يعرف بشخصه ومهمته يشبه اوراق الاعتماد الان كما تمتع السفراء او المبعوثون بميزات وحصانات وحرص كل فريق على الحفاوة بالسفراءواظهار عظمته لممثل الفريق الاخر . ولقد طلب معاوية من عثمان ان يترك له خراج بعض اراض وضياع لا يرسل لبيت المال كي يخصص لاعباء التمثيل الدبلوماسي ، وكانت هذه الاراضي لأنباط هجروها او قتلوا على اثر الفتح الاسلامي «ولم تزل تلك المزارع موقوفة مقبلة تدخل قبالتها بيت المال . . . حتى كتب معاوية في امرته على الشام الى عثمان ان الذي اجراه عليه من الرزق في عمله ليس يقوم بمؤن من يقدم عليه من وفود الاجناد ورسل امرائها ومن يقدم عليه من رسل الروم ووفودها . . . وسأله ان يقطعه اياها فأجابه الخليفة الى ذلك[1] .

(١) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق م ١٠ ، ص ٥٩٥ .

وقد عرف عن الدولة البيزنطية تدقيقها في اختيار سفرائها الى الدولة الاسلامية . وقد ارسلت الى دمشق بعد انتهاء حصار القسطنطينية الثاني (٥٤ هـ - ٦٠ هـ/ ٦٧٤م - ٦٨٠م .) احد رجالها الممتازين ويدعى يوحنا وكان مسنا حكيما لبقا . واكتسب عطف معاوية ثم عاد الى القسطنطينية بعد ان اخذ فكرة طيبة عن البلاط الاموي[١].

السفراء زمن الامويين:

من المبعوثين المسلمين من اوفد في مهام سرية من ذلك ما رواه النويري[٢] قائلا: في ايام معاوية غزا المسلمون فأسر جماعة منهم فأوقفوا بين يدي الملك . فتكلم بعض اسارى المسلمين فدنا منه بعض البطارقة ممن كان واقفا بين يدي الملك فلطم حرّ وجهه ، فآلمه وكان رجلا من قريش . فصاح: وا اسلاماه !! اين انت يا معاوية اذ حملتنا وضيعت ثغورنا وحكمت العدو في ديارنا ودمائنا واغراضنا ؟؟ فنمي الخبر الى معاوية فآلمه . ثم اجمل الامر في اعمال الحيلة باقامة الفداء للمسلمين . فلما صار الرجل الى دار الاسلام دعاه معاوية واحسن اليه ثم قال : لم نهملك ولم نضيعك ولا ابحنا دمك وعرضك ، ومعاوية مع ذلك يجيل الرأي ويعمل الحيلة . ثم بعث الى رجل من ساحل دمشق من مدينة صور وكان به عارفا كثيرا الغزوات ، فأحضره وخلا به واخبره بما قدم العزم عليه وسأله اعمال الحيلة فيه والتأني له فتوافقا على ان يدفعا للرجل مالا عظيما يبتاع به انواعا من الطرف والملح والجهاز الطيب والجوهر وغير ذلك وابتنى له مركبا لا يلحق في جريه سرعة بنيانا عجيبا . فسار الرجل حتى اتى مدينة قبرص فاتصل برئيسها واخبره ان معه جارية للملك وانه يريد التجارة الى القسطنطينية قاصدا الى الملك وخواصه بذلك . فروسل الملك بذلك واعلم بحال الرجل فأذن له في الدخول . . . واخذ الرجل يوثق صلاته بالملك وبطارقته «وبايعهم وشاراهم ، ولم يعط للبطريق الذي لطم وجه القرشي شيئا» . وتأنى الصوري في الامر على حسب ما رسمه معاوية ، واقبل الرجل من القسطنطينية الى الشام وقد امره

---

(١) عثمان ، فتحي ، الحدود الاسلامية - البيزنطية ج ٢ ص ٣٩٤ .

(٢) النويري ، نهاية الارب ج ٦ ص ١٨٥ - ١٨٧ .

البطارقة والملك بابتياع خوائج ذكروها . . . فلما صار الى الشام سار الى معاوية سرا وذكر له من الامر ما جرى فابتيع له جميع ما طلب . . .

وتقدم اليه فقال : ان ذلك البطريق اذا عدت الى كرتك هذه سيعزلك عن تخلفك عن بره واستهانتك به . فاعتذر اليه ولاطفه بالقصد والهدايا واجعله القيم بامرك والمتفقد لاحوالك ، انظر ماذا يطلب منك حين اوبك الى الشام فان منزلتك ستعلو واحوالك تزداد عندهم . . . ولم يزل هذا فعله يتردد من الروم الى معاوية ومن معاوية الى الروم ويسأل الملك والبطريق وغيره الحوائج والحيلة لا تتوجه لمعاوية حتى مضى على ذلك سنين، ثم طلب البطريق بساطا بوسائده يكون فيه من انواع الالوان . «وكان من شأن الصوري اذا ورد الى القسطنطينية ان تكون مركبه بالقرب من ذلك البطريق وللبطريق ضيعة سرية وفيها قصر مشيد ومنتزه حسن على اميال من القسطنطينية راكبه على الخليج . وكان البطريق اكثر اوقاته في المنتزه . وكانت الضيعة مما يلي فم الخليج مما يلي بحر الروم والقسطنطينية وهنا حضرت الحيلة معاوية فتحرى وجود البطريق في ضيعته ثم ارسل ما طلبه من بساط ووسائد . ونضد هذا في صحن المركب «والرجال تحت المجلس بأيديهم المجاديف مشكلة قائمة غير قاذفين بها ، ولا يعلم بهم انهم في بطن المركب الا من ظهر منهم في المركب عمله ، والريح في القلع والمركب مار في الخليج كأنه سهم . . . واشرف البطريق على المركب فنظر الى ما فيه من حسن ذلك البساط ونظم ذلك الفرش كأنه رياض تزهر فلم يستطع اللبث في موضعه حتى نزل قبل ان يخرج الصوري من مركبه اليه ، فطلع المركب ، فلما استقرت قدمه في المركب ودنا من المجلس ضرب الصوري بعقبه على من تحت البساط من الوقوف - وكانت علامة بينه وبين الرجال الذين في بطن المركب فما استقر دقة بقدمه حتى اختطف المركب بالمجاديف فاذا هو في وسط البحر لا يلوى على شيء . فكانوا اليوم الثالث عشر حضورا بين يدي معاوية . . فقال : علي بالرجل القرشي وانفض المجلس بأهله فقال له معاوية انظر ، لا تتعد ما جرى عليه منه واقتص منه على حسب ما صنع بك ولا تتعد وراع ما اوجب الله عليك من المماثلة . . . واحسن معاوية الى البطريق وخلع عليه بره وحمل معه البساط واضاف الى ذلك اموراً كثيرة وهدايا الى الملك . . .»وكان هذا مدعاة لصنع سلسلة

على فم وادي القسطنطينية فلا يدخل احد الا باذن الملك واعجب الروم بعظم حيلة معاوية[1].

كما روى ابن قتيبة[2] ان معاوية لما اسن اعتراه ارق فكانت توقظه نواقيس الروم فقال: «يا معشر العرب هل فيكم من يفعل ما آمره واعطيه ثلاث ديات اعجلها له وديتين اذا رجع ؟ فقام فتى من غسان فقال انا يا امير المؤمنين قال: تذهب بكتبي الى ملك الروم فاذا صرت على بساطه اذنت . . . فلما صار على بساط قيصر اذن ، فتناجزت البطارقة واخترطوا سيوفهم ، فسبق اليه ملك الروم فجثا عليه . . . ثم قال «يا معشر البطارقة ، ان معاوية رجل قد اسن وقد ارق وقد آذته النواقيس واراد ان نقتل هذا على الاذان فيقتل من قبله منا على النواقيس والله ليرجعن اليه بخلاف ما ظن ! فكساه وحمله فلما رجع الى معاوية قال: اوقد جئتني سالما ؟ قال : نعم، اما من قبلك فلا».

وتدل هذا الروايات ان المسلمين والروم قد الفوا الاتصال سرا وعلانية لمختلف الاسباب والاغراض .

السفارات زمن العباسيين

حرص العباسيون على التباهي بفخامة ملكهم ومنشآتهم امام سفراء الروم . فلما استتم المنصور بناء مدينة بغداد قدم اليه بطريق من بطارقة الروم ، فأمر الربيع ان يطوف به في المدينة وما حولها ليرى العمران والبناء ، فطاف به الربيع فلما انصرف قال : كيف رأيت مدينتي ؟ - وكان قد اصعد الى سور المدينة وقباب الابواب - قال : رأيت بناء حسنا الا اني رأيت اعداءك معك في مدينتك ! قال : ومن هم ؟ قال : السوقة . فلما خرج البطريق امر باخراج السوقة . . . وذكر انه قيل لابي جعفر : ان الغرباء وغيرهم يبيتون في الكوخ ولا يؤمن ان يكون فيهم جواسيس ومن يتعرف الاخبار او ان يفتح ابواب المدينة

---

(١) وردت هذه القصة في (استخدام المكائد والجاسوسية) ص : ٧٥ .

(٢) ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، ج ١ ص ١٩٨ .

ليلا لموضع السوق . فامر باخراج السوق من المدينة وجعلها للشرط والحرس[1].

سفارة يوحنا النحوي:

اشتهرت هذه السفارة الى الخليفة المأمون في عهد الامبراطور البيزنطي تيوفيل ، وقد بلغ من آثار هذه السفارة على الخيال الشعبي انها اتخذت طابعا اسطوريا . ويوحنا المشهور بالنحوى هو عالم ربما كان على معرفة بالعربية وقد اوفد الى بغداد لاعلان ارتقاء تيوفيل العرش الامبراطوري وحمل معه هدايا ثمينة للخليفة كما حمل اموالا ضخمة للتأثير في العرب بمظاهر البذل والسخاء[2].

وسفارة يوحنا هذه كان لها هدف اعادة القائد البيزنطي مانويل الذي هرب والتجأ الى العرب حيث استقبلوه بالترحيب حيث ادى خدمات كبرى للخليفة ضد اتباع بابك وثوار خراسان ، وقد اضطلع يوحنا بتدبير لقاء سري مع مانويل لينقل اليه تأكيد الامبراطور بالعفو والامان والتكريم اذا ما عاد ادراجه الى القسطنطينية ، واجرى المبعوث هذه المهمة بنجاح ، وقد حمل خطابا امبراطوريا مختوما بخاتم ذهبي كما حمل الصليب الذي يضعه تيوفيل على صدره ، وقد اعادت هذه التأكيدات الثقة الى مانويل فتعهد بالعودة الى البلاد في اول فرصة . ويذكر الطبري في اخبار سنة ٢١٥ هـ . / ٨٣٠ م . «انصرف ابو اسحاق بن الرشيد من مصر فلقي المأمون قبل دخول الموصل ، ولقيه مانويل وعباس ابنه برأس العين» . وكان هذا قبل دخول العرب ارض الروم . ويرى ماريوس كنار ان المقصود هروب مانويل من صفوف العرب الى الروم بعد ان صحب ابن الخليفة الى الحدود ٢١٥ هـ . / ٨٣٠ م . وهكذا تتفق المصادر العربية مع الرومية ، حيث اعتبرها كنار انها صحيحة من غير شك وليست تكرارا[3].

---

(١) الطبري ، الحدود البيزنطية ـ الاسلامية ج ٢ ، ص ٣٩٨ .

(٢) عثمان ، فتحي ، الحدود البيزنطية ـ الاسلامية ج ٢ ص ٣٩٨ .

(٣) فازيلييف ، العرب والروم ، ص ٣٥٨ .

رسول ملك الروم الى المعتصم بعد تخريب زبطرة :

على اثر ايقاع تيوفيل سنة ٢٢٣ هـ/ ٨٦٨ م . وخروج المعتصم في غارة انتقامية كبرى قاصدا عمورية حاول الامبراطور البيزنطي ان يصلح خطأه فوجه رسولا في أول ما نزل المعتصم على عمورية فأمر به المعتصم فأنزل على موضع الماء الذي كان الناس يستقون منه وكان بينه وبين عمورية ثلاثة اميال ـ ولم يأذن له بالمسير حتى فتح عمورية ـ فلما فتحها اذن له في الانصراف الى ملك الروم »[١] وقد ارسل ملك الروم الى المعتصم بعد انتصاره في عمورية واسره الآلاف » ان الملوك لم تزل يغزو بعضها بعضا ويعلو بعضها على بعض ، وربما اتيت من وزراء السوء ، وقد كان منا بزبطرة ما كان وتبينت وجه الخطر وقد كانت لي بالصاع اصوعا فيما فعلت بعمورية ، وانا اسألك بالطينة المباركة التي انت منها ان تنعم عليّ باطلاق بطارقتي فانهم مائة وخمسون بطريقا وانا افتدي كل واحد منهم بمائة من المسلمين ، وقد تهادت الملوك قبلنا ، وقد وجهت مع رسولي من الثياب الديباج المذهبة اربعين ثوبا طول كل ثوب منها اربعون ذراعا في عرض عشرين » . وذكر سائر ما اهداه وصفته وارسل بذلك بطريقا وخادما وجماعة معهما ، فلما وصلوا اخذ محمد بن عبد الملك الكتب وتوصل الى علم ما تضمنته وردها بخواتيمها وقال : امير المؤمنين مشغول عنها فكانت الهدية موقوفة ستة اشهر ، ثم اذن للرسول فدخل على الملك ، فلما رآه المعتصم قال : ارانا قد اضررنا بك لطول مقامك قال : كلا ، ان طول المقام اوجب لي الذمام ولم نزل نسمع من حكمائنا ان ابطاء الرسول يؤذن بالنجاح ، وما ضرني مقام قرب منك واشهدني نعم الله عندك . فأعجب المعتصم بما ترجم له من كلام الرسول وقبل هديته . فأقبل عليه محمد بن عبد الملك الزيات فقال له : كم خراج بلدكم ؟ قال : اقل من مائة الف دينار فقال محمد : هذا غلة بعض ضياع امير المؤمنين ، فقال الرسول : نحن احزم واحكم في باب الخراج منكم ، انتم تستخرجون من الناس مالا فتكسبون عداواتهم وتوغرون صدورهم ، ويسرق المال عمالكم ويعطون عليه الارزاق ، ثم يحمل من بلد الى بلد آخر فيذهب

---

(١) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ج ١٠ ص ٣٤٣ .

ويتخرم في الطريق وتحتاجون ان يسلم الى خزنه وحراس ثم نخرجه الى رجالكم . ونحن جعلنا خراجنا رجالا فكفينا هذه المؤنة ، وصيرنا هذا المقدار الذي ذكرته لك رسما للخراج لئلا يبطل اسمه ، فأمنا عداوة الناس وحفظنا المال وكفينا ما انتم فيه ، فسكت محمد بن عبد الملك الزيات ولم يحر جوابا ، وقد تصدى ابن الفراء[1] للرد على الرسول البيزنطي « وقد كان الجواب ممكنا والحجة متوجهة عليه والخطأ في القول لازما له ، وذلك ان رجال الحرب بمثابة الجوارح التي لا يجوز ان تمرن بعمل من الاعمال ولا مهنة من المهن غير اختطاف الارواح وصيد الرجال واعمال الحيلة في التسليم من اللقاء والكر وفي الاقامة والتحيز ، فلما صارت الروم اهل ثناية واصحاب فدان وزراعة ومهن وصناعة نشأ الابناء على ما عليه الاباء فركنوا الى الدعة وهابوا الحرب ونكصوا عن لقاء الاعداء وصيد الرجال ، فلما احست الروم بعدم الرغبة امتنعت عن الخطار بأنفسها . . وصارما بأيدي الروم من الضياع والاقطاع كأنما هو كالملك لهم يرثه خلف عن سلف وصار الملك اذا دعته ضرورة الى انتزاع بعض ما في ايديهم كانوا العدو الحاضر المشارك في الدار غير المأمون الضرر والغوائل المطالب بالدخول والطوائل . . . فكيف صار احكم من فعل المسلمين في الخراج ؟ وقد كنت اعرف عن الروم ان اخس الرتب والمنازل عندهم رتبة الكاتب وان الشاكري اجل رتبة منه ، حتى علمت الان قلة احتياجهم الى من يحفظ الارتفاع ويحمل اعباء الملك . . . ولعمري ان نوازع الروم واغراضهم واوطارهم اقل من نفقات المسلمين ودواعيهم ، ولو الزم ملك الروم من في بلاده من المؤمن والمغارم ما يلزم في بلاد المسلمين لما قامت لهم قائمة ولا احتاجوا الى احد امرين : اما احتياج اموال رعاياهم او التسلط على من يجاورهم . . . » .

وقد روى المقدسي[2] انه قد حسب خراج الروم للمعتصم فبلغ خمسمائة قنطار وكذا قنطار فاذا به اقل من ثلاثة الف دينار ، فكتب الى ملك الروم : « ان اخسّ ناحية عليها أخس عبيدي خراجها اكثر من خراج ارضك » .

---

(١) ابن الفراء ، رسل الملوك ص ٣٤ ـ ٣٨ .
عثمان ، فتحي ، الحدود الاسلامية ـ البيزنطية ج ٢ ص ٤٠١ ـ ٤٠٢ .
(٢) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ٦٤ .

ولقد اعتبر ماريوس كنار ان المصادر العربية اوردت ذكر خمسة وفود من البلاد البيزنطية الى البلاد الاسلامية امر مبالغ فيه ، فهو يعتبر وفادة اسقف تيوفيل سنة ٢١٦ هـ/ ٨٣١ م . وفادة صحيحة من غير شك . الا ان ما يذكره كتاب العيون من ارسال تيوفيل كتابا يطلب فيه الصلح ويبدأه بنفسه ويذكر نهوض المأمون للغزو اثر ذلك وغزوه لؤلؤة سنة ٢١٧ هـ/ ٨٣٢ م . ، والوفادة التي ذكرها الطبري ولم يحدد تاريخها بعد ان يروى نص الكتاب الذي طلب فيه الامبراطور الصلح ورد الخليفة عليه في استعلاء وكان الرسول وزير الامبراطور تيوفيل حيث يرى كنار : ان هذه الوفادة كانت بعد اخذ لؤلؤة بسبب ذكرها بين اخذ هذا الحصن وسير الخليفة الى سلغوس يقول كنار : « انا اميل شخصيا الى قبول تاريخ ٢١٧ هـ . وان روى اليعقوبي ان المأمون لم يقم بدمشق الا عدة ايام حيث يدل نص خطاب الامبراطور نفسه ونص الرد ان الكتابين كتبا في فترة بين حملتين ويرجح ان يكون ذلك في اول السنة المسيحية قبل حلول الصائفة وفي هذه الحالة يجب ادماج الوفادتين لسنة ٢١٧ هـ . في وفادة واحدة[1] .

وعن الوفادة الخامسة التي ذكرها كل من اليعقوبي والمسعودي عن ان وصول رسل الامبراطور الى المأمون بعد دخول المأمون ارض الروم مباشرة يعني في يولية سنة ٢١٨ هـ . يقول كنار : « لهذا اعتقد ان اليعقوبي والمسعودي كانا يعنيان نفس الحوادث ولا يعنيان الوفادة التي ذكرها الطبري في السنة السابقة وهذا عكس ما ذهب اليه فازيلييف ، ولو فرضنا ان الوفادة التي ذكرها الطبري عام ٢١٧ هـ . انما كانت آخر عام ٨٣٢ م . لكان بين الوفادتين فترة يمنع طولها من الخلط بينهما والحاصل ان الوفادات المذكورة بين ٨٣١ ـ ٨٣٣ خمسة فاذا حذفنا الوفادة التي ذكرت في أول ٨٣١ م . واعتبرنا الوفادتين عام ٢١٧ م . وفادة واحدة بقي عندنا ثلاث وفادات :

١ ـ وفادة آخر عام ٨٣١ م .

٢ ـ وفادة عام ٨٣٢ م .

---

(١)فازيلييف ، العرب والروم ، ص ٣٥٨ .

٣ ـ وفادة عام ٨٣٣ م[١] .

معاملة السفراء ومهماتهم بين الدولة البيزنطية والدولة الاسلامية :

لما كانت العلاقات السياسية مع العرب في الشرق والغرب امرا اساسيا بالنسبة لبيزنطية فقد كانت مراسم استقبال السفارات العربية التي كانت توفد الى القسطنطينية في فترات الصلح تجري على اسلوب دقيق محكم ، وكانت بيزنطية تستقبل السفراء وترحب بهم بكل مظاهر الاحتفال الباهرة في البلاط والمجاملات الديبلوماسية وعرض القوات العسكرية اظهارا للقوة ، وفي مراسم البلاط البيزنطي أوصافا للاستقبال البالغ الذي كان البيزنطيون يستقبلون به سفراء بغداد والقاهرة حيث كان « الاصدقاء » العرب يحتلون على المائدة الامبراطورية مقاعد أعلى من مقاعد « الاصدقاء » الفرنجيين ، وكان عرب المشرق يجلسون في امكنة اشرف من اماكن عرب المغرب[٢] .

أما سفراء الروم ، حينما كانوا يفدون على بغداد ـ كما حدث سنة ٩١٧ م . كان الخليفة يستقبلهم استقبالا رسميا في ابهة بالغة ، ويقيم عرضا عسكريا شاملا ، ففي سنتي ٩٤٧ م ـ ٩٤٨ م ظهر سفراء الامبراطور قسطنطين بورفيرو جينتوس في بلاط الخليفة الاندلسي عبد الرحمن الناصر واستقبلوا بترحيب باهر . وكان بين الهدايا التي قدمها السفراء البيزنطيون الى الخليفة باسم امبراطورهم مخطوط اغريقي جميل يحتوي على مؤلف طبي ونسخة لاتينية من تاريخ اوروسيوس Orosous . ولما لم يجد الخليفة من المسيحيين في اسبانيا من اليونانية فقد ظل المخطوط اليوناني في مكتبته دون ان يترجم[٣] . « وكان مخطوط صاحب القسطنطينية العظمى بن ليون في رق مصبوغ لونا سماويا بالخط الاغريقي ودخل الكتاب مدرجة مصبوغة[٤] .

ومن الأمور التي اضطلعت بها السفارات والتي تبادلتها الدولتان البيزنطية

---

(١) فازيلييف، العرب والروم ، ص ٣٥٩ .

(٢) بينز ، فورمان ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥ .

(٣) بينز ، فورمان ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦ .

(٤) نفس المرجع ، هامش ص ٣٦٥ .

والاسلامية حمل السلطات الحاكمة في الدولتين على اعادة النظر في بعض القرارات التي تفرض على اتباع دين من الأديان من رعاياهما اتخاذ سمة خاصة بهم ، حيث ان هذه المعاملة الدينية التي لجأت اليها الدولتان احيانا استهدفت كل دولة من وراء هذه القوانين الدينية التي فرضتها خدمة مصالحها السياسية والحصول على امتيازات ادبية . فقد عامل أولو الامر في الدولة الاسلامية رعاياهم من غير المسلمين على هدى تعاليم الدين الاسلامي التي تنص على ان لا اكراه في الدين ، وتجلت روح التسامح الديني في الدولة الاسلامية في المعاملة الحسنة التي تمتع بها المسيحيون بصفة خاصة وما وصل اليه كثير من مراتب عالية في الادارة الاسلامية . كذلك عاملت الدولة البيزنطية المسلمين الذين وفدوا اليها معاملة ممتازة تكشف عما تكنّه للدولة الاسلامية من احترام وتقدير[١] وتجلت اوضح مظاهر تبادل الطرفين الزيارات في السفارات التي كان يوفدها كل فريق لعقد هدنة او لصلح او لاجراء مفاوضات لاطلاق سراح الاسرى ، حيث كان يتولى مهمة الاشراف على هذه السفارات ، سواء الاسلامية أو البيزنطية ، كبار رجال الدولة ، محملين بالهدايا الثمينة والمجوهرات ومزينين بأجمل مظاهر الابهة .

وفي فترات السلام بين الدولتين المتجاورتين ظهرت اهمية العلاقات التجارية والثقافية والاقتصادية بينهما ، فقد تجول التجار البيزنطيون في كثير من المدن العربية ، والتجار المسلمون كانوا يفدون على بيزنطة لانجاز اعمالهم ، حيث اصبحت طرابزون في القرن العاشر اهم مركز للاتصالات التجارية بين بيزنطية وتجار المسلمين[٢] . حيث قال عنها المسعودي[٣] : « ولها اسواق في السنة يأتي اليها كثير من الامم للتجارة بين المسلمين والروم وغيرهم » .

أما العلاقات الاقتصادية فقد كانت غاية في الاهمية لبيزنطية ، ولم تكن اهميتها تقتصر على الناحية التجارية فحسب ، بل كانت تعزز مكانتها الدولية

---

(١) العدوى ، ابراهيم احمد . الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ١٦٣ .

(٢) بينز ، نورمان : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٣٧١ .

(٣) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٠ .

كذلك بالنسبة لغرب اوروبا ، اذ كان اكثر تجارة الشرق الاسلامي ينقل قبل فترة الحروب الصليبية عن طريق بيزنطية ، وكانت هذه تجني دخلا عظيما بفضل قيامها بدور الوسيط بين اوروبا والشرق[1] .

كما تميزت العلاقات الدينية بين الاسلام والامبراطورية البيزنطية بابرام الخليفة الظاهر سنة ١٠٢٧ م . اتفاقا مع الامبراطور قسطنطين الثامن اتفق على ان يدعى للخليفة الفاطمي في جميع مساجد الدولة البيزنطية واذن باعادة جامع القسطنطينية الذي كان قد هدم ردا على هدم كنيسة القيامة في بيت المقدس ، وعين له مؤذن ووافق الخليفة الظاهر بدوره على السماح ببناء الكنيسة في بيت المقدس[2] .

ورغم الحروب فقد كانت الاتصالات مستمرة بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية اذ كان الخلفاء يدركون تفوق البيزنطيين في زخرفة البناء ، فقد كانوا يلجأون الى الاباطرة في طلب المساعدة في المشاريع العمرانية ، ومن ذلك ما فعله الخليفة الوليد الاول (٨٦ هـ - ٩٦ هـ/ ٧٠٥ م - ٧١٥ م) عندما طلب من الامبراطور ان يرسل له بعض الصناع لتزيين جوامع دمشق والمدينة وبيت المقدس بالفسيفساء ، كما حدث خلال القرن العاشر الميلادي ان كتب الحكم المستنصر (٣٥٠ هـ - ٣٦٦ هـ/ ٩٦١ م - ٩٧٦ م) خليفة قرطبة الاموي الى امبراطور بيزنطية يرجوه ان يرسل له احد صناع الفسيفساء لتزيين مسجد قرطبة وقد اصطحب رسل الخليفة عند رجوعهم الى الاندلس خبيرا بأعمال الفسيفساء من القسطنطينية وعددا لا بأس به من مكعبات الفسيفساء التي ارسلها الامبراطور هدية منه ، كما ارسل الامبراطور قسطنطين بورفير وجينتوس في القرن العاشر مائة واربعين عمودا للخليفة الاندلسي عبد الرحمن الثالث الذي كان مشتغلا ببناء مدينة الزهراء محل اقامته المفضل لديه[3] .

ونتيجة للتبادل الثقافي بين الدولتين فقد اشتهر البطريق في ايام الخليفة

---

(١) بينز ، نورمان ، الامبراطورية البيزنطية ص ٣٧٢ .

(٢) بينز ، نورمان ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٣٧٣ .

(٣) بينز ، نورمان ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٣٧٩ - ٣٨٠ .

المنصور وامر بنقل اشياء كثيرة من الكتب القديمة ، وله نقل كثير جيد ، الا انه دون نقل حنين بن اسحاق ، ووجد من نقله كتب كثيرة في الطب (كتب ابقراط وجالينوس) كما اشتهر ابنه يحيى بن البطريق حيث كان في حملة الحسن بن سهل ، وكان لا يعرف العربية حق معرفتها ولا اليونانية وانما كان يعرف لغة الروم وكتابتها وهي الحروف المتصلة لا المنفصلة اليونانية القديمة[١] .

السفارات العلمية :

قامت سفارات علمية بين الدولتين الاسلامية والبيزنطية ، فقد حاول المأمون ان يستقدم الرياضي البيزنطي الشهير ليو ، الذي كان بارعا في الرياضيات . وكان احد تلاميذه قد وقع اسيرا لدى المسلمين فاحضر الى المأمون حيث ووجه بابرع علماء الهندسة فألقاهم الشاب ضعافا في تفهمهم للاستدلال الهندسي واحدث في البلاط وقعا حسنا باظهاره الطرائق الصحيحة . فلما سئل عن معلمه وهل لا يزال حيا اوضح لهم انه يعيش عيش الفاقه وانه ليس معروفا الا لدائرة صغيرة من الناس وان اسمه « ليو » . وارسل المأمون من فوره كتابا الى العالم يدعوه للحضور الى بغداد ووعد الطالب باطلاق اساره ان هو أوصل الرسالة ، فرأى الاسير ان يعرض دعوة الخليفة على موظف كبير في البلاط الامبراطوري الذي ابلغ بدوره الامر الى الامبراطور ، وكانت الرسالة سببا في تنبيه الامبراطور الى مواهب « ليو » واهميته العلمية فعينه معلما عاما في كنيسة الاربعين شهيدا (احدى كنائس القسطنطينية) ، حتى اذا ادرك المأمون احجام « ليو » عن الشخوص الى بغداد جعل يراسله مقدما اليه عددا من المسائل الهندسية التي كان يضيفها رغبة في اثارة الدهشة في النفوس ، مما زاد في رغبة الخليفة في اجتذابه الى بلاطه فتحول الى الامبراطور تيوفيل وطلب منه السماح لهذا العالم بالحضور الى بغداد فترة قصيرة ويعتبر هذا العمل وديا ، ولكن الامبراطور رفض ذلك لانه لم ير من الحكمة ان ينزل عن كنزه لسواه[٢] . وقد

---

(١) ابن ابي اصيبعة ، عيون الانباء في طبقات الاطباء ، ص ٢٨٢ .
(٢) اسماعيل ، عز الدين ، في الادب العباسي ص ١٧٠ .

عرض المأمون صلحا دائما في مقابل حضور « ليو » والفتى قطعة ذهبية[١] .

وامتاز عهد الواثق ببعثة علمية لدراسة موضع اصحاب الكهف وآثارهم ، فقد اوفد الواثق محمد بن موسى المنجم من سر من رأى (سامراء حاليا) الى بلاد الروم حتى اشرف على اصحاب الرقيم[٢] : وهو الموضع المعروف من بلاد الروم . قال محمد بن موسى : وصلنا الى بلد الروم فاذا هو جبل صغير قدر اسفله اقل من الف ذراع ، وله سرب من وجه الأرض فتدخل السرب فتمر في خسف من الارض مقدار ثلاثمائة خطوة فيخرجك الى رواق في الجبل على اساطين منقورة وفيه عدة ابيات منها : بيت مرتفع العتبة مقدار قامة عليها باب حجارة فيه الموتى ورجل موكل بهم يحفظهم معه خصيان ، واذا هو يحيدنا عن ان نراهم ونفتشهم ويزعم انه لا يأمن ان يصيب من التمس ذلك آفة في بدنه ، يريد التمويه ليدوم كسبه ، فقلت له : دعني ادخل اليهم وانت بريء ، فصعدت بمشقة عظيم غليظة مع غلام من غلماني فنظرت اليهم واذا هم في مسوح شعر تتفتت في اليد واذا اجسادهم مطلية بالصبر والمر والكافور ليحفظها واذا جلودهم لاصقة بعظامهم غير اني امررت يدي على صدر احدهم فوجدت خشونة شعره وقوة ثيابه ، ثم احضرنا المتوكل بهم طعاما وسألنا ان نأكل منه ، فلما ذقنا طعامه انكرنا انفسنا وتهوعنا وكأن الخبيث اراد قتلنا او قتل بعضنا ليصح له ما كان يموه به عند الملك انه فعل بنا هذا الفعل اصحاب الرقيم ، فقلنا له : انا ظننا انك ترينا احياء يشبهون الموتى وليس هؤلاء كذلك ، فتركناه وانصرفنا »[٣] .

سفارة المتوكل الى ملك الروم :

أوفد المتوكل نصر بن الازهر الشيعي الى ملك الروم سنة ٢٤٦ هـ/ ٨٦٠ م . يطلب الفداء وقد وصف كيفية استقباله في البلاط البيزنطي والهدايا

---

(١) بينز ، نورمان ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٣٨٠ .

(٢) كهف بين عمورية ونيقية ، يبعد عن طرسوس عشرة ايام او احد عشر يوما .
ياقوت . معجم البلدان ج ٣ ص ٦١ .

(٣) المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة طرح الاقاليم ص ١٥٢ .
ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٦١ .

التي كان يحملها والمفاوضات التي جرت قبل عملية الفداء وعدد اسرى المسلمين(١) ، وحين وصل السفير الاسلامي الى البلاط البيزنطي كان متشحاً بالملابس السوداء وعلى رأسه القلنسوة اللباس الرسمي للعباسيين ومتمنطقا سيفا وخنجرا . فأبى القائم بأمور الامبراطور (وزير الخارجية) وكان اذ ذاك بتروناس عم الامبراطور ، ان يسمح للسفير بالدخول قاعة الاستقبال على هذه الهيئة وابدى اعتراضه بصفة خاصة على الملابس السوداء وعلى السيف . . على ان النخوة أو الحمية دبت في نفس السفير الاسلامي وغضب وهم راجعا ، فاضطر رجال الدولة البيزنطية الى ملاطفته حتى عاد الى البلاط ودخل على الامبراطور حيث قدّم له الهدايا ويروى السفير ما حدث له وما رآه في البلاط البيزنطي قائلا : « وابوا ان يدخلوني بسيفي وسوادي فقلت انصرف ، فانصرفت ، فرددت من الطريق وحملت الهدايا التي معي فدخلت عليه (اي على الامبراطور) فاذا هو على سرير فوق سرير واذا البطارقة حوله قيام فسلمت ثم جلست على طرف السرير الكبير وقد هيء لي مجلسا ووضعت الهدايا بين يديه . وكان مع الامبراطور ثلاثة مترجمين كانوا ينقلون حديث السفير الذي تجلت كياسته ومهارته حين حذر المترجمين من الاطناب في نقل الكلام قائلا لهم : « لا تزيدوا على ما اقول شيئاً » وعندما تمت المفاوضات واتفق الطرفان على قواعد تبادل الاسرى اقسم كل منهما على الوفاء بتعهداته . فأقسم بتروناس نيابة عن الامبراطور ، وهنا ظهرت لياقة السفير الاسلامي حين التفت الى الامبراطور وقال : « ايها الملك ، قد حلف لي خالك فهذه اليمين لازمة لك » . فأجاب الامبراطور برأسه نعم وعلق السفير على ذلك بقوله : ولم اسمعه (اي الامبراطور) يتكلم بكلمة منذ دخلت بلاد الروم الى ان خرجت منها وانما يقول الترجمان وهو يسمع فيقول برأسه نعم او لا وليس يتكلم وخاله المدبر امره(٢) .

سفارة ملك الروم الى الخليفة المقتدر (سنة ٣٠٥ هـ/ ٩١٨ م :

ترك لنا المقتدر صورة زاهية لاستقبال السفراء الروم في بلاط الخلافة .

---

(١) راجع الفداء الخامس .

(٢) العدوى ، ابراهيم احمد . الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ١٦٢ - ١٦٣ .

فقد اورد ابن الجوزي[1] انه سنة ٣٠٥ هـ/ ٩١٨ م . قدم رسل ملك الروم الى مدينة السلام وهم غلام حدث السن ومعه شيخ وعشرون علجا فأقيت له الانزال الواسعة ثم احضروا بعد ايام دار السلطان وادخلوا بعد ايام الى دار الخليفة من باب العامة وقد هيىء لهم العسكر وصف بالاسلحة التامة ، وكانوا مائة وستين الفا بين فارس وراجل وكانوا من اعلى باب الشماسية الى الدار وبعدهم الغلمان الحجرية والخدم والخواص بالسمة الظاهرة والمناطق المحددة وكانوا سبعة آلاف خادم منهم اربعة آلاف بيض وثلاثة آلاف سود ، وكان الحجاب سبعمائة حاجب ، وفي دجلة الطيارات والزبازب[2] والسميريات بأفضل زينة ، وسار الرسول فمر على دار نصر القشوري الحاجب فرأى منظرا عظيما فظنه الخليفة فداخلته له هيبة حتى قيل له انه الحاجب وحمل الى دار الوزير فرأى اكثر مما رأى ولم يشك انه الخليفة فقيل له انه الوزير وزينت دار الخليفة ، فطيف بالرسول فيها فشاهد ما هاله وكانت الستور ثمانية وثلاثين الف ستر والديباج المذهب منها اثنا عشر الفا وخمسمائة وكانت البسط اثنين وعشر الفا وكان في الدار من الوحش قطعان تأنس بالناس وتأكل من ايديهم وكان هناك مائة سبع كل سبع بيد سبّاع ثم اخرج الى دار الشجرة وكانت شجرة في وسط بركة ماء صاف والشجرة ثمانية عشر غصنا لكل غصن منها شاخات كثيرة عليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة ومفضضة واكثر قضبان الشجرة فضة وبعضها مذهب وهي تتمايل ولها ورق مختلف الالوان وكل شيء من هذه الطيور يصفر .

ولما دخل الرسول الى دار الشجرة ورآها كثر تعجبه بها ، ثم ادخل الى الفردوس وكان فيه من الفرش والآلات ما لا يحصى وفي دهاليزه عشرة آلاف جواشن[3] مذهبة معلقة .

وكانوا قد ادخلوا الى الدار المعروفة بخان الخيل واكثرها أروقة بأساطين

---

(١) ابن الجوزي ، المنتظم ج ٦ ص ١٤٣ ـ ١٤٤ . الطبري صلة ص ٥٤ .

(٢) الزبازب : نوع من السفن . مسعود ، جبران . الرائد ص ٧٦٨ .

(٣) جواشن : درع او زرد يلبسه الصدر . مسعود ، جبران . الرائد ص ٥٣٤ .

رخام فيها من الجانب الايمن ٥٠٠ فرس عليها ٥٠٠ مركب ذهبا وفضة بغير اغشية ، ومن الجانب الايسر ٥٠٠ فرس عليها الجلال الديباج بالبراقع الطوال ، وكل فرس في يدي شاكري بالبزة الجميلة ثم ادخلوا من هذه الدار الى الممرات والدهاليز[١] . الى ان وصل الى المقتدر وهو جالس على سرير آبنوس قد فرش بالدبيقي المطرز وعن يمنة السرير تسعة عقود معلقة وعن يسرته تسعة أخرى من افخر الجواهر يعلو ضوؤها على ضوء النهار ، فلما وصل الرسولان الى الخليفة وقفا عنده على نحو مائة ذراع وعلي بن محمد بن الفرات قائم بين يديه والترجمان واقف يخاطب ابن الفرات وابن الفرات يخاطب الخليفة ثم اخرجا وطيف بهما في الدار حتى اخرجا الى دجلة وقد اقيمت الفيلة مزينة والزرافة والسباع والفهود[٢] .

وهكذا كان المسلمون والبيزنطيون على السواء يحرصون على ان يطلعوا السفراء على ابهة ملكهم وعظمته بوضع برنامج لزيارة السفير يشاهد فيه روائع المنشآت وتقديم الهدايا تكون صورة مشرقة للبلد الآخر . وقد خصصت دور الضيافة لاستقبال السفراء ، وهيىء التراجمة لمصاحبتهم ، فقد عهد عمر بن عبد العزيز الى عشرة من رجال المسلمين يعرفون اليونانية لمصاحبة سفارة بيزنطية من عشرة رجال وكلفهم ان يدوّنوا له ملاحظات الروم دون ان يطلعوهم على معرفتهم بلغتهم . ولما دخلت السفارة البيزنطية الجامع الاموي واخذت تتفرس في روائعه الفنية ، وقع رئيسها مغشيا عليه ، فسأله رفاقه عن سبب اغمائه بعد افاقته فقال : « انا معشر اهل رومية نتحدث ان بقاء العرب قليل ، فلما رأيت ما بنوا علمت ان لهم مدة سيبقونها فلذلك اصابني ما اصابني » . كما كان البيزنطيون يعرضون على سفراء المسلمين روائع عاصمتهم ومباهجها . وكان المسلمون والبيزنطيون يدققون في مراقبة السفراء خشية التجسس[٣] .

ولم يكن البيزنطيون مولعين بالرحلات كالمسلمين الذين تفوقوا في هذا

---

(١) الطبري . تاريخ الرسل والملوك ج ١١ ص ٣٣ ـ ٣٤ .

(٢) ابن الجوزي ، المنتظم ج ٦ ص ١٤٤ .

(٣) عثمان ، فتحي ، الحدود الاسلامية البيزنطية ج ٢ ص ٤٠٩ ـ ٤١٠ .

المجال ، اذ ليست هناك أوصاف لبغداد وانطاكية والقدس وقرطبة أو لعدد من الاماكن الاخرى الخاضعة للعرب كتبها رحالون بيزنطيون ، وأول رحالة عربي وصف القسطنطينية هو هرون بن يحيى الذي زارها ، اما في زمن الامبراطور باسيل الاول (٢٥٣ هـ - ٢٧٤ هـ / ٨٦٧ م - ٨٨٦ م) او في زمن الاسكندر (٢٩٩ هـ - ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م - ٩١٣ م) ولم يكن تاجرا ولا سائحا وانما كان اسيرا في ايدي البيزنطيين في مكان ما في آسيا الصغرى واتى عن طريق البحر الى العاصمة فوجد ما رآه بعينيه من ابواب المدينة والقصر الامبراطوري . . . واستلفت نظره الارغن الذي سمعه هناك ووصف كذلك موكب الامبراطور المهيب الى الكنيسة الكبرى ايا صوفيا وتمثال جستينان وقناطر المياه وبعض الاديرة القائمة حول القسطنطينية وغيرها من الاشياء ، وفي طريقه من القسطنطينية الى روما زار مدينة اخرى هامة هي « سالونيك » واعطى صورة شيقة لطوبوغرافية القسطنطينية ولبعض احتفالات البلاط والاحتفالات الدينية[١] .

الرسل والسفراء :

تعريف الرسول :

الرسول او السفير هو شخص كلف المثول امام دولة ارسل اليها ليبقى لديها، ويتكلم باسم من اوفده ويقضي امورا مضى لانجازها وتذليل المصاعب دونها[٢] .

أهمية الرسل :

كان اردشير بن بابك يقول :

كم من دم قد سفكه الرسول بغير محله ، وكم من جيوش قد قتلت وعساكر قد هزمت ، وحرمة قد انتهكت ، ومال قد انتهب ، وعهد قد نقض بخيانة الرسول وأكاذيبه .

---

(١) بينز ، نورمان ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٣٧٧ - ٣٧٨ .

(٢) المنجد ، صلاح الدين، رسل الملوك ص ٦٠ .

وكان يقول ايضا :

على الملك اذا وجه رسولا الى ملك آخر ، ان يردفه بآخر ، وان وجه رسولين ، اتبعهما باثنين ، وان امكنه ان لا يجمع بين رسولين في طريق ولا ملاقاة ، ولا يتعارفان فيتواطآن . ثم عليه ان اتاه رسوله بكتاب او رسالة من ملك في خير أو شر ، ان يحدث في ذلك خيرا او شرا حتى يكتب اليه مع رسول يحكي له ما في كتابه الأول حرفا حرفا ، ومعنى معنى ، فان الرسول ربما حرّف بعد ما نقل ، فافتعل الكتب وحرّض الرسل على المرسل اليه ، فأغراه وكذب عليه[1] .

الشروط الواجب توافرها في الرسول :

أورد ابن الفراء[2] ميزات الرسالات المكتوبة والسفارات الشخصية ، فالكتاب مقصور على معناه الذي يتضمنه لا يتعداه الى غيره ، والرسول يتصرف في مذاهب الحجة ، فالكتاب يد والرسول لسان . والواجب على الملوك ان يقرنوا كتبهم بالرسل ، لما في ذلك من كمال الفائدة ووجوب الحجة . وينهي الرسول عن تعدي ما رسل له ، ويؤثر ان يخطىء برأي المرسل على ان يصيب برأيه ، وينهي كذلك عن الوهم بالرسالة والتحريف لها . ثم يعدد الشرائط التي ينبغي توافرها في الرسول فيقول :

فأما من الناحية النفسية فينبغي للرسول ان يغفل اذا سفر بين ملكين وكان احدهما يبرق ويتوعد ويستعدي ، فهو بهذا التغاضي يصغر اليه نفسه « والرسول محتاج من القدام والجرأة الى مثل ما يحتاج اليه من الوقار والركانة . . . ويحتاج ايضا من الحلم وكظم الغيظ ما يحتاج اليه من الصبر على طول المكث ، وتراخي المقام ، فان الرسول ربما وجّه الى طائش » .

ولقد اورد الجاحظ[3] ان من الحق على الملك ان يكون رسوله صحيح

---

(1) الجاحظ . التاج ص ١٢٢ ـ ١٢٤ . البيهقي . المحاسن والمساوىء ج ١ ص ١٥٦ ـ ١٦٩ . ابن الازرق . بدائع السلك ص ٥٩٦ ـ ٥٩٧ . ابن الفراء . رسل الملوك ص ٢٥ .

(2) ابن الفراء . رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة ص ٧ ـ ١٢ .

(3) الجاحظ . التاج ص ١٢٣ .

الفطرة والمزاج ، ذا بيان وعبارة بصيرا بمخارج الكلام واجوبته ، مؤدبا لالفاظ الملك ومعانيها ، صدوق اللهجة ، لا يميل الى طمع ، ولا طبع ، حافظا لما جمل ، وعلى الملك ان يمتحن رسوله محنة طويلة ، قبل ان يجعله رسولا .

وقد يدفع الرسول من ملكه الى رسالة غليظة يؤمر بأن يؤديها على وجهها ، ويحظر عليه ان يغيرها . فيحتال حتى يؤدي الرسالة ويسلم من معرة الملك المرسل اليه ويعود بحمد منه ، كما يجب ان يكون الرسول تاما ذا بهاء ورواء ، لان ما فيه من فضل عائد على من أرسله[1] .

وينتقل ابن الفراء الى بيان الصفات الجسمية للسفير فيقول : « ويستحب في الرسول تمام القد ، وعبالة الجسم حتى لا يكون قميئا ولا ضئيلا ، وان كان المرء بأصغريه ، ومخبوءا تحت لسانه ، لكن الصورة تسبق اللسان والجثمان يستر الجنان ، ويجب ان يكون السفير جهر الصوت حسن الرداء والمنظر ، مقبول الشمائل ، حسن البيان ، جيد العبارة ، حافظا لما يتبلغ ليؤديه على وجهه ، ولا يمنعه الصدق عن سلطانه رغبة يقدمها فيمن يتوجه اليه ، ولا مهانة يستشعرها في نفسه وتقديم النصيحة لرئيسه . وكما « يجب ان يجمل ما امكن الوافد فالعامة ترمق الزي اكثر مما ترمق الكفاية والسواد . ويجب ان تزاح علله ، فيما يحتاج اليه حتى لا تشره نفسه الى ما يبذل له ويدفع اليه ، فان الطمع يقطع الحجة . والرسول امين لا امين عليه ويجب ان يرتهن بالاحسان اليه والافضال عليه »[2]

كانت ملوك الفرس اذا وفد عليها رسول اشترطت عليه اربع خصال وسامحته بما بعدهن مما عساه ان توقعه فيه الاقدار وهي اولا : الا يكذب الملك ، فان الكذوب لا رأي له . وثانياً الا يجيبه عما لا يسأله عنه ، فإنه دليل على الموق (الحمق في غباوة) وسوء الأدب وثالثا ان لا يمدحه في وجهه بما يخالف افعاله فان فيه استخفافا به ونصرة على لزوم ما لا يجمل من الافعال ، ورابعا ان لا يحرشه على الرعية ، فإنها الى حسن الرأي فيها أحوج[3] .

---

(١) ابن الفراء ، رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة ص ١٧ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢٠ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٤٥ .

ولقد وجه المعتصم رسولا الى ملك الروم ، فلما رأى هيبة الرسول وكثرة تجمله ، وما صحبه من الرحل والآلات التي لا يكون مثلها الا لعظماء الملوك قال له : كم ترزق من مال سلطانك ؟ قال : ارتزق انا وولدي في كل شهر عشرين الف درهم او نحوها . قال : فتحت فتحا كان السلطان به معينا . قال الرسول : لا . قال الملك : نازلت رجلا مشهورا بالفروسية من اعداء سلطانك فقتلته ؟ قال الرسول : لا . قال : فاستنفذت خليفة او ولي عهد وقد لجج في مضيق او معركة لم يظن الخلاص منها ، فوجد باقدامك وقد احجم نظراؤك فرحة ؟ قال الرسول : لا . قال الملك : فبأي شيء تستحق هذا الرزق الكبير؟ قال الرسول للملك : ان للخلفاء خدما ينصرفون في انحاء البلاد لكل طائفة مذهب يحتملون عليه لا يكلفون سواه ولا يراد منهم غيره . فمنهم من يعد للفتوح ، فهو يلبس السلاح ويقود الجيوش ، ومنهم من يعد للقضاء ، فهو يلبس المبردات والدنيات (الدنية = القلنسوة) منهم مثلي من يصلح ان توفده الخلفاء للملوك ويحتمل رسائلهم الى امثالك من اهل الجلالة والقدر والسناء والذكر ـ فلولا ثقتهم بي ـ وعلمهم بمناصحتي وصدقي فيما اورد صادرا وواردا لما رأوني اهلا للتوجه فيما توجهت فيه اليك ، وقيل لمثلي هذا الرزق مع هذا التحمل ومع هذا المحل من الخلافة ، وهي من الجلالة ما هي عندها سكت ملك الروم سكوت معترف ، ولم يقل في ذلك شيئا[1] .

امتحان الرسل بعد عودتهم :

كانت ملوك الاعاجم ، اذا آثرت ان تختار من رعيتها من تجعله رسولا الى بعض خاصة الملك ، ثم تقدم عينا عليه يحضر رسالته ، ويكتب كلامه ، فاذا رجع الرسول بالرسالة جاء العينّ بما كتب من الفاظه واجوبته فقابل بها الملك الفاظ الرسول ، فان اتفقت معانيها ، عرف الملك صحة عقله ، وصدق لهجته ، ثم جعله الملك رسولا الى عدوه وجعل عليه عينا يحفظ الفاظه ويكتبها ثم يرفعها الى الملك ، فان اتفق كلام الرسول وكلام عين الملك ، وعلم ان رسولهُ قد صدقه من عدوه ، ولم يتزيد عليه للعداوة بينهما ، جعله رسولا الى

(١) ابن الفراء . رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة ص ٣٥ .

ملوك الامم ، ووثق به ، ثم كان بعد ذلك يتم خبره مقام الحجة[1] .

أما ابن الفراء[2] فعرض صورا للمحاورات والمداورات بين السفراء والملوك الذين يسفرون عندهم ، فنهى عن مفاتحة رسل الملك بحضرة الملأ من الناس ، وان لا يمكنوا من اداء الرسالة وتحمل الجواب . وروى عن الواقدي « ومات رسول ملك الروم بدمشق زمن معاوية ، فوجد في جيبه لوح ذهب مكتوب فيه حفرا : « اذا ذهب الوفاء نزل البلاء ، واذا مات الاعتصام عاش الانتقام ، واذا ظهرت الخيانات قلت البركات » . ونهى الملوك ـ كما نهى السفراء من قبل ـ عن العجل من السفه في المكاتبة ، وساق ذلك مثلا ان هشام بن عبد الملك كتب الى ملك الروم « من هشام بن عبد الملك امير المؤمنين الى الطاغية ملك الروم » فلما وصل اليه الكتاب وقرأ العنوان قال : ما ظننت ان الملوك العقلاء يسبون ، وما كان يؤمنه ان اكتب اليه من ملك الروم الى الملك المذموم ، الأحول المشؤوم ! واعاد الكتاب ولم يفضه ، ولا قرأه . ثم سار فشعث بلاد الاسلام ، كما اورد سوء خطاب نقفور للرشيد وما جره عليه من غزو هرقلة .

حصانة الرسول :

ضمن الفقه الاسلامي حصانات كافية للرسل والسفراء ، من ذلك ما جاء في شرح السير الكبير[3] : ولو ان رسول ملك اهل الحرب جاء الى عسكر المسلمين ، فهو آمن حتى يبلغ رسالته بمنزلة مستأمن من جاء للتجارة . فان اراد الرجوع ، فخاف الامير الرسول والمستأمن ، وقد رأيا للمسلمين عوده ، فيدلان علنها العدو ، فلا بأس ان يحبسها عنده حتى يأمن من ذلك . . . الا انه لا ينبغي ان يقيدهما ولا ان يغلهما ، وان سار الامام راجعا الى دار الاسلام ، فله ان يذهب بهما معه حتى يبلغ الموصل الذي يأمن فيه مما يخاف عنهما ، ثم يخلي سبيلهما . . . فان وصل الى مأمنه من دار الاسلام ، ثم امرهما بالانصراف

(١) الجاحظ ، التاج ص ١٢٣ .

(٢) ابن الفراء . رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة ص ٣٠ .

(٣) الشيباني ، محمد بن الحسن السير الكبير . شرح السرخي ، ص ٩٣ ـ ٩٤ .

فسألاه ان يعطيهما مالا يتجهزان به الى بلادهما ، فانه ينبغي له ان يعطيهما من النفقة ما يبلغهما الى المكان الذي ابيا ان يصحباه منه ، لانه جاء بهما مكرهين من ذلك الموضع . فعليه ان يردهما اليه ، وكان ذلك منه نظرا للمسلمين ، فتكون تلك المؤونة من بيت مال المسلمين بمنزلة نائبة تنوب المسلمين ، وفيما يجاوز ذلك قد اتيا اختيارا منهما فلا يعطيهما للرجوع نفقة . . . فان اراد تخلية سبيلهما بعدما امن وكان هو في موضع يخاف فيه ، فينبغي له ان ينظر لهما ولا يخلي سبيلهما الا في موضع لا يخاف عليهما فيه . وان كانا لا يأمنان من اللصوص ، فينبغي له ان يرسل معهما قوما يبلغونهما مأمنهما » .

الخاتمة

ان العلاقة بين العرب والروم ـ فيما عدا الحرب ـ لم تتميز قط بصفة الخصومة ـ والدليل على ذلك رسالة المأمون الشخصية ، التي ارسلها الى تيوفيل ، يطلب منه السماح للعالم الرياضي « ليو » بزيارة الخليفة ولو لوقت محدود ويبذل لذلك المال . ودليل آخر بعثة محمد بن موسى العلمية التي ارسلها الواثق الى بلاد الروم لزيارة الكهف الذي كان يحفظ جثث الشباب السبعة والذين استشهدوا أيام ديوقليسيان ، وذلك بتفويض من الامبراطور ميشال الثالث . والبعثة التي قامت بأمر الواثق تطوف في آسية الصغرى برئاسة المترجم سلام لاكتشاف السور الذي اقامه الاسكندر ، كما ان بيزنطية كانت تحتفظ في مراسمها بمكان الصدارة دوما لسفراء العرب ومنها ان يجلس الاصدقاء العرب في مرتبة اعلى من الاصدقاء الافرنج .

ولقد أسس المأمون بيت الحكمة في بغداد ، وجعل لها مكتبة ضخمة وميزانية كبيرة واقام فيها طائفة كبيرة من المترجمين اجرى عليهم الارزاق من بيت المال ، ومن اوائل هؤلاء المترجمين عن اليونانية كان ابو يحيى البطريق الذي ترجم للخليفة المنصور اهم مؤلفات جالينوس وابقراط وبطليموس . ويوحنا بن ماسويه وهو سرياني ترجم كثيرا من كتب الطب . اما اهم هؤلاء فهو الطبيب حنين بن اسحاق الذي بلغ من تقدير الخليفة المأمون لجهوده انه كان يعطيه من

الذهب زنة ما كان ينقله من الكتب[1] .

ولقد تبادل الطرفان التأثير الحضاري على نطاق واسع ، فهناك شبه في اكثر من جهة بين المأمون وبين تيوفيل الذي ظل معاصرا له اربع سنوات . فالاثنان اهتما بالمسائل الدينية واثارا المعارضة بالتجديد في الدين (واهتم المأمون خاصة بفرض مذهب ديني رسمي للدولة كالاباطرة . وكلاهما اهتم بالشعر ، وازدهرت في عهده العلوم والبناء .

وهكذا ، فالاتصالات الدبلوماسية ، سواء كانت مكتوبة او شخصية ادت نتيجتها المرجوة بعقد هدن ووقف القتال لفترات محددة والبدء بعمليات تبادل للأسرى ، كما كان لها اثرها الحضاري بين الدولتين .

(١) عاشور ، سعيد ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ٣٠٤ .

الباب الثالث

معاملة الاسرى

الفصل الأول : معاملة الاسرى عبر التاريخ .
الفصل الثاني : الاسر في الاسلام .
الفصل الثالث : معاملة اسرى المسلمين لدى البيزنطيين
الفصل الرابع : معاملة الاسرى البيزنطيين لدى المسلمين

ملحق في هذا الباب
الأديرة داخل الدولة الاسلامية

معاملة الأسرى عبر التاريخ

تعتبر مشكلة اسرى الحرب من المشاكل المزمنة عبر التاريخ ، فلا تكاد تنتهي حرب من الحروب قديما او حديثا سواء اكانت بين دول او جماعات او قبائل او افراد الا وتترك وراءها هذه المشكلة كأثر من آثارها ، وكثيرا ما تتقدم على ما عداها من مشكلات اخرى لكونها نتيجة حتمية من نتائج الحروب .

فقبل ظهور المسيحية ، وفي ايامها الاولى اصبح فداء الاسرى وتبادلهم في الحروب مألوفا باستثناء الحروب التي كانت تجري بين القبائل البربرية ، فليس سوى القتل او الاسترقاق في أحسن الاحوال ، وغدت غايات الحروب واسبابها هي التي تتحكم في طريقة معاملة الاسرى[1] .

ولم يكن العرب يميلون قبل الاسلام الى تعذيب الاسرى أو التمثيل بالقتلى ، لكنهم قد يقسمون في ساعة غضب او هياج متأثرين بمصابهم على الأخذ بالثأر او الانتقام من القاتل ثم يبرون بقسمهم عند ظفرهم به .

وكانت تجارة الرقيق نشطة حيث كانت دولتا الفرس والروم تبيعان ما يفيض عن حاجتهما من الأسرى . وتهبان بعض الاسرى للشيوخ والرؤساء العرب استرضاء لهم ، وكسبا لودهم ، فيبيع هؤلاء الشيوخ عبيدهم تخلصا من

(١) فرحان ، عبد الكريم . اسرى الحرب عبر التاريخ ، ص ٧ .

نفقاتهم ، حيث كثر عدد الارقاء من عبيد واماء في الجزيرة العربية وبخاصة في مكة في العصر الجاهلي وألفوا طبقة اجتماعية لها اهميتها ومعالمها المميزة ، أوكل اليها الكثير من الأعمال التي تحتاج الى خبرة وفن[1] .

وكان الاسرى من غنائم المعارك ، يجري عليهم ما يجري على الاموال والانعام ، ولم يكن نظام الاسرى عند العرب يخضع لقانون معين او يسير على قاعدة معروفة وانما كان السبي يفرق على المحاربين كبقية الغنائم ، فاذا حصل احدهم على أسير فهو بالخيار في امره :

١ ـ اما ان يمسكه ليقوم على خدمته وخدمة انعامه ، ونقل الماء وسقي النخيل من الابار المختلفة ، واما ان يجز ناصيته ، ويفك اسره اذا كان للأسير عنده يد ، أو رغب في العفو عنه لسبب من الاسباب .

والاسير كانت تجز ناصيته ثم يطلق سراحه ، ولا تجز ناصية الملوك لما في ذلك من المهانة ، وهكذا فعل « عامر بن الطفيل » بأسيره الذي اطلقه بعد جز ناصيته ، في نذر كان على أمه . واحيانا كان العربي يطلق الاسير تكرما منه ، او زهدا فيه لفقره او لتقديم المعروف او المروءة ، لانه غني ليس بحاجة الى خدمة الأسير ، أو فداء يأخذه منه . وكان بعض الناس يحتفظ بأسيره ، ليفدي نفسه منه بالمال أو يحضر بعض عشيرته لأخذه ودفع فدائه[2] .

وكانت الحروب والغزوات بين القبائل العربية تؤلف موردا هاما من موارد الرقيق بالاضافة الى الرقيق الاجنبي الذي يجلب من خارج الجزيرة العربية كالهند وفارس وبلاد الروم ومصر والحبشة ومهما تكن اسباب تلك الحروب والغزوات في الجاهلية فانها كانت تهدف الى الحصول على الغنائم والأسرى ولا مفر من قتل الاسير ، ان كانت الحروب أخذا بالثأر ، اما في غارات غير الثأر فيطلق سراح الاسير بعد دفع الفدية ، وكان المغيرون يسعون لإسر نساء العدو طمعا في الفدية أو ليصبحن اماء عند عدم افتدائهن[3] .

---

(١) الاسد ، ناصر الدين، القيان والغناء في العصر الجاهلي ، ص ٣٥ .

(٢) عون ، عبد الرؤوف ، الفن الحربي في صدر الاسلام ، ص ٥٧ ـ ٥٨ .

(٣) الاسد ، ناصر الدين ، القيان والغناء في العصر الجاهلي ، ص ٣٥ ـ ٣٦ .

وجاء الاسلام ولم يتناول القرآن شؤون الاسرى في أول الأمر ، ثم كانت غزوة بدر الكبرى سنة ٢ هـ . وكثر اسرى المشركين فاستشار النبي (ص) اصحابه في امرهم . فأشار عليه ابو بكر ان يأخذ منهم فدية من المال تكون قوة للمسلمين ويتركهم عسى الله ان يهديهم . واشار عمر بن الخطاب بقتلهم لانهم أئمة الكفر وصناديده . ولكن النبي (ص) مال الى ما رآه ابو بكر من الرحمة بهم وافتدائهم بالمال وحكم فيهم بذلك[١] ، واستمرت قريش تفتدي اسراها حيث تراوح الفداء للرجل الواحد بين الالف والأربعة آلاف باستثناء الفقراء الذين منّ عليهم رسول الله (ص) بحريتهم ، وكان النظام المتبع في الحروب الاسلامية ان تجمع يدا الاسير الى عنقه ثم يوضع مقيدا في سجنه ريثما يبت امره قائد الجيش وأول ما عرف المسلمون اخذ الاسرى في معركة بدر كان للرسول (ص) في معاملتهم طرق عدة[٢] .

١ ـ ان يطلق سراح الاسير في فداء يدفعه ، او يدفعه عنه أهله وكانت تلك الطريقة معروفة في الجاهلية ، واقرها في القرآن ، وكان ممن اطلقه الرسول يوم بدر بعد دفع الفداء عنه عمه « العباس بن عبد المطلب » ومعه بعض ابناء اخوته ويومها جعل فداء الاسير الذي يحسن الكتابة ان يعلمها عشرة من غلمان الانصار ، فان تعلموها خلّي سبيله فكان ممن تعلم الكتابة يومها الصحابي « زيد بن ثابت » .

٢ ـ ان يطلق سراح الاسير بلا فداء ان كان فقيرا .

٣ ـ ان يسترق الاسير اذا لم يجد فداء او كان غير أهل للمن عليه فيقوم بخدمة سيده ورعي ماشيته ورعاية النخيل وتعهدها ، وله حق بيعه اذا اقتضت الحال .

٤ ـ كان الرسول اذا وجد في الاسرى من آذى المسلمين وألب الناس عليهم بادر الى قتله اتقاء لشره ، فقد قتل من اسرى « بدر » عقبة بن ابي معيط

---

(١) البوطي ، محمد سعيد رمضان ، فقه السيرة ، ص ٢١٧ .

(٢) عون ، عبد الرؤوف ، الفن الحربي في صدر الاسلام ، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥ .

والنضر بن الحارث الذي رثته اخته « قتيله » بأبيات شعرية رقّ لها قلب الرسول وتمنى ان لو كان سمعها قبل قتله .

٥ ـ مبادلة الاسرى ببعضهم ، حيث اطلق سراح اسيرين من قريش مقابل اطلاق اسيرين من المسلمين هما : سعد بن ابي وقاص وعقبة بن غزوان كما اطلق الرسول (ص) سراح عمر بن ابي سفيان من اسرى بدر ليفك به سعد بن النعمان كما فدى رجلين من المسلمين برجل من عقيل وجارية حسناء .

ثم نزلت الآية الكريمة على الرسول في اتخاذ الاسرى الرغبة في فدائهم :
﴿ **ما كان لنبي ان يكون له اسرى حتى يُثخن في الارض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما اخذتم عذاب عظيم . فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله ان الله غفور رحيم**[1] .

ثم بيّن لرسوله حكم الاسرى صراحة في قوله تعالى حاثا على القتال :
﴿ **فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب اوزارها**[2] ﴾ والآية هذه تأمر المسلمين اذا ما لقوا اعداءهم في الحرب ان يقاتلوهم ويقتلوهم حتى اذا اثخنوا فيهم أي خضدوا شوكتهم وانهكوهم أسروا من بقي منهم حيا حتى تضع الحرب اوزارها حيث يطلق سراحهم منا بدون فداء او بفداء . فكان الرسول بعد هذا يمن على الاسير او يفديه بالمال ، او يفادي اسيرا بأسير ، ولقد كان للرسول سبي كثير من « بني المصطلق » قسمه بين اصحابه وسبي آخر من بني « قريظة » باعه واشترى بثمنه خيلا وسلاحا للمسلمين ، وظل الرسول كذلك يقتل من الاسرى من يخشى اذاه ومن يؤلب على المسلمين ، فقد قتل « أبا عزه » الذي منّ عليه في بدر ثم عاد لقتاله في « أحد » فوقع في الاسر وقتل كذلك يوم « حنين » الشيخ الهرم الضرير « دريد بن الصمّة » لانه كان يدبر لقومه ويساعد على المسلمين برأيه[3] .

---

(١) سورة الانفال ، آية ٦٧ ـ ٦٩ .
(٢) سورة محمد ، آية ٤ .
(٣) عون ، عبد الرؤوف ، الفن الحربي في صدر الاسلام ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧ .

فلما كانت حروب الردة بعد وفاة الرسول ، وحروب الفتوح في العراق والشام أنف المسلمون ان يسترقوا اخوانهم العرب واكتفوا بالمفاداة او القتل (وقد حدد عمر بن الخطاب الفداء العربي ستة ابعرة الا « حنيفه وكنده » فانه خفف عنهم لقتل رجالهم في حروب الردة . وكان عمر معروفا بالاجتهاد في تشريعاته فيقضي بما تقضي به الحال وهو الذي وضع ذلك المبدأ القائل : « كل اسير كان في ايدي المشركين من المسلمين ، ففكاكه من بيت مال المسلمين » ولقد ساعده على امضاء احكامه ان سبايا الفرس والروم تدفقت على بلاد المسلمين ، وكثر الرقيق بكثرة الحروب في أيدي العرب ، حتى كان الواحد منهم يملك المئات والآلاف من العبيد فـ « عبد الله بن الزبير » كان له من الرقيق الف عبد والف امه وكان لغيره من الصحابة عبيد يخدمونه في القتال ويحضرون معه المعارك مقاتلين[١] .

وبما ان عادة قتل الاسرى وتعذيبهم كانت سائدة لدى الرومان والفرس واليهود والعرب في جاهليتهم ، كانت معاتبة الرسول في الآية ٦٧ من سورة الانفال بسبب تسامحه مع الاسرى في الوقت الذي كان يجب عليه ان يتبع في معاملتهم ما جرت عليه العادة القائمة في ذلك الوقت لايجاد جو من الخوف والرهبة في نفوس الاعداء .

ولقد نزلت عدة آيات قرآنية بعدها تقرر التشريع الدائم لمصير الاسرى في قوله تعالى : ﴿ وخذوهم واحصروهم ﴾[٢] و﴿ **يا ايها النبي قل لمن في ايديكم من الاسرى ان يعلم الله في قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما اخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم** ﴾[٣] . وقوله تعالى : ﴿ **فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم** ﴾[٤] وقوله

(١) عون ، عبد الرؤوف الفن الحربي في صدر الاسلام ص ٢٩٧ .
(٢) سورة التوبة آية ٥ .
(٣) سورة الانفال آية ٦٩ .
(٤) سورة التوبة آية ٥ .

تعالى : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما واسيرا ﴾[1] .

والتشريع الاسلامي من خلال الآيات القرآنية المذكورة يسمح بالاسر « خذوهم واحصروهم » ويطلب معاملة الاسرى معاملة حسنة « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما واسيرا » وقول الرسول في اسرى بدر : « استوصوا بالاسارى خيرا »[2] .

---

(١) سورة الانسان آية ٨ .

(٢) ابن كثير البداية والنهاية ج ٣ ص ٣٠٦ .

الأسر في الاسلام

مشروعية الاسر :

يقول الجصاص[1] : توافرت الاخبار عن النبي (ص) في قتله الاسير ، منها قتله عقبة بن ابي معيط ، النضر بن الحارث الذي قتل بعد الاسر يوم بدر . وقتل النبي يوم احد ابا عزة ، الشاعر ، بعد اسره . وقتل بني قريظة بعد نزولهم على حكم سعد بن ابي معاذ ، فحكم فيهم بالقتل وسبي الذرية . وامر بقتل هلال بن خطل ، وعبد الله بن ابي سرح عندما فتح مكة ، وقال : اقتلوهم ان وجدتموهم متعلقين باستار الكعبة الى ان قال : فهذه آثار متوافرة عن النبي (ص) وعن الصحابة في قتل الاسير وفي استبقائه .

غير ان هذا الرأي كان محل معارضة لكثير من فقهاء المسلمين الذين يقولون بمشروعية الاسر وعدم جواز قتل الاسير ويستندون في ذلك الى الأدلة التالية :

ـ ان آية ﴿ **فاما منا بعد وأما فداء** ﴾[2] هي التي بينت كيفية البت بوضع الاسرى . وآية ﴿ **فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم** ﴾[3] اي اقتلوا المشركين

(١) الجصاص ، احكام القرآن ج ٣ ص ٣٩١ .

(٢) سورة محمد آية ٤ .

(٣) سورة التوبة ، آية ٥ .

الذين يحاربونكم . وآية محمد في مطلعها الاذن بالقتال قبل الاسر وفي نهايتها حكم الاسرى ، وهو لا يعدو احد امرين لا ثالث لهما : المن او الفداء : ﴿ **فاذا لقيتم الذين كفروا ، فضرب الرقاب ، حتى اذا اثخنتموهم ، فشدوا الوثاق ، فامامنا بعد واما فداء حتى تضع الحرب اوزارها** ﴾ .

ـ ان حوادث قتل بعض الاسرى عند بدء ظهور الدعوة الاسلامية ، تعتبر حوادث فردية لظروف معينة ، وليست تشريعا دائما . فالاسرى الذين تم قتلهم ، كان بسبب غلوّهم في معاداة الدعوة الاسلامية ، وتنكيلهم بالمسلمين ، وتأليبهم القبائل وتحريضهم لشن العدوان عليهم والتمادي في ايذاء الرسول والاسترسال في هجائه .[1] ونزلت آية في سورة الاحزاب[2] تنطوي على ممارسة قتل واسترقاق الاسرى من بني قريظة اليهود الذين كان بينهم وبين المسلمين عهد فنقضوه ، وظاهروا الكفار عليهم حينما غزا اعداؤهم المدينة . وهذه الغزوة عرفت بالخندق او الاحزاب : ﴿ **وانزل الذين ظاهروهم من اهل الكتاب من صياصيهم ، وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا** ﴾ .

وقد اوصى الله للنبي بعد ان رد الله الكفار لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال كما جاء في الآية (٢٥) من سورة الاحزاب ان يحاصر بني قريظة فحاصرهم وضيق عليهم الحصار حتى نزلوا على حكمه فصاروا في حكم الاسرى . وكان الحكم عليهم قتل من لم يسلم من مقاتلتهم واسترقاق نسائهم ومن لم يبلغ الحلم من ذراريهم .

وهكذا يكون حكم الاسرى في الاسلام في اربع قواعد : اثنين منهم تشريع قرآني وهما اطلاق السراح بفداء او بدون فداء أي بالمن واثنتين منهم ممارسة نبوية ذكرها القرآن بإسلوب يفيد اجازتها وهي القتل والاسترقاق .

فالنبي (ص) اطلق بدون فداء ، فثمامه بن اثال سيد اليمامة الذي وقع اسيرا في يد سرية من المسلمين جعله رسول الله في خيمة ، وكان يرسل اليه

---

(١) الماوردي ، الاحكام السلطانية ص ١٢٧ .

(٢) سورة الاحزاب آية ٢٦ .

الطعام ويعرض عليه الاسلام فيأبى ويعرض استعداده لدفع الفدية ، ثم امر النبي (ص) باطلاق سراحه بدون فداء وحينئذ اسلم وقال للنبي : لقد كنت ابغض الناس اليّ ، وكان دينك ابغض الاديان اليّ ، وكانت بلدك أبغض البلاد اليّ ، فصار وجهك احب الوجوه اليّ ، وصار دينك احب الاديان اليّ ، وصار بلدك أحب البلاد اليّ[1] .

أما يهود بني قريظة الذين كانوا من الخارجين على الدولة الاسلامية والذين بعهدهم الذي عقدوه مع الرسول (ص) بعد الهجرة[2] كانت قراهم ومساكنهم بجوار المدينة تشكل جزءا من الدولة الاسلامية وتحكمهم الآية : « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادا ان يقتلوا او يصلبوا او تقطع ايديهم وارجلهم من خلاف او ينفوا من الارض » فاذا نقضوا العهد فانهم يعتبرون خونة ، ومن ثم يسري عليهم الحكم الذي اصدره التحكم الذي ارتضوه .

أما الخلفاء الراشدين فقد مارسوا ما كانوا يرونه في مصلحة المسلمين وظروفهم وظروف الاحداث والاشخاص ولم يمارسوا القتل في نساء واطفال الكفار الذين وقعوا في ايديهم اسرى ، بل كانوا يسترقونهم او يمنون عليهم او يفادونهم .

قالا الامام جعفر الصادق (ع) : اذا اخذت اسيرا وعجز عن المشي ولم يكن معك محمل فارسله ولا تقتله ، وجاؤ وا الى امير المؤمنين علي (ع) بأسير يوم صفين فبايعه فقال امير المؤمنين : لا اقتلك اني اخاف الله رب العالمين ، وخلّي سبيله واغطاه سلبه الذي جاء به ، وقال الامام الصادق (ع) : بطعام الاسير حق على من اسره ، وان كان يراد من الغد قتله ، فانه ينبغي ان يطعم ويسقى ويرفق به كافرا كان أو غيره[3] .

ويتبين لنا من هذا العرض الموجز ان قتل الاسرى في الفقه الاسلامي

---

(١) دروزة ، محمد عزة ، الجهاد في سبيل الله (في القرآن والحديث) ص ١٣١ ـ ١٣٢ .

(٢) البوطي ، محمد سعيد رمضان فقه السيرة ص ٢٠١ وما يليها .

(٣) مغنيه ، محمد جواد ، فقه الامام جعفر الصادق ج ٢ ص ٢٧٣ .

اقرب الى التحريم منه الى الاباحة ، وهذه الأخيرة تكون في حالات فردية خاصة ترتبط بالسلوك السابق للأسير في ممارسته لاعمال القتال ضد المسلمين ومدى مطابقة هذا السلوك لقواعد وعادات الحرب المتعارف عليها ، وهي نفس القاعدة التي يجري عليها العمل في القانون الدولي المعاصر .

أما معاملة النساء والاطفال الذين يقعون في ايدي المسلمين فهي متنوعة منهم من استرق ومنهم من منّ عليه ومنهم مَن فودي به ﴿ **يا ايها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى ان يعلم الله في قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم ، وان يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم** ﴾[1] . وبذلك يكون أولى بمعاملة النساء والاطفال بمثل ذلك ، وأسرى الحرب وسباياها هم المصدر الاكبر للرق في القديم وفي صدر الاسلام الاول فالاسارى الاناث والولدان لا يجوز قتلهم بحال ، لأن النبي (ص) نهى عن قتلهم ، اما الرجال فاذا اسروا بعد ان وضعت الحرب اوزارها فلا يجوز قتلهم ، ويتحير الامام او نائبه بين اطلاق سبيلهم بدون عوض ، وبين ان يفدوا انفسهم بمال ، واذا اسروا والحرب قائمة ، فان اسلموا حرم قتلهم لقول الرسول الاعظم (ص) امرت ان اقاتل الناس ، حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فاذا قالوا عصمت دماؤهم وقال الامام علي (ع) : الاسير اذا أسلم حقن دمه . . . وان ابى الاسرى عن الاسلام ، ولم يقبلوه فقد وجب قتلهم[2] .

وهكذا نرى ان نظرة الاسلام هي عدم جواز قتل الاسير الذي يقع تحت يد المسلمين وهي صورة واضحة لما يتحلى به الدين من مثل ومبادىء انسانية مستمدة من القرآن الكريم والاحاديث النبوية وفقه الأئمة .

معاملة الأسرى في الاسلام :

عند ظهور الاسلام كانت معاملة الاسرى لا تخرج عن أمرين اثنين : اما

---

(١) سورة الانفال ، آية ٧٠ ـ ٧١ .

(٢) مغنية ، محمد جواد ، فقه الامام جعفر الصادق ج ٢ ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤ .

القتل أو الاستعباد وبما ان الشريعة الاسلامية اعتبرت القتل غير جائز فقد ظل استعباد الاسرى وتحويلهم الى رقيق هو الأمر السائد في ظل الشريعة الاسلامية .

والرق مبدأ من اقدم العصور عرفه المصريون وكانوا يعدون الرقيق آلة عاملة ومظهرا من مظاهر الابهة والزينة ، كذلك عند اليونان والرومان، حتى ان الفيلسوف ارسطو ايد صحته واثبت مشروعيته وعرّف الرقيق بأنه « آلة ذات روح »[1] .

وكان للرقيق في الجاهلية اسواق يباع فيها ، ولما جاء الاسلام لم يتمكن من الغاء هذا النظام دفعة واحدة لسببين :

أولا : عدم اصطدام الدعوة الاسلامية مع مألوف الناس في ذلك الوقت .

ثانيا : عدم اضطراب الاوضاع الاقتصادية اذا ما تحرر آلاف الرقيق دفعة واحدة حيث لن يجدوا العمل ولا المأوى ولا الغذاء في تلك البيئة الصحراوية الأمر الذي كان بلا شك سيترتب عليه نتائج سيئة لا على الدعوة الاسلامية فحسب بل على المجتمع ذاته[2] .

والرقيق في الاصل ناشىء من أسرى الحرب وتقضي تعاليم الاسلام أو المباديء التي استنبطها الأئمة من أصول الأحكام ان سبب الرق : وقوع الكافر اسيرا في يد المسلمين عند الحرب . فاذا حارب المسلمون الكافرين فمن اسر من المحاربين منهم جاز للامام ان يسترقه ، كما يجوز له ان يسترق اهل البلد الذي فتح في الحرب ، رجالا كانوا ام نساء . وهذا الكفر والوقوع في الأسر هما سببا الرق ، ولا يشترط لأجل بقاء الرق بقاء سببه فلو وقع كافر في الاسر فاسترق ثم اسلم لا يزول عنه الرق ، وهذا الرقيق يعد مالا ، شأنه في ذلك شأن المتاع ، فمن استرق في الحرب عد جزءا من الغنيمة كالآلات الحربية ، وكالنقود

(١) عون ، عبد الرؤوف ، الفن الحربي في صدر الاسلام ، ص ٢٩٦ .
(٢) الفار ، عبد الواحد محمد يوسف ، اسرى الحرب ، ص ١٩٢ .

والخيل ، والاسرى تنقل الى دار الاسلام ثم يأخذ خمسها الامام يصرفه في الصالح العام من اعطاء للفقراء والمساكين والاربعة اخماس الباقية توزع على من اشترك في القتال ، والرقيق يفعل به ذلك[1] .

ولقد ساعد الاسلام على تحرير الرق وذلك بالثواب عليه واظهار فضله في قوله تعالى ﴿ **فك رقبة أو اطعام في يوم ذي مسبغة يتيما ذا مقربة** ﴾[2] .

وعندما بدأت الدولة الاسلامية في الاحتكاك بالبلدان المجاورة لها ، المجوس في الشرق والروم في الغرب ، فقد كان نظام الرق نظاما متبعا في حرب هؤلاء المجوس والروم ، وقد اسروا بعض المسلمين واسترقوهم وباعوهم ، وقد اضطر قواد المسلمين ازاء ذلك الى معاملتهم بالمثل حيث لم يكن من المعقول ان يعامل اسرى الحرب من المسلمين كأرقاء بينما لا يعامل المسلمون اسراهم من الكفار بمثل ذلك . وقد شجع قواد المسلمين على استرقاق اسراهم من الممالك المجاورة وجود قاعدة المعاملة بالمثل في قوله تعالى: ﴿**فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم**﴾ اي ان من يعتدى على الحرية الانسانية ويسترق الانسان المسلم الاسير فانه يجب معاملته بالمثل فيسترق الاسرى منه[3] .

واذا كانت الحروب في صدر الاسلام تكاد تكون دائمة والنصر حليف المسلمين فيها ، والبلاد المفتوحة والأمم المغلوبة تكاد لا تعد ، حيث كان الرقيق يتكاثر ويوزع حتى انه دخل في بيت كل سهم ، ولم يقتصر دخوله على بيوت المحاربين ، بل اصبح في متناول الناس جميعا ، وكان له سوق يشتري منه من يشاء ويستخدمه كما يشاء[4] .

واذا كان الرق عند المسلمين نتيجة للحروب المشروعة التي كان يعلنها المسلمون ضد من رفضوا الدعوة الاسلامية ، فالعبد عند فقهاء الاسلام هو شخص اخذ اسيرا في الحرب ، أو حمل عنوة من بلاد الاعداء ، شرط ان يكون

---

(١) امين ، احمد ، ضحى الاسلام ـ جزء اول ، ص ٧٩ .

(٢) سورة البدر ، آيات من ١٣ ـ ١٥ .

(٣) الفار ، عبد الواحد محمد يوسف ، اسرى الحرب ، ص ١٩٣ .

(٤) امين ، احمد ، ضحى الاسلام ج ١ ، ص ٨٠ .

عند اخذه كافرا او الذي يولد من امة مملوكة ويكون ابوه عبدا أو غير مالك للأمة أو الشخص الذي يؤخذ شراء[1] .

وإذا كان النبي (ص) لم يلغ الرق ، فانه قد امر بما يضمن للارقاء حسن المعاملة واذا كان المسلمون يخالفون عن امره ، فالنبي بريء من ذلك . ولو ان المسلمين اطاعوا ما امرهم به نبيهم في معاملتهم لما ملكت ايمانهم ، لكان حال الرقيق عند المسلمين احسن منه عند غيرهم[2] .

ولقد عامل الاسلام الرقيق باللطف والعدالة وكثيرا ما كان الرسول (ص) يعمل على الاقلال منه بالعفو عن الأسارى وقبول فدائهم ، فبعد انتصاره على « بني المصطلق » وتوزيع السبي بين الجند تزوج بنت زعيمهم السيدة « جويره بنت الحارث » ليبادر الصحابة الى اطلاق اهلها الذين اصبحوا اصهار رسولهم وتم اعتاق مئة بيت من قبيلتها ، وعندما جاءه وفد « هوازن » يطلبون سباياهم بعد توزيعها ويتركون له اموالهم اوصى لهم سرا ان يستشفعوا به لدى المسلمين عقب انصرافه من الصلاة ، فلما كلّموه اطلق لهم اسراهم ووعد المتمسك بحقه من الجند ان يدفع له ست نياق لقاء اسيره الذي يطلقه[3] .

ولقد اوصى الرسول بحسن معاملة الاسرى قائلا : « الاسرى اخوة لكم واعوان ،وهم في ايديكم بنعمة الله ،واذ هم تحت رحمتكم فاطعموهم كما تطعمون والبسوهم كما تلبسون ، وآووهم كما تأوون ولا تكلفوهم عملا فوق طاقتهم ، بل ساعدوهم على اتمام أعمالهم . . .[4] ، كما اوصى النبي ايضا بألا يكلف المسلمون الاسرى فوق طاقتهم من الاعمال وان يساعدوهم اذا كلفوهم وامرهم ان يطعموهم مما يطعمون ويكسوهم مما يلبسون وشجع العبيد على حضور مجالس العلم والتزود من المعرفة وكان اصحابه ينفذون تعليماته بكل دقة وكانوا

(١) متز ، آدم ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ج ١ ص ٣١٤ ـ ٣١٥ .
(٢) نفس المرجع ، ص ٣١٧ .
(٣) الماوردي ، الاحكام السلطانية ص ١٢٩ ـ ١٣٢ .
(٤) بوازار ، مارسيل ، انسانية الاسلام ، ص ٢٨٥ .

يؤثرون الاسير على انفسهم بجيد الطعام لدرجة كانت تجعله يشعر بالخجل ، وكان الاسرى ينالون قسطهم وافيا من الطعام والمعاملة الحسنة[1] .

ولما كان القرآن لا يلحظ استرقاق اسرى الحرب ، فان هذا التدبير لم يكن اكثر من امكان عقاب على أساس المعاملة بالمثل ، فما ان تنتهي الحرب حتى يتوجب تحرير الاسرى شرط ان يعاد الاسرى المسلمون الى بلادهم[2] .

وفي الوقت الذي كان الروم يجعلون للسيد حق اهلاك عبده ومنعه من التعليم نرى عمر بن الخطاب « يقول في جواز امان العبد المسلم اذا امّن الاعداء . وعبد المسلمين من المسلمين ، وذمته من ذمتهم يجوز امانه »[3] .

ولقد حرص الاسلام على تحرير الارقاء وفك الرقاب وجعل عتق العبد احد ابواب ثمانية من مصارف الزكاة ، فالعبد يساعد في سداد اقساطه لسيده ليصير بعد ادائها حرا ، وجعل للعبد الحق في ان يشتري نفسه من سيده بمال يتفقان على قدره ومواعيد دفعه ، وفتح للأمة سبيل الحرية اذا اولدها سيدها ، وجعل عتق الرقبة كفارة عن كثير من المخالفات[4] ، ﴿ **ومن يقتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى اهله الا ان يصدقوا فان كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية سلمه الى اهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليما حكيما** ﴾[5] .

« والتشريع الاسلامي يطلب ان يعامل العدو بعدل »[6] واحترام[7] ومروءة ورحمة[8] و « من قتل نفسا بغير نفس او فساد في الارض فكأنما قتل

---

(1) الخضري ، تاريخ الدولة العباسية ، ص ٢١٢ .
(2) بوازار ، مارسيل ، انسانية الاسلام ، ص ٢٨٨ .
(3) عون ، عبد الرؤوف ، الفن الحربي في صدر الاسلام ، ص ٣٠١ .
(4) نفس المرجع ، ص ٣٠١ .
(5) سورة النساء ، آية ٩٢ .
(6) سورة المائدة ، آية ٢ .
(7) سورة الانعام ، آية ١٠٩ .
(8) سورة البقرة ، آية ١٩٥ .

الناس جميعا ، ومن احياها فكأنما احيا الناس جميعا »[١] .

وهكذا كانت تختلف معاملة الاسلام للأسرى عن معاملة الروم لهم ، فالروم كانوا يستفيدون من جهل عبيدهم بينما اعتنى المسلمون بتعليم عبيدهم وإمائهم حتى لمع نجم الكثير منهم في ميدان العلوم والفنون . ومن اشهر الأرقاء المسلمين العلامة « ياقوت الحموي » صاحب معجم البلدان الذي كان اسيرا ببلاد الروم وحمل الى بغداد مع غيره من الاسرى ، فبيع فيها ، واشتراه تاجر اسمه عسكر الحموي ، فنسب اليه وقيل له ياقوت الحموي[٢] .

كما كان بين الاماء المثقفات من اجادت الموسيقى والأدب ودرست علوم الشرع المختلفة حتى زاحمت الحرائر في قصور الخلفاء وخاصة في الدولة العباسية التي كان معظم خلفائها من ابناء الجواري المملوكات .

هذه هي باختصار معاملة الاسلام للأسرى بعد استرقاقهم وهو ما نصت عليه الشريعة الاسلامية الا ان ذلك لا يمنعنا من ذكر بعض المعلومات القاسية التي قام بها بعض القادة المسلمين للأسرى كخالد بن الوليد الذي اقسم يوما لئن نصره الله على اعدائه ليجرين النهر بدمائهم » . وكالحجاج بن يوسف الذي كان اسرافه ظاهرا في قتل اسرى « دير الجماجم » التي انتصر فيها على الثائر « محمد بن الاشعث » حتى لامه الخليفة عبد الملك بقوله : « اما بعد فقد بلغ امير المؤمنين سرفك في الدماء وتبذيرك في الاموال ولا تحتمل هاتين الخصلتين لأحد من الناس »[٣] .

ثم ان آخر خلفاء بني امية (مروان بن محمد) عرف عنه في الناس انه كان يقتل اسراه جميعا الا العبيد فكان الكثير منهم يدعون انهم عبيد ليخلصوا من ظلمه[٤] . ولئن خرج بعض الخلفاء في صدر الاسلام عن القواعد التي جرى العمل بها فان المسلمين كغيرهم من الشعوب فيهم الظالم وفيهم العادل

---

(١) سورة المائدة ، آية ٣١ .

(٢) ياقوت . معجم البلدان ج ٢ ص ٦ .

(٣) المسعودي ، مروج الذهب ج ٣ ص ١٤١ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ج ٥ ص ١٤٥ .

وان كانت نسبة الظالمين في الحكم والفاتكين لم تبلغ نسبة ما وصل اليه المسرفون في الدماء من الرومان او المغول او الاتراك او البيزنطيين .

ونهاية القول ان الاسلام ، كان يرعى حق الاسير ، فلا يلقيه في المعتقلات حتى يموت جوعا ، ولا يكلفه بأعمال شاقة كما يعامل به الاسرى في عصر المدنية والعلم ، وكان في فجره يفك الرقيق بينما العصر الحاضر يسترق الاحرار سواء كانوا افرادا ام جماعات .

اختلاف الرأي في مقاتلة المشركين ومعاملة الشيوخ والرهبان[1] :

يجوز للمسلم ان يقتل من ظفر به من مقاتلة المشركين محاربا وغير محارب واختلف في قتل شيوخهم ورهبانهم من سكان الصوامع والديارات . فمن منع من قتلهم قال انهم موادعون ومن قال بقتلهم وان لم يقاتلوا ، قال : لأنهم ربما اشاروا برأي يكون فيه انكاء للمسلمين . وقد قتل دريد بن الصمة في حرب هوازن ـ وهو يوم حنين ـ وقد جاوز المائة سنة ورسول الله (ص) يراه فلم ينكر قتله وكان يقول حين قتل :

أمرتهم امري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الا ضحى الغد
فلما عصوني كنت منهم وقد أرى غوايتهم لا أنني غير مهتدي

ولا يجوز قتل النساء والولدان في حرب ولا غيرها ما لم يقاتلوا ، فقد نهى رسول الله (ص) عن قتلهم كما نهى عن قتل العسفاء[2] والوصفاء[3] فان قاتل النساء والولدان قوتلوا مقبلين ولم يقتلوا مدبرين واذا تترسوا في الحرب بنسائهم واطفالهم عمد قتلهم وتوقي قتل النساء والاطفال (فان لم يوصل الى قتلهم الا بقتل النساء والاطفال) جاز ولو تترسوا بأسرى المسلمين ولم يوصل الى قتلهم الا بقتل الاسارى لم يجز قتلهم . فان افضى الكف عنهم الى الاحاطة بالمسلمين توصلوا الى الخلاص منهم كيف امكنهم ويحرزوا ان يعمدوا قتل مسلم ويجوز

(١) النويري نهاية الارب ، م ٦ ص ١٥٦ ـ ١٥٧ .
(٢) العسفاء : المستخدمون .
(٣) الوصفاء : المماليك .

عقر خيلهم من تحتهم اذا قاتلوا عليها ومنع بعض الفقهاء من عقرها . وليس لأحد من المسلمين ان يعقر فرس نفسه لأن الخيل من القوة التي امر الله تعالى باعدادها في جهاد عدوه . قال الله تعالى : ﴿ **واعدوا لهم ما استطعتم من قوة من رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم** ﴾ .

معاملة اسرى المسلمين لدى البيزنطيين

يرتبط بقصة الغارات البرية والبحرية على الاراضي الاسلامية والبيزنطية ، تلك الغارات التي اتسمت بطابع التخريب والمفاجأة والقبض على كثير من رعايا الطرفين المتحاربين وجندهما ، وتطلب ذلك وضع نظام خاص يتعلق بمعاملة الاسرى ووسائل اطلاق سراحهم .

معسكرات الاعتقال :

كان الاسير يرسل الى داخل البلد الذي اسره ، حيث اعدت اماكن خاصة أو ثكنات لايواء الاسرى . وكانت معسكرات الاعتقال تنقسم الى قسمين : احدهما خاص بكبار رجال الجيش والآخر بعامة الجنود . ولقد رسم المقدسي (احد الرحالة المسلمين الواسع الخبرة والاطلاع) صورة عن حياة الاسرى المسلمين داخل الدولة البيزنطية قائلا[1] « ان مسلمة بن عبد الملك لما غزا بلد الروم ، شرط على كلب الروم بناء دار بازاء قصره في الميدان ينزلها الوجوه والاشراف اذا اسروا ليكونوا تحت كنفه وتعاهده . فأجابه الى ذلك ، وبنى دار البلاط . والبلاط خلف الميدان ، يضع به الديباج الملكي ، ولا يسكن دار البلاط الا وجيه من اجراء وتعاهد وتنزه . أما سائر الاسرى من عامة

---

(١) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ١٤٧ - ١٤٨ .

المسلمين ، فكانوا يستعبدون ويستعملون في الصنائع . فالحازم الذي اذا سئل عن صنعته لم يقر بها .

والغاية الاساسية من استجواب الاسير عن صنعته التي يجيدها تأتي قبل توزيع الأسرى على المصانع للعمل بها وللاستفادة من عملهم الى جانب دار البلاط التي امر ببنائها مسلمة عند غزوه لبلاد الروم ، لكي تكون لكبار اسرى المسلمين من وجوه واشراف ، وللذين يراد تلطيف مصيرهم ، سواء أكانوا قد مروا بسجن النومارة ، الذي يجمع بين الرعب ، الى الظلام . او سواء للذين يراد معاملتهم معاملة حسنة ، خاصة الشخصيات والمميزة بشكل ملحوظ من بين أسرى المسلمين . الى جانب ذلك كان في بيزنطة سجن للمسلمين وسجن لأهل طرسوس (Tarsa) الذين كانوا وحدهم يملأون سجنا بكامله ، وثالث للشعب والأخير خاص بسجناء رئيس الحرس . والسجون الخاصة بالتراقيين (من تراقيا) وبالاوبسبكيون (Opsikion) وهي الاقل قسوة لانه لا سلاسل هناك . وبالمقابل البوكيلير (Les Bucellaires) والنومارة (Namara)(١) .

وعند اسر المسلمين ، كان يؤتى بهم الى المدينة ويدخلون من باب الذهب ، حيث هناك قبة قنطرة ، وكان في وسط سوق المدينة صنمان ، واحد يشير كأنه يقول بيده هاته والآخر يشير بيده كأنه يقول : اصبر ساعة . وهما طلسمان ، فيؤتى بالاسارى ويوقفون بين هذين الصنمين ينتظر بهم الى الفرج ، ويذهب رسول الملك . ذلك فان رجع الرسول وهم وقوف ، ذهب بهم الى الحبس ، وان وافاهم الرسول ، وقد جوز بهم الصنمين قتلوا ولم يبق منهم على احد(٢) .

ولقد اعتمد البيزنطيون طريقا طويلا لتسيير الاسرى المسلمين ، الذين يريدون مبادلتهم على ضفاف نهر اللامس في كيليكيا (Cilicie) والمراد من ذلك الارهاب والاذلال ، باجبارهم على المسير اطول مسافة ممكنة ، عشرين ميلا ،

---

(١) Mi Quel, André. La Géographie Humaine P. 475.

(٢) ابن رسته ، الاعلاق النفسية ، ص ٢٢٦ .

حتى الممر الخامس حيث الاسلام من هناك ، تتعرض القسطنطينية لاقتراب قواد المسلمين ، يزيد بن معاوية ، مسلمة بن عبد الملك ، وهارون الرشيد (خليفة المستقبل)[1] .

ولقد قدّم لنا (André Miquel)[2] صورة واضحة عن حياة الاسرى المسلمين قائلا : « بدون شك فان الاسر يجر معه آلاما نعرفها ، ونجد لدى مؤلفينا الصدى المتواضع لنغمات الشاعر السجين ابي فراس الحمداني - هؤلاء الاسرى - في بيزنطة . ولكن ايضا في اطرابزون - في بيثينا واماكن اخرى - ليسوا دائما بوضع جيد ، فاننا نجدهم في المناجم ومساقين بالقوة في الجيش ، وعبيد في المحترفات ، ووجودهم ينتهي احيانا بشكل مأساوي ، تحت الفأس أو الحجارة ، أو ايضا في اتون متقد ، غير انه بشكل عام يجب الاعتراف بأن الاسر ليس كما نتصوره دائما ينتهي بنتائج مأساوية ، فبالاضافة الى التسامح النسبي في العبادة او في الحاجات بعدم تقديم لحم الخنزير ، فاننا نجد السجناء يولمون على حساب الدولة ، يحصلون على ثياب شرفية ، ويمارسون فيما بينهم التجارة ، ويوفر لهم المقابلات او المراسلات ، فالبريد الامبراطوري هو الذي يحمله اليهم الى القسطنطينية الانطباع العام ، هو انه ، بالنسبة للذين يعرفون حرفة حياة بيزنطة تبدو بالنهاية متساهلة ، وفي كل الحالات، الى حد انه في بعض المناسبات النادرة ، كانت تفضل على اسلام خيب امالهم مما جعلهم لا يعودون اليه .
Assez, en tout cas, pour qu'en certaines circonstances exceptionnelles, on le preférе à un islam qui decoit. Ceux - Là memes pour lesquels il avait nom retour.

فالدولة البيزنطية رعت مبادىء التعاليم الاسلامية في معاملتها للأسرى المسلمين فلم تكره احدا على القيام بأي عمل يخالف السنن الاسلامية .

ولعل هذه المعاملة التي حظي بها الأسرى المسلمون تعود الى ما تمتعت به الدولة الاسلامية من مهابة وجلال والى حسن معاملتها للأسرى البيزنطيين .

---

(١) Mi Quel André. La Géographie Humaine P. 416.

(٢) Mi Quel, Andre. La Geographie Humaine P 472.

فمن ذلك ان الدولة البيزنطية سمحت للأسرى المسلمين بأن يزاولوا نوعا من التجارة الداخلية درت عليهم بعض الأرباح[١] .

معاملة الأسرى داخل السجن البيزنطي :

مارس بعض الأسرى الالعاب المرحة واتخذوا منها وسيلة للترفيه عن انفسهم وتفاؤلا باقتراب تحسن مصيرهم ، ففي بيزنطة عند اقامة الموكب الامبراطوري في سانت ـ صوفي (Sainte- Sophie) يأتي بعد العاهل ، ثلاثة احصنة بأثواب رمادية ، وغير مركوبة ، مسرجة بالبروكار واسرجتها مذهبة . الكل منثور باللؤلؤ والياقوت ، ويصار الى ادخالهم في الكنيسة . ثم يؤخذ لجام ، فاذا امسك به احد الاحصنة بفمه ، فهذا يعني انتصار بيزنطة على الاسلام ، واذا لم يمسك احدها باللجام واستدارت الى الخلف فيقال عندها انها من اصل حصان يخص جوليان المرتد (Julient l'Apostait)[٢] .

أما المقدسي[٣] ، فقد ذكر انه كان بين قصر الملك ودار البلاط ميدان في وسطه دكة لها درج يجتمع فيه الاسرى للعب وينقسمون الى قسمين : احدهما يمثل حزب الملك (الرزق) والثاني يمثل حزب الوزير (الخضر) ، ثم يرسلون خيولا تجري حول الدكة التي تتوسط الميدان . فان سبقت خيل الملك صاحوا منادين ان الغلبة للمسلمين ، وهنا يقبل البيزنطيون المشاهدون للمبارات على الأسرى المسلمين ويتلطفون معهم ويغدقون عليهم لان الغلبة كانت لهم .

وكان الامبراطور البيزنطي يكلف الحرس الشخصي له مسؤولية تنفيذ الاعدام بالأسرى المسلمين عندما تدعو الحاجة لذلك[٤] .

الترفيه عن الاسرى في عيد الميلاد :

وفي يوم الميلاد يؤمر . . . فيؤتى بأسارى المسلمين فاقعدوا على تلك

---

(١) المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ١٤٨ .

(٢) Mi Quel, André, La Geographie Humaine. P 477.

(٣) المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ١٤٨ .

(٤) Mi Quel, AndfeLa Géographie Humaine P. 441.

الموائد (في القصر) وحمل اليه (الى الملك) عند قعوده في الصدر موائد من ذهب . . . فتوضع بين يديه ولا يؤكل عليها ، وانما تترك مادام الملك على مائدته ، فاذا قام رفعت ثم يؤتى بالمسلمين على تلك الموائد من الحار والبارد امر عظيم ، ثم ينادي منادى الملك فيقول : « وحياة رأس الملك ما في هذه الاطعمة شيء من لحم الخنزير » وينقل اليهم تلك الاطعمة في صحاف الذهب والفضة والقوم كلهم جلوس على الموائد ويدخل عليه عشرون رجلا بأيديهم الحلمباقات يضربون فيها ما داموا يأكلون ويطعمون على هذه الصفة اثني عشر يوما ، فاذا كان آخر هذه الايام يعطى كل اسير من المسلمين دينارين أو ثلاثة دراهم . . . ثم يقوم الملك ويخرج من باب البيدرون[١] . ثم يأمر الملك بادخال اسارى المسلمين الكنيسة فينظرون الى تلك الزينة والملك فيصيحون : « أطال الله بقاء الملك سنين كثيرة « ثلاث مرات » ثم يؤمر ، فيخلع عليهم »[٢] .

ولقد امضى السجناء المسلمين وقتهم في الطاعة والصلاة[٣] ، حيث بدت المساجد الخاصة بالسجناء المسلمين ، في الواقع المسجد الذي يجعل التقليد منه ، احدى مواد المعاهدة المقبولة من قبل بيزنطية بعد حملة مسلمة (Muslma)[٤] .

الضغط على الأسرى المسلمين لاعتناق المسيحية :

كان الروم ، يعرضون على الأسرى المسلمين ، ترك دينهم واعتناق النصرانية ، تمشيا مع الطابع الديني المقدس للحروب بين المسلمين والروم . فقد روى الطبري[٥] : ان تدورة ، صاحبة الروم ام ميخائيل ، وجهت رجلا يقال له جورجس بن فرناقس ، يطلب الفداء لمن في ارض الروم من المسلمين ، وكان المسلمون ، قد قاربوا عشرين الفا . فوجّه المتوكل رجلا من الشيعة ، يقال له

---

(١) ابن رسته ، الاعلاق النفيسة ، ص ١٢٢ ـ ١٢٣ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٢٥ .

(٣) MiQuel, André, La **Géographie Humaine** P. 462.

(٤) نفس المرجع ، ص ٤٦٢ .

(٥) الطبري . تاريخ الرسل ج ٩ . ص ٢٢ .
ابن الاثير . الكامل ج ٧ ص ٧٦ ـ ٧٧ .

نصرين الأزهر بن فرج ، ليعرف صحة من في ايدي الروم ، من اسارى المسلمين ، ليأمر بمفاداتهم . فذكر ان تدورة امرت بعد خروج نصر بعرض اسراها واعراض التنصر عليهم . فمن تنصر منهم كان اسوة بمن تنصر من قبل ، ومن ابى عليها قتلته . فذكر انها قتلت من الأسرى المسلمين اثنا عشر الفا . ويقال ان قنفلة الخصي كان يقتلهم من غير امرها ، ولقد تنصر بعض المسلمين ، وبقي منهم الذين تمّ فداؤهم وعددهم قريب من الـ ٩٠٠ رجالا ونساء .

ولقد ذكر الاصفهاني[١] قصة مماثلة لاجبار المسلمين على الدخول في الدين المسيحي ، حيث قال : حدثني عبد الله بن عبد العزيز قال اخبرني بن ابي العلاء ، اظنه ابا عمرو أو أخاه عن جويرية بن اسماء عن اسماعيل بن ابي حكيم واخبرني احمد بن عبد العزيز الجوهري قال حدثنا عمر بن شبه قال حدثنا سعيد بن عباس عن جويريه بن اسماء عن اسماعيل بن ابي حكيم وقد جمعت الروايتين قال اليزيدي ان اسماعيل حدث ان عمر بن عبد العزيز بعث به في الفداء وقال عمر بن شبه ان اسماعيل حدث قال : كنت عند عمر بن عبد العزيز فأتاه البريد الذي جاء من القسطنطينية فحدثه قال : بينما انا اجول في القسطنطينية اذ سمعت رجلا يغني بلسان فصيح وصوت شج :

فكم من حرّة بين المنقى الى احد الى جنبات ريم

فسمعت غناء لم اسمع قط احسن منه ، فلما سمعت الغناء وحسنه لم ادر أهو كذلك حسن ام لغربته وغربة العربية في ذلك الموضع فدنوت من الصوت فلما قربت منه اذا هو رجل في غرفة فنزلت عن بغلتي ، فأوثقتها ثم صعدت اليه ، فقمت على باب الغرفة ، فاذا برجل مستلق على قفاه يغني هذين البيتين لا يزيد عليهما ، وهو واضع احدى رجليه على الاخرى ، فاذا فرغ بكى فيبكي ما شاء الله ، ثم يعيد الغناء ففعل ذلك مرارا فقلت السلام عليكم فوثب وردّ السلام ، فقلت أبشر فقد فك الله اسرك انا بريد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الى هذه الطاغية في فداء الاسارى ، ثم سألته : من انت ؟ فقال : انا

(١) الاصفهاني ، الاغاني ج ٥ ص ١٨٤ ـ ١٨٥ ـ ١٨٦ .

الوابصي ، اخذت فعذبت حتى دخلت في دينهم . فقلت له : انت والله احب من افتديه الى أمير المؤمنين واليّ ان لم تكن دخلت في الكفر . فقال : قد والله دخلت فيه . فقلت : أنشدك والله الا أسلمت ، فقال : أأسلم وهذان ابناي وقد تزوجت امرأة منهم ، وهذان ابناها واذا دخلت المدينة قيل لي : يا نصراني وقيل مثل ذلك لولدي وامهما . لا والله لا افعل . فقلت له : قد كنت قارئا للقرآن فما بقي معك منه. قال: لا شيء الا هذه الآية ﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾. قال : فعاودته وقلت له : انك لا تعبر بهذا فقال : وكيف بعبادة الصليب وشرب الخمر واكل لحم الخنزير . فقلت : سبحان الله اما تقرأ أمن اكره وقلبه مطمئن بالايمان فجعل يعيد عليّ قوله فكيف بما فعلت ولم يجبني الى الرجوع قال : فرفع عمر يديه وقال : اللهم لا تمتني حتى تمكنني منه . قال : فوالله مازلت راجيا الاجابة دعوة عمر فيه . قال : جويريه في حديثه وقد رأيت اخا الوابصي بالمدينة .

وقال يعقوب بن السكيت في هذا الخبر : اخبرني ابن الازرق عن رجل من اهل البصرة انسيت اسمه قال : نزلنا في ظل حصن من حصون الروم فاذا انا بقائل يقول من فوق الحصن :

فكم بين الاقارع فالمنقى ... الى احد الى ميقات ريم
الى الزوراء من ثغر نقي ... عوارضه ومن دل رخيم
ومن عين مكحلة الاماقي ... بلا كحل ومن كشح هضيم

وهو ينشد بلسان فصيح ويبكي فناديته : ايها المنشد فاشرف فتى كأحسن الناس . فقلت : من الرجل ؟ وما قصتك ؟ فقال : انا رجل من الغزاة من العرب نزلت مكانك هذا فأشرفت على جارية كأحسن الناس فعشقتها فكلمتها ، فقالت : ان دخلت ديني لم اخالفك . فغلب عليّ الشيطان ، فدخلت في دينها ، فأنا كما ترى . فقلت : أكنت تقرأ القرآن فقال : اي والله لقد حفظته . قلت : فما تحفظ منه اليوم قال : لا شيء الا قوله عز وجل : ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ . فقلت : فهل لك ان تعطيهم فداءك وتخرج . قال : ففكر ساعة ثم قال : انطلق صحبك الله .

انعكاس تدهور احوال الدولة الاسلامية
على معاملة اسرى المسلمين

ان معاملة الاسرى المسلمين لدى الدولة البيزنطية كانت تتأثر بتدهور احوال الدولة الاسلامية واجتراء الروم على الثغور الشامية ، فقد روى التنوخي قائلا[1] : حدثني القاضي ابو بكر محمد بن عبد الرحمن ، قال : حدثني مكرّم بن بكران ، عن ابي يحيى بن مكرم القاضي : قال : كنت خصيصا بأبي الحسن علي بن عيسى[2] وربما شاورني في شيء من امره ، قال : دخلت عليه يوما وهو مغموم جدا ، فقدرت انه بلغه عن المقتدر امر كرهه ، فقلت : هل حدث شيء ؟ وأومأت الى الخليفة . فقال : ليس غمّي من هذا الجنس ، ولكن مما هو اشد منه . فقلت : ان جاز ان اقف عليه فلعلي اقول فيه شيئا . فقال : نعم كتب اليّ عاملنا بالثغر ، ان اسارى المسلمين في بلد الروم ، كانوا على رفق وصيانة الى أن ولي آنفا ، ملك الروم ، حدثان ، فعسفا الاسارى ، واجاعاهم ، واعرياهم وعاقباهم ، وطلباهم بالتنصر ، وانهم في جهد جهيد ، وبلاء شديد ، وليس هذا مما لي فيه حيلة ، لأنه امر لا يبلغه سلطاننا ، والخليفة لا يطاوعني فكنت انفق الاموال ، واجتهد ، واجهز الجيوش حتى تطرق القسطنطينية .

فقلت ايها الوزير : ها هنا رأي اسهل مما وقع لك ، يزول به هذا . فقال : قل يا مبارك ، فقلت : ان بانطاكية عظيما للنصارى يقال له البطرك ، وببيت المقدس آخر يقال له الجاثليق[3] وامرهما ينفذ على ملك الروم ، (حتى انهما ربما حرما الملك فيحرم عندهم ، ويحلانه فيحل) . وعند الروم انه من خالف منهم هذين فقد كفر وانه لا يتم جلوس الملك ببلد الروم الا برأي هذين ، وان يكون الملك قد دخل الى بيعتهما ، وتقرب بهما ، والبلدان في سلطاننا ، والرجلان في ذمتنا ، فيأمر الوزير بأن يكتب الى عاملي البلدين

---

(١) التنوخي ، نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة ج ١ ص ٥٢ - ٥٥ .

(٢) الوزير في خلافة المقتدر بالله (٢٩٥ هـ - ٣٢٠ هـ / ٩٠٨ م - ٩٣٢ م) .

(٣) الجاثليق : جمعها جثالقة ، متقدم الاساقفة ، يونانية .

باحضارهما ، وتعريفهما ما يجري على الاسارى ، وان هذا خارج عن الملك ، وانهما ان لم يزيلا هذا ، لم يطالب بجريرته غيرهما ، وينظر ما يكون من الجواب .

قال : فاستدعى كاتبا واملى عليه كتابين في ذلك ، وانفذهما في الحال . وقال : سريت عني قليلا ، وافترقنا .

فلما كان بعد شهرين وايام ، وقد نسيت الحديث ، جاءني فرانق[1] من جهته يطلبني ، فركبت وانا مشغول القلب بمعرفة السبب في ذلك ، حتى وصلت اليه ، فوجدته مسرورا ، فحين رآني قال : يا هذا ، احسن الله جزاءك عن نفسك ودينك وعني . فقلت: ما الخبر ؟ قال : كان رأيك في أمر الاسارى أبرك رأي واصحه ، وهذا رسول العامل قد ورد بالخبر ، وأومأ الى رجل كان بحضرته ، وقال له : خبرنا بما جرى . فقال الرجل : انفذني العامل مع رسول البطرك والجاثليق ، برسالتهما الى قسطنطينية وكتبا الى ملكيها : انكما قد خرجتما عن ملة المسيح بما فعلتماه بالاسارى وليس لكما ذلك ، فانه حرام عليكما ، ومخالف لما امرنا به المسيح من كذا وكذا ، وعدد اشياء في دينها ، فاما زلتما عن هذا ، واستأنفتما الاحسان الى الاسارى وتركتما مطالبتهم بالتنصر ، والا لعناكما على هذين الكرسيين وحرمناكما .

قال : فمضيت مع الرسول ، فلما صرنا بقسطنطينية ، حجبت عن الملكين اياما وخليا بالرسول ، ثم استدعياني اليهما ، فسلمت عليهما ، فقال لي ترجمانهما : يقول لك الملكان ان الذي بلغ ملك العرب من فعلنا بالاسارى ، كذب وتشنيع ، وقد اذنا في ادخالك دار البلاط لتشاهد اسراكم ، فترى احوالهم بخلاف ما بلغكم ، وتسمع من شكرهم لنا ، ضد ما اتصل بكم . قال : ثم حملت الى دار البلاط ، فرأيت الاسارى ، وكأن وجوههم قد اخرجت من القبور ، تشهد بالضر الشديد والجهد الجهيد ، وما كانوا فيه من العذاب الى حين قدومنا ، الا انهم مرفهون في ذلك الوقت ، وتأملت ثيابهم ، فاذا جميعها

---

(١) فرانق : الساعي المكلف بنقل الرسائل .

جدد ، فعلمت اني منعت من الوصول تلك الايام حتى غير زي الاسارى واصلح امرهم . . .

وقال لي الاسرى: نحن للملكين شاكرون ، فعل الله بهما وصنع واومأوا الي: ان الامر كان كما بلغكم ، ولكنه خفف عنا ، واحسن الينا ، بعد حصولك هاهنا .

وقالوا لي كيف عرفت حالنا ؟ ومن تنبه علينا ، وانفذك بسببنا ؟

فقلت لهم: ولي الوزارة علي بن عيسى فبلغه ذلك ، فانفد من بغداد ، وفعل كذا وكذا . .

قال: فضجوا بالدعاء الى الله تعالى للوزير ، وسمعت امرأة منهم تقول: مرّ يا علي بن عيسى لا نسي الله لك هذا الفضل .

قال: فلما سمع ذلك علي بن عيسى اجهش بالبكاء ، وسجد حمدا لله سبحانه وتعالى وبر الرسول ، وصرفه .

فقلت له: ايها الوزير ، اسمعك دائما تتبرم بالوزارة ، وتتمنى الانصراف عنها في خلواتك خوفا من آثامهاـم فلو كنت في بيتك ، هل تقدر ان تحصل هذا الثواب ولو انفقت فيه اكثر مالك ؟ فلا تفعل ، ولا تتبرم بهذا الامر فلعل الله يمكنك ويجري على يديك امثال هذا الفعل ، فتفوز بثوابه في الآخرة ، كما تفردت بشرف الوزارة في الدنيا .

معاملة الرقيق لدى الدولة البيزنطية:

ان نظرة الدولة البيزنطية مختلف عن نظرة الاسلام ، فالسيد كان يعطى حق التصرف المطلق في عبده فيميته او يبيعه كما يشاء[1]، ولقد زاد الرقيق فيها زيادة تلفت النظر لعدم الرغبة في عتقه حتى بلغ عدد العبيد في بعض عصورها ثلاثة ارباع الاحرار من ابنائها حيث ظل العبيد يلقون شر المعاملات حتى جاء

(١) كرد علي ، محمد ، الاسلام والحضارة العربية ، ج ١ ص ٩٤ .

الامبراطور العادل كلوديوس.، فأمر باعتاقهم جميعا حتى احتلوا الوظائف الادارية وصاروا ينافسون حكام روما . ولكن سرعان ما عادت معاملتهم الى سابق عهدها فصار العبد يباع بيع السلع ويحرم من كثير من حقوقه المدنية والتعليمية ، ولم تستطع الكنيسة اصلاح حاله او رفع المظالم عنه(١). وكانت الدولة البيزنطية تعد تجارة الرقيق من اهم مواردها فكانت تفرض مكوسا على العبيد والغلمان والخصيان(٢) لتضاعف ميزانيتها ومع ذلك كانت تمنعهم من تعلم القراءة والكتابة ، وتعاقب كل من يخالف ذلك عقابا شديدا وذلك لاستفادة السادة من جهل عبيدهم(٣).

معاملة الاسير العربي الشاعر ابو فراس الحمداني (من خلال بعض قصائده) :

ابو فراس الحمداني شاعر شهير ولد بالموصل (٩٣٢م. - ٣٢٠ هـ) ، تولى امارة منبج وهو دون العشرين من العمر . وكانت هذه الامارة اخطر ثغر من ثغور الدولة الحمدانية واسهل طريق ينفذ منه البيزنطيون الى بلاد الشام ، فسهر عليها يدفع عنها اطماع الروم ، ويرد عنها غارات بني كلب وغير الذين ثاروا على الحمدانيين بفعل دعاية القرامطة(٤).

ولكن النصر الذي حالف ابا فراس في حروبه خانه في يوم من الايام فوقع اسيرا بين يدي الروم الذين ساقوه الى خرشنة ثم الى القسطنطينية حيث طال اسره مدة سبع سنوات وكان يأمل ان يسرع ابن عمه سيف الدولة الى افتدائه ولكنه أبطأ ولم يفعل ذلك ، فضاق صدر الشاعر ونظم في الاسر اروع اشعاره التي عرفت بـ« الروميات» والتي عكست حالته ،وتأمله من انصراف ابن عمه عنه . وكان قد اسر وهو جريح وقد اصابه سهم بقي نصله في فخده . ولما شقت فخذه عن نصل السهم الذي اصابه قال: (٥)

(١) بينز ، نورمان ، الامبراطورية البيزنطية ص ٧٥ .

(٢) نفس المرجع ، ص١٦٣ .

(٣) كرد علي ، محمد الاسلام والحضارة العربية ج ١ ص ٤٩ .

(٤) القرامطة : فرقة من الباطنية متطرفة ثارت بالخلافة العباسية ردحا وبسطت سلطتها ونفوذها على اجزاء الجزيرة العربية والعراق وسوريا . مسعود . جبران . الرائد ص ١١٦٤ .

(٥) الثعالبي . يتيمة الدهر ص ٧٦ .

فلا تصفن الحرب عندي فانها ... طعامي مذ بعت الصبا وشرابي
وقد عرفت وقع المسامير مهجتي ... وشقق عن زرق النصول اهابي
ولجت في حلو الزمان ومره ... وانفقت من عمري بغير حساب

ونتيجة لمعاناته في الاسر ، كان خلوده الادبي:

جراح واسر ، واشتياق وغربة ... احمل! اني بعده لحمول
وما نال مني الاسر ما تريانه ... ولكنني دامي الجراح ، عليل
واسر اقاسيه ، وليل نجومه ... ارى كل شيء غيرهن يزول
تناساني الاصحاب ، الا عصابة ... ستلحق بالاخرى ، غدا ، وتحول[1]

وفي قصيدته «يا حسرة ما اكاد احملها» عبّر الشاعر عن نوع المعاملة التي كان الروم يعامل بها اسراهم بتكبيلهم بالقيود وفرضهم الاشغال الشاقة عليهم والباسهم الثياب الصوفية الخشنة ، واجبارهم على ان يحملوا اقيادهم اثناء التنقل من مكان الى آخر قائلا:

يا من رأى لي بحصن خرشنة ... اسد شرى ، في القيود ارجلها
يا من رأى لي القيود موثقة ... على حبيب الفؤاد اثقلها
ليست تنال القيود من قدمي ... وفي اتباعي رضاك احملها
يا واسع الدار كيف توسعها ؟ ... ونحن في صخرة نزلزلها
يا ناعم الثوب كيف تبدله ... ثيابنا الصوف ما نبدلها
يا راكب الخيل لو بصرت بنا ... نحمل اقيادنا ، وننقلها
رأيت في الضر اوجها كرمت ... فارق ، فيك الجمال اجملها
قد اثر الدهر في محاسنها ... تعرفها تارة وتجهلها[2]

ويبين في هذه الابيات كيف يوثقون الاسير بالقيود ، ويشغلونه بقلع الحجارة وهو في ذلك يبين ما ينعم به سيف الدولة في داره الواسعة وما يلاقيه الشاعر في اسره ، كما يقارن بين ثيابه الخشنة وثياب سيف الدولة الناعمة ،

---

(١) ابو فراس شرح ديوانه مكتبة الحياة ص ٦ .

(٢) نفس المرجع ص ١٤٠ .

وبين ركوب سيف الدولة الخيل مطلقاً حرا ، وبين حمله هو القيود اسيرا . كما يشير الى ما فعله الضر والعذاب في وجوههم حتى توارت تحتها مظاهر الجمال في اجمل هذه الوجوه وهي التي نشأت في الكرم والنعيم حتى ان الدهر في محاسن هذه الوجوه قد اثر بها فبدلها حتى اذا رآها الرائي خالجه الشك بمعرفته فيها ، فهو بين عارف لها وجاهل بها ، لكثرة ما احدث بها من تغير .

وقال في موضع آخر(١) :

اسرت فلم اذق للنوم طعما ... ولا حل المقام بنا حزاما
وسرنا ، معلمين اليك حتى ... ضربنا خلف خرشنة الخياما

وكتب الى غلامه المنصور قائلا(٢) :

مغرم ، مؤلم ، جريح ، اسير ... ان قلبا ، يطيق ذا لصبور
وكثير من الرجال حديد ... وكثير من القلوب صخور
قل لمن حل بالشام طليقا : ... بأبي قلبك الطليق الاسير
انا اصبحت لا اطيق حراكا ... كيف اصبحت انت يا منصور ؟

وفي تلك تعبير عما يعانيه من آلامه وجراحه واسره وكيف ان حالته اصبحت لا تطاق ، مستفسرا عن حالة غلامه من بعده .

واسر ابي فراس لم يثنه عن الاشادة بقوته وقوة قومه فهو مقيد كالاسد في خرشنة الاغلال تشد على قدميه ، والجبال الشوامخ تحجبه عمن تحب ان تراه . وفي اسراه يقول له الدمستق في مناظرة بينهما : انما انتم كتاب لا تعرفون الحرب فيرد عليه ابو فراس قائلا :

نحن نطأ ارضك منذ ستين سنة بالسيوف ام بالاقلام ؟ ويقول مخاطبا الدمستق(٣) :

---

(١) ابو فراس شرح ديوانه ص ١٣٧ .
(٢) نفس المرجع ص ٢٥٤ .
(٣) ابو فراس الديوان ص ٤٢ ـ ٤٣ .

اتزعم يا ضخم اللغاديد[1]، اننا ... ونحن اسود الحرب لا نعرف الحربا
فويلك من للحرب ان لم نكن لها ... ومن ذا الذي يمسي ويضحي لها تربا
ومن ذا يلف الجيش من جنباته ... ومن ذا يقود الشم او يصدم القلبا ؟
وويلك من خلّي ابن اختك موثقا ... وخلان باللقان[2] تبتدر الشعبا ؟
اتوعدنا بالحرب حتى كأننا ... واياك لم يعصب بها قلبنا عصبا ؟
لقد جمعتنا الحرب من قبل هذه ... فكنا بها اسدا وكنت بها كلبا
فسل بردسا عنا اخاك وصهره ... وسل آل بردأليس اعظمكم خطبا
وسل قر قواسا والشميشق صهره ... وسل سبطه البطريق اثبتكم قلبا

الى ان يقول:

ألم تفنهم قتلا واسرا سيوفنا ... واسد الشرى الملأى وان جمدت رعبا ؟
باقلامنا احجرت ام بسيوفنا ... واسد الشرى قدنا اليك ام الكتبا ؟
تركناك في بطن الفلاة تجوبها ... كما انتفق اليربوع[3] يلتثم التربا
تفاخرنا بالطعن والضرب في الوغى ... لقد اوسعتك النفس يا ابن استها كذبا
رعى الله اوفانا اذا قال ذمة ... وانفذنا طعنا واثبتنا قلبا
وجدت اباك الصلج لما خبرت ... اقلكم خيرا واكثركم عجبا

وقال في اسره ايضا مخاطبا غلامه المنصور ، مجملا نفسه بالصبر واصفا حالته:

ارث لحب فيك قد زدته ... على بلايا اسره ، اسرا
قد عدم الدنيا ولذاتها ... لكنه ما عدم الصبرا
فهو اسير الجسم في بلدة ... وهو اسير القلب في اخرى[4]

(١) اللغاديد : مفرده لغدود : لحمه تكون في الحلق وقوله ضخم اللغاديد : اي ضخامة الرقبة .

(٢) اللقان : بلد الروم وراء خرشنة.

(٣) اليربوع : دويبة فوق الجرذ طويل الرجلين قصير اليدين جدا .

(٤) ابو فراس الديوان ص ١٥٦ .

ويطول بنا الحديث في ايراد ما كتبه ابو فراس وهـو داخل سجنـه ، خلال سبع سنوات من الاسـر ، ورومياتـه من اجود الشعـر العربي والتي تـطالعنا فيهـا العاطفة الجياشة والاحساس الصادق ، والتصوير الدقيق ، والحزن والالم وذلـك ما خلد ذكره الى الابد .

الاستفادة من الاسرى المسلمين لدى الدولة البيزنطية :

ساعد المسلمين على تنظيم احوالهم الادارية تلك الخبرات والتقـارير التي كان يدلي بها رجالهم الذين شاهدوا الدولة البيزنطية ، فلقد اعتمد ولاة الثغور ، او المناطق المتاخمة والمعرضة لغارات البيـزنـطيـين ، كذلـك المشاة من الفـرق غير النظامية المتحركة في المناطق المتنازع عليها من آسية الصغرى الشرقية والتي تعمل لحسـابها الخـاص او ضمن اطار الجيـوش النـظاميـة ، اعتمـد هؤلاء عـلى كبـار الاسرى المسلمين الذين كانوا يقيمون شهورا او سنين في القسطنطينية او في مدن اخرى من الامبراطورية ، وحيث كان تبادلهم يشكـل جزءا من التـاريخ الـدقيق لهذا الصراع الذي لم يهدأ لمدة طويلة ، في الحصـول على معلومـات دقيقة ، دون الاشارة الى ذكر اسمائهم ، او الادانة بـالخبر الفـلاني الى هؤلاء المساجـين ، ما عدا بعض الاستثناءات التي اشير اليها من الذين استفادوا من اقـامتهم القسريـة للكتـابة عن الامبـراطـوريـة البيـزنـطيـة وجيرانها كمسلم الجـرمي وهـارون بن يحيى(١)، فكتب المسالك التي وضعها الجغرافيون المسلمون في العصور الوسـطى تفيض بشرح الطرق المؤدية الى بلاد الدولة البيـزنطيـة والى عاصمتهـا والمحطات الممتدة على هذه الطرق ، ولقد استمد الجغرافيون معلوماتهم من المسلمين الذين شاهدوا بلاد الدولة البيزنطية وكانوا موضع ثقة واهل خبـرة ودراية ، ومعـظمهم كانوا من كبار الاسرى الذين حملتهم السلطات البيزنطية الى العـاصمة . فمسلم الجرمي الذي اطلق سراحه مع الاسرى في فـداء سنة ٢٣١ هـ / ٨٤٥م . اورد قائمة عن التقسيمات الادارية للدولـة البيزنـطية التي تسمى «البنـود»(٢)، كانت المـادة الاساسيـة التي بنى عليها جغـرافيو المسلمـين معلوماتهم في هـذا الصدد .

---

(١) P. 384 - 385 .

(٢) العدوى ، ابراهيم احمد الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ١٥٨ ـ ١٥٩ .

وهارون بن يحيى احد الاسرى الذي كان قد اسر اثر غـارة على عسقـلان واقتيد الى القسطنطينية ومن هناك الى سالونيك ، فبلاد السلاف ، بافيا واخيرا روما(١)، وصف طريق البحر الذي حمل فيه الى القسطنطينية كما وصف ما رآه بعينه من الابواب والملعب والقصر الامبراطوري ، وموكب الامبراطور الى الكنيسة وما بالعاصمة روما من اديرة ، كما اورد معلومات عن طوبرغرافية القسطنطينية مما افاد المسلمين كثيرا(٢).

الى جانب هؤلاء الاسرى اعتمد المسلمون بالحصول على معلوماتهم عن احوال واوضاع تلك البلاد على عدة مصادر ، منها الزوار الرسميون ، كالسفراء الذين كانوا يكلفون بمهمات رسمية في الاراضي البيزنطية ، كسفير اسبانيا المسلمة ، غزال الذي كانت سفارته ردا على سفارة بيزنطة الى اسبانيا ، وعلى المفوضين مطلقي الصلاحية لتنظيم المعاهدات وتبادل الاسرى(٣).

اما المسعودي فقد زار القسطنطينية في القرن العاشر وكان متلهفا لرؤية «عاصمة الروم النصارى» وترك وصفا لها قائلا: (٤) «لم تزل الحكمة باقية عالية زمن اليونانيين وبرهة من مملكة الروم تعظم العظماء وتشرف الحكماء».

ولقد كان البطارقة اشبه بسفراء سلام بين ملوك الاسلام وملوك الروم اذا وقع حيف على المسلمين في بلاد اعدائهم ينتدبهم ولاة الاسلام الى مطالعة الروم بما ينال النصارى في الشام وغيرها من الاضطهاد ان هم اساءوا الى المسلمين الواقعين في اسرهم والراحلين اليهم في التجارة(٥).

كذلك كان للجواسيس الذين كانوا يسافرون رجالا ونساء الى الاقاليم المجاورة ، متنكرين في صور عديدة من تجار واطباء يجمعون الاخبار وينقلونها ، دور هام في تزويد الدولة الاسلامية بالمعلومات عن الدولة البيزنطية(٦).

---

(١) P. 368 .

(٢) العدوى ، ابراهيم احمد الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ١٥٩ .

(٣) P. 385 .

(٤) بينز ، نورمان الامبراطورية البيزنطية ص ٣٧٩ .

(٥) كرد علي ، محمد خطط الشام ج ٦ ص ١٢ .

(٦) عثمان ، فتحي ، الحدود الاسلامية البيزنطية ص ٣٠٨ .

معاملة الاسرى البيزنطيين لدى المسلمين

دور العامل الديني :

ان الحروب الاسلامية البيزنطية لم تكن حروبا دينية الهدف في جميع مراحلها ، وانما كانت الخلافة في دمشق او بغداد تحرص على سلامة دين اهل الثغور من المسلمين حتى لا يتحولوا الى المسيحية تحت ضغط القسس والرهبان الذين يكثر عددهم في الثغور ، كما ان الرهبان المسيحيين كانوا يحرصون على حماية المسيحيين من ان يتحولوا الى الاسلام[1] .

ولعب الدين دورا بارزا في المعاملة لان عمليات التحول من الاسلام الى المسيحية او العكس كانت تتم عند بعض الاسرى في كلتا الدولتين ، غير ان نصيب المرتدين عن الدين كان القتل ، ففي اخبار سنة ٢٤٢ هـ. اورد ابن الاثير[2] ان رجلا عطارا كان نصرانيا فأسلم فمكث سنين كثيرة ثم ارتد وابى الرجوع الى الاسلام فقتل واحرق . وفي سنة ٣١٥ هـ . قتل ابن الضحاك وهو من رؤساء الاكراد بعد ان ارتد عن الاسلام ، وصار الى ملك الروم الذي اجزل له العطاء وامره بالعودة الى حصنه فلقيه المسلمون فقاتلوه واسروه وقتلوا

(١) فازيلييف تاريخ العرب والروم ترجمة د. شعيرة ص ٣٦٩ .

(٢) ابن الاثير الكامل في التاريخ ج ٧ ص ٨١ .

كـل من كان معـه[1]. وحسن بن قحطة احـد قواد المهـدي طلب من المسلمـين القدامى الذين اعتنقوا اليهوديـة والمسيحية العـودة بالقـوة الى الاسلام ، وشمـل ذلك اسرى الحروب القديمة ، مما ادى الى وقوع ضحايا كثيرة[2].

ولقـد كان الحـرص من الطرفـين يؤدي في بعض الاحيـان الى الاحتكـاك الذي يستعمل فيـه السلاح ليحـافظ كل فـريق على دينـه[3] لان تغيير الـدين لا يجوز الا اذا كان دخولا في الاسلام . فكـانت الطوائف الـدينية منفصلة بعضهـا عن البعض الاخـر تمام الانفصـال ، لان المسلم اذا ارتـد عن الاسـلام عـوقب بـالقتل ، كـما ان قانـون الدولـة البيزنـطيـة كـان يقضي بقتـل المسيحي اذا غـيّر دينه[4]، فقد رفع الى محمد بن النعمان القاضي (٣٤٥هـ - ٣٨٩هـ)ان نصرانيا اسلم ، ثم ارتد ، وقد جاوز الثمانين فاستتيب فأبى ، فانهى امـره الى العزيـز ، فسلمـه لـوالي الشـرطـة ، وارسـل الى القـاضي ان يـرسـل اربعـة من الشهـود ليستتيبوه ، فان تاب ضمن له عنه مائة دينار ، وان اصر فليقتل ، فعـرض عليه الاسلام فأبى ، فقتل ، ثم امر بتغريقه في النيل[5].

وقد حدث في بلدة سروج بالعراق في القرن الثالث الهجري ان رجـلا من المتشـددين في الاسلام عـذّب نصارى ارتـدوا بعد اسـلامهم بصـروف العـذاب ليعيدهم الى الاسلام ، فـامر بـه القاضي فضـرب وسجن ، وفي ذلك يقـول ابو العلاء المعري :

وقـد اسلم الرجـل النصرانُ مـرتغبـا ... ولـيس ذلـك مـن حـب لاسـلام
اوشـاء تـزويـج مثـل الـظبي معلمـة ... لـلنـاظـريـن بـأسـوار وعـلام[6]

غير ان التسامح الديني بين المسلمين والمسيحيين ظهر في الرسالة التي كتبها

(١) نفس المصدر ج ٨ ص ١٧٧ .
(٢) Vies des Saints T. II. 14 Novembre. P. 431.
(٣) فازيلييف تاريخ العرب والروم . ترجمة حسين مؤنس ص ٣٦٣ .
(٤) متز ، آدم الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٧٦ .
(٥) الكندي ملحق اخبار القضاة ص ٥٩٢ .
(٦) المعري ، ابو العلاء اللزوميات ص ٢٥٠ .

بطريق القسطنطينية نيقولا ميستيكوس حوالي القرن العاشر الميلادي الى حاكم جزيرة كريت ايام تبعيتها للمسلمين قائلا: «الى الامجد الاشرف الاعز ، امير جزيرة كريت . ان اعظم قوتي العالم اجمع ، قوة العرب وقوة الروم تعلوان وتتألقان كالشمس والقمر في السماء ، ولهذا وحده يجب ان نعيش اخوة على الرغم من اختلافنا في الطبائع والعادات والدين»(١).

وبرغم الفترات العصيبة التي مرت بين العرب والروم من اعمال الحرب والتخريب والعداوة فمن الملاحظ عدم وجود اي مكان للحقد بين الطرفين ، فالامبراطور ليو الثالث سمح ببناء مسجد في القسطنطينية عاصمة المسيحية الامر الذي دعا بعض اصحاب المدونات الاغريقية ان يصفوه بأنه كان ذا عقلية عربية(٢)، كما ان الحكومة الاسلامية لم تكن تتدخل في الشعائر الدينية للمسيحيين بل كان بعض الخلفاء يحضر مواكبهم واعيادهم ، كذلك ازدهرت الاديرة في هدوء ، منها الدير المسمى «دير قني» الذي كان يقع على مسافة ستة عشر فرسخا من بغداد(٣) ودير سمالو ودير الروم اللذان سنتكلم عنهما في نهاية هذا الفصل .

استعمال الاسرى لبناء قصر سيف الدولة:

ولقد ابتنى سيف الدولة قصرا غربي عاصمته ، مشرفا على نهر قويق الصغير ، حيث اجرى الامير النهر من داخل القصر يدخل اليه من جانب ويخرج من الجانب الآخر ، فيصب في مكان يعرف بالغيض ، وفي وصف احد الذين شاهدوه من المؤرخين البيزنطيين ، قال: ان الاسرى العديدين قد بنوا هذا القصر ، وان الامير قد استجلب الفنانين الافذاذ من معماريين ونقاشين ومثالين ، وكان يبذل لهم المكافآت السخية ، وكان يحيطهم ويقدمهم للشعب في

(١) العدوى ، ابراهيم احمد الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ١٧٣ .
(٢) فازيلييف تاريخ العرب والروم ترجمة حسين مؤنس ص ٣٦٣ ـ ٣٦٤ .
(٣) متز ، آدم الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٨٨ .

مواكب موسيقية ، ويأمر ضباطه باحترامهم شأن المحاربين المشاهير لانهم كانوا مبدعين للجمال الذي كان يقدره سيف الدولة[1] .

كيف كان يتم فصل المعتقلين البيزنطيين الى رقيق وأسرى :

بما ان الحروب بين دولتي العرب والروم ، كانت سببا في اسر عدد كبير من الروم ، حيث استرق الكثير منهم ، لأن الرق عند المسلمين كان نتيجة لعامل الحرب ، وأدب الاسلام في الاسرى انساني وليس في القرآن نص على استرقاق الاسير أو قتله ، انما يخيّر المسلمين بين أمرين : المن أو الفداء ﴿ **فإذا لقيتم الذين كفروا ، فضرب الرقاب ، حتى إذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فاما منّا بعد واما فداء ، حتى تضع الحرب أوزارها** ﴾[2]

والعبد عند فقهاء الاسلام هو شخص اخذ اسيرا في الحرب ، شرط ان يكون عند اخذه كافرا[3] .

وهكذا كان المسلمون يجعلون اسراهم رقيقا بعد أن يعزلوا عنهم أهل الشرف من كبار رجال الدولة ، من أساقفة وأباطرة وقواد جيوش يضعونهم في أماكن خاصة ، أعدت لهم . حيث ان معسكرات الاعتقال كانت تنقسم الى قسمين : واحد أعد لكبار رجالات الدولة والآخر لعامة الجنود ، وكثير من هؤلاء كانوا يباعون في عدة مواضع حيث كان لا ينادى على شيء أكثر من ثلاثة أصوات ثم يوجب بيعه للسرعة[4] .

وكان في المدن سوق للرقيق يوكل الاشراف عليه لعامل خاص به ، منها سوق مدينة سامراء في القرن الثالث الهجري[5] ، ففي وقعة عمورية اقبل الناس بالأسرى من كل وجه ، حيث انتشروا من رجال ونساء وغلمان في بيوت

---

(١) الشكعة ، مصطفى سيف الدولة الحمداني ص ١٥٧ .
(٢) سورة محمد آية ٤ .
(٣) متز ، آدم الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٣١٤ .
(٤) امين ، احمد ظهر الاسلام ص ٩٤ ـ ٩٥ .
(٥) متز ، آدم الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٣٠٢ .

الخلفاء والأغنياء والمماليك ، وكان في الاسلام مبدأ مهم في مصلحة الرقيق ، ذلك ان الواحد منهم كان يستطيع ان يشتري حريته بدفع قدر من الذين يملكهم ، فلقد أوصى المعتصم عند موته بعتق ثمانية آلاف من مماليكه ، وكان قد أمر بألا يفرق بين أعضاء العائلات التي وقعت في الأسر[1] .

فالشرع الاسلامي لم يكتف بتشديد الوصية في حسن معاملة الرقيق ، بل مكن العبيد من استعادة حريتهم ، إذا كانوا بحسن سيرتهم اهلا لذلك ، ولقد حبّب الاسلام في عتق الرقيق اذ جاء في القرآن الكريم : ﴿ **والذين يبتغون الكتاب مما ملكت ايمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيها خيرا ، وآتوهم من مال الله الذي آتاكم** ﴾[2] .

فبعد انتصار المعتصم في عمورية ذكر الطبري[3] انه فرّق الاسرى على القواد ودفع الى كل قائد طائفة منهم يحفظهم ؛ ففرقهم القواد على اصحابهم فساروا في طريق نحوا من أربعين ميلا ليس فيه ماء ، فكان من امتنع من الأسرى ان يمشي معهم لشدة العطش الذي أصابهم ضربوا عنقه ، فدخل الناس في طريق وادي الجور فأصابهم العطش ، فتساقط الناس والدواب وقتل بعض الأسرى بعض الجند وهرب[3] .

وفي اخبار سنة ٣٥٧ هـ . عندما وصل فائور[4] الى انطاكية وفي يده من السبي مائة الف رأس ، لم يكن يأخذ الا الصبيان والصبايا والشباب واما الكهول والمشايخ والعجائز فمنهم من قتله ومنهم من تركه[5] .

ولم يحرم الأسرى البيزنطيون الذين وقعوا في أيدي المسلمين من العطف والمعاملة الحسنة حيث كان لهم في القاهرة مكان خاص يسمى (المناخ) ينزل فيه الأسرى من الرجال فقط ، اما النساء والأطفال فكانت السلطات تعطي جزءا

---

(١) متز ، آدم الحضارة الاسلامية ص ٣٠٨ .
(٢) سورة النور آية ٣٣ .
(٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٧٠ .
(٤) فائور : حاجب سعد الدولة .
(٥) ابن العديم ، تاريخ حلب ج ١ ص ١٥٧ .

للخليفة ويفرق ما بقي من النساء والأطفال على رجالات الدولة ويستخدمون النساء ويربونهن حتى يتقن الصنائع ويدفع الصغار من الأسرى الى الاستاذين فيربونهم ويتعلمون الكتابة والرماية ويقال لهم الترابي وفيهم من صار اسيرا من صبيان خاص الخليفة ، ومن الأسرى من كان يستراب به فيقتل ومن كان منهم شيخا لا ينتفع به ضربت عنقه والقي في بئر كانت في خرائب مصر تعرف ببئر المنامة[١] .

وكانت الرحمة في الحرب أبرز مزية سما بها المسلمون على جميع الأقوام في المعارك والحروب ، فلا يقتل في الاسلام من لم يبلغ الحلم[٢] ولا يقتل النساء ولا الصبيان ولا الزمنى ولا العميان ولا الرهبان الذين لا يقاتلون[٣] ولا يقتل الا من جرت عليه المواسي[٤] ولم يشأ رسول الله قتل النساء والذرية في شيء من مغازيه البتة . وقد وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله ، فانكر الرسول قتل النساء والصبيان[٥] .

وكان قصر سيف الدولة يعج بالجواري ، وخاصة سبايا الروم ، ولقد تعلق بجارية رومية كانت ابنة لأحد الأمراء البيزنطيين اسرت في احدى الغزوات ، وكانت أثيرة لديه وذات سلطان كبير على قلبه ، حتى اصابت الغيرة زميلاتها من الجواري الأخريات ، وخيف عليها من أذى يلحقها ، فنقلها الأمير بعيدا الى قصر على سفح الجبل[٦] وقد الهمته هذه الجارية شعرا جميلا منه هذه الأبيات :

راقتني العيون فيك ... فأشفقت ولم اخل قط من اشفاق
ورأيت العذول يحسدني فيك ... مجدا يا انفس الاعلاق

---

(١) المقريزي خطط ٢ ص ١٩٣ .
(٢) الجوزيه ، ابن القيم احكام اهل الذمة ص ٥ .
(٣) نفس المرجع ص ١٧ .
(٤) نفس المرجع ص ٤٢ .
(٥) نفس المرجع ص ٤٣ - ٤٤ .
(٦) الشكعة ، مصطفى سيف الدولة الحمداني ص ١٦٠ .

فتمنيت ان تكوني بعيدا والذي بيننا من السود باق
رب هجر يكون من خوف هجر وفراق يكون خوف فراق(١)

أما كبار الاسرى من رجالات الدولة وقواد الجيوش ، فقد كان المسلمون يحافظون عليهم ويكرموهم ليبادلوا بهم أسرى من المسلمين ، فعندما وقع ابن الدمستق اسيرا في يد سيف الدولة ، حمل الى قصر الأمير في حلب ، ثم ما لبث ان مرض فكان الأمير يسهر على تمريضه بنفسه(٢) .

أما القائد البيزنطي مليح (Malih) الذي هاجم اعالي الفرات سنة ٣٦٢ هـ . عازما الاستيلاء على آمد(٣) والذي اسر بعدما لقي عدد كبير من عسكره مصرعهم بعد معركة بينه وبين أبا القاسم هبة الله بن ناصر الدولة ، ارسل الى آمد مع عدد كبير من قادته وكلهم من ذوي الرتب العلية في الجيش وعدتهم نحو اربعين مكبلين بالاغلال ، حيث لقي مليح واصحابه معاملة طيبة من ابي تغلب(٤) ، حيث تقرر ارسالهم الى بغداد وبقي القائد البيزنطي في السجن الى أن مرض سنة ٣٦٣ هـ . حيث بالغ أبو تغلب في علاجه ، غير أنه لم يلبث ان قضى نحبه(٥) .

غير أن حسن معاملة كبار الأسرى البيزنطيين لم يكن القاعدة الثابتة ، فالمصادر العربية اوردت ان بعض كبار الاسرى قد تعرضوا للاهانة ، ففي اخبار سنة ٣٤١ هـ . عندما هزم سيف الدولة ملك الروم الدمستق وقتل لاون البطريق في الحرب وأسر قسطنطين بن الدمستق ، حمّله الابريق الى بيت الماء ، وكان امردا فخرج يبكي ، ولم يزل عنده حتى مات من علة اعتلها(٦) ، وكان

---

(١) الثعالبي ، يتيمة الدهر ج ١ ص ٢١ .
(٢) الشكعة ، مصطفى سيف الدولة الحمداني ص ٢١٩ .
(٣) آمد : اعظم مدن ديار بكر ، بلد قديم حصين مبني بالحجارة . ياقوت . معجم البلدان ج ١ ص ٢٥١ .
(٤) شقيق ابا القاسم (هبة الله بن ناصر الدولة) .
(٥) ابن الاثير الكامل في التاريخ ج ٨ ص ٤٦١ .
(٦) ابن العديم زبدة الحلب ج ١ ص ١٢٣ - ١٢٤ .

ذلك ضربة اصابت الدمستق حيث اكثر الشعراء في هذه الوقعة فقال المتنبي [1] :

لكل امرىء من دهره ما تعودا وعادة سيف الدولة الطعن في العدا
وربّ مريد ضرّه ضرَّ نفسه وهاد اليه الجيش اهدى وما هدى

وقال أبو فراس :

وآب بقسطنطين وهو مكبل تحف بطاريق به وزراور
وولى على الرسم الدمستق هاربا وفي وجهه عذر من السيف عاذر
فدى نفسه بابن عليه لنفسه وللشدة الصماء تقنى الذخائر
وقد يقطع العضو النفيس لغيره وتدفع بالأمر الكبير الكبائر [2]

وسوء معاملة الأسرى البيزنطيين ادى الى سوء معاملة الاسرى المسلمين في هذه الفترة [3] .

ولقد ورد في الاغاني [4] : ان الرشيد كان جالسا في مجلسه ، فأتى بأسير من الروم ، فقال لرفافه العبسي : قم فاضرب عنقه ، فضربه فنبا سيفه ، فقال لابن فليح المدني : قم فاضرب عنقه ، فضربه فنبا سيفه ايضا ، فقال : اصلح الله امير المؤمنين ! تقدمتني ضربة عبسية ، فقال الرشيد للمأمون وهو يومئذ غلام : قم ـ فداك ابوك ـ فاضرب عنقه ، فقام فضرب العلج ، فأبان رأسه ، ثم دعا بآخر فأمره بضرب عنقه ، فضربه فأبان رأسه ، ونظر الى المأمون نظر مستنطق فقال الشاعر محمد بن العباس اليزيدي [5] :

ابقى دفافة عارا بعد ضربته عند الامام لعبس آخر الأبد

---

(١) المتنبي شرح الديوان ص ١٠٢ .
(٢) ابو فراس شرح الديوان ص ٣٥ .
(٣) العريني ، السيد الباز الدولة البيزنطية ص ٤٢٠ .
(٤) الاصفهاني ، الاغاني ج ٢٠ ص ٢١٧ .
(٥) احد بني عدي بن عبد شمس بن زيد مناة بن تميم ، قيل له اليزيدي لاتصاله بيزيد بن المنصور خال المهدي ، الاصفهاني . الاغاني ج ٢٠ ص ٢١٦ .

كـذاك اسـرتـه تنبـو سيـوفهم | كسيف ورقاء لم يقطع ولم يكـد
ما مال سيفك قد خانتك ضربته | وقد ضربت بسيف غير ذي أود
علا كضربة عبد الله إذ وقعت | ففرقت بين رأس العلج والجسد

قصة الراهب البيزنطي رومـانوس (من غـلاطيا) الـذي كان اسيـرا لدى العرب من ٧٧١ م . ـ ٧٧٥ م . في عهد المنصور الى تاريخ وفاته أيار سنة ٧٨٠ م . في خلافة المهدي[١] :

قصـة هذا الـراهب تبدأ من مغـادرته ديـره مع رفيق لـه شيخ حيث اسـر الاثنان في غزوة عربية على الثغور ونقل الى بغداد حيث مـا لبث ان توفي الشيـخ في السجن بعـد فتـرة بسيـطة ، وبقي الـراهب رومـانـوس سجينـا (الفقـرة الخامسة) .

كان من جملة من هرب من الرهبان ، الراهبان يوحنا وشمعون واتجها نحو الشرق حيث وقعا في الأسـر بيد بعض العـرب ، بعد ان نـالا وعدا بـالأمانـة ، كذلك اسر ايضا وفي نفس الوقت البطريق جورجيوس الذي كان يتفقد ممتلكاتـه على الحدود البيزنطية ـ الاسلامية وقد اعتمد العرب حيلة في طريقة اسر الرهبـان واحضـارهم الى الخليفـة حيث البسـوهم لبـاس مـدنيـين بلون ابيض ، وادعـوا للخليفة انهم اسروا البطريق وحاشيته بعدما استولوا على مدينته (فقرة ٨) .

وفي الـطريق الى بغداد بـدت المخاصمـة الحادة بـين البطريق والشمـاسين البيـزنطيـين بخصوص الايقـونات حيث قـرر البـطريق منـذ تلك اللحـظة قتـل الشمـاسين بتـدبير تهمـة ضدهمـا (فقـرة ٩) وبـوصـول الاسـرى الى بغـداد ثم احضـارهم جميعا (البـطريق والشماسـين) امام الحـاجب الربيـع حيث استنكـر الراهبان كـونهما علمانيـين ، وتم سجن الجميع في معسكـر واحد ، مـع الراهب رومانوس (فقرة ١٠) .

وفي معسكر الاعتقال اعتزل الرهبان الثلاثة رومانوس والشماسين في زاوية معينة من زواياه لاقـامة الصـلاة تجاه الشـرق ، وكان في نفس المعسكـر البطريق

(١) Analecta Ballondia. Saint Romain- Leneomartyr P. 393- 427.

(جورجيوس) (فقرة ١١) .

بدأ البطريق جورجيوس (اللاايقوني) يتآمر ضد الرهبان الثلاثة الموجودين داخل السجن قائلا لهم : انهم اعداء ملكنا (فقرة ١٢) ونتيجة لهذا التحريض فقد اجمع السجناء من جنود ومدنيين على قتل الرهبان الثلاثة (فقرة ١٤) . وبينما المؤامرة تدبر ضد الرهبان الثلاثة داخل معسكر الاعتقال ، فان شابا عربيا اسيرا يكتشف هذه المؤامرة وينبه رفاقه العرب بما سمعه ، ويتفق الجميع على مراقبة المتآمرين وما ينوون عمله ، وعند البدء بتنفيذ المؤامرة يهجم السجناء العرب والمسيحيين والسوريين والافرنج على المتآمرين بالعصي والحجارة والاسلحة الاخرى . . . وعندها يتدخل رئيس معسكر الاعتقال ، الذي هو من غير المسيحيين ، لايقاف الفتنة ، باعطائه وعودا وتوسلات مع اقتناعه التام بانهاء ما حصل وبعدم تكرار ذلك (فقرة ١٥) .

في تلك الاثناء ، كان شيخ علماني تقي من سكان المدينة (ملكي ؟؟) يزور الرهبان الثلاثة في سجنهم ، ويرى بنفسه التهديدات ضدهم داخل السجن ويستطيع اغراء رئيس المعسكر بواسطة هدايا باخراج الرهبان الثلاثة من المعسكر والعمل على اسكانهم في بيته باعتباره مسؤولا عن حياتهم التي تتعرض للخطر (فقرة ١٦) .

وفاة المنصور واستلام المهدي الخلافة (٧٧٥ م .) :

كان من بين السجناء داخل معسكر الاعتقال المذكور خمسة رهبان آخرين من قبرص ، ثلاثة من اموريا واثنان من مكان آخر ، وهؤلاء ايضا كانوا منفيين من قبل الامبراطور قسطنطين (اللاايقوني) فأخرجهم رئيس المعسكر من السجن ، واسكنهم في منزله مع الرهبان الثلاثة فأصبح عددهم سبعة[1] ، وقد تميّز الراهب رومانوس عنهم جميعا بفضائله (فقرة ١٧) .

وفي السنة الثالثة لحكم المهدي ، حصل ان اعتنق راهب الاسلام ويدعى

(١) في النص سبعة ، بينما يصبح المجموع ثمانية .

يعقوب ، وقد اشتبه هذا الاخير بوجود جاسوس بيزنطي ، اصله حمصي يدعى رومانوس في بغداد ، فذهب واخبر الخليفة المهدي واشتكى على الراهب رومانوس (فقرة ١٨) .

طلب الحاجب الربيع ان يحضر اليه الرهبان السبعة ليجري تحقيقا معهم ، وبعدما انهى ذلك اعادهم الى منزل رئيس معسكر الاعتقال ، الا الراهب رومانوس ، الذي نقله الى سجن آخر ليتابع التحقيق معه ، وقد قام الشيخ الصالح بزيارته في سجنه الجديد .

وفي اليوم الثالث استحضر من جديد امام الخليفة المهدي ، وقبل البدء بتعذيبه للاعتراف بجاسوسيته طلب المهدي احضار المشتكي ليثبت ادعاءه (فقرة ١٩) .

وعند وصول المشتكي ورؤيته الراهب رومانوس ، اضطرب وقرّ رأيه انه ليس متأكدا من هوية رومانوس مما ادى الى طرد المشتكي من دار الخليفة المهدي واعادة رومانوس الى سجنه قبل استجوابه من جديد (فقرة ٢٠) .

وفي السنة الأخيرة لخلافته ، ذهب المهدي الى القدس ، وامر ان يصطحب رومانوس الجيش ، وعند الوصول الى بردان (التي تبعد ١٢ ميلا عن بغداد) ، طلب المهدي مجددا احضار رومانوس للتحقيق معه ، وعيناه معصوبتان ، وهو لا زال يؤكد انه يوناني (امضى في السجن تسع سنوات) وهو اسير ، فأمر المهدي ان يبقى مرافقا للجيش الى سوريا لاثبات التهمة ضده هناك (فقرة ٢١) .

وعند وصول الجيش ورومانوس الى قاليقيا وهي مدينة الرقة او الرافضة ، ابقي الراهب في المعسكر ، حيث احضر عدد من الأسرى البيزنطيين الذين كانوا بتأثير الخوف قد اعتنقوا الدين الاسلامي ، وقد عمل رومانوس داخل المعسكر على اعادتهم الى المسيحية ، وبذلك اعتبر عمله هذا خطيئة كبرى تستحق الموت (فقرة ٢٢) .

عندها طلب المهدي استحضار رومانوس من جديد امامه وعرض عليه اما

ان يختار ان يكون مسلما واما القتل ، وبعدما تعرّض للتهديد والضرب ، طلب رومانوس يوما واحداً للتفكير قبل اتخاذ القرار (الفقرات ٢٣ ـ ٢٤ ـ ٢٥) .

ونتيجة لرفضه الدخول في الاسلام ، ضرب عنقه وألقيت جثته ورأسه في الفرات ، وكان ذلك يوم الاثنين الواقع في ١ أيار سنة ٧٨٠ م . الساعة التاسعة صباحا (الفقرة ٢٦) .

ولقد قام مسيحيو الرقة باسترجاع الجثة والرأس ووضعوها في المرقد (فقرة ٢٧) .

دراسة وتحليل هذه القصة :

تدور احداث هذه القصة في الفترة التي كان الصراع الايقوني على اشده في الامبراطورية البيزنطية ، حيث كانت قرارات مجمع هيريا الديني ، على شاطىء البسفور الاسيوي ، سنة ٧٥٣ م . والمتعلقة بادانة الايقونية وتحريمها ، والتي دعا اليها الامبراطور قسطنطين الخامس ، تذاع وتطبق بقساوة وذلك بتحطيم الايقونات والصور المقدسة في كل مكان ووضع صور دينوية مكانها وعزل الايقونيين من وظائفهم وتشريدهم فضلا عما لحق بكثير منهم من الوان العقوبة والسجن والمغادرة ، غير ان هذه الحركة لم تتم دون مقاومة خاصة من جانب الرهبان ، الذين عز عليهم ان تحطم تماثيل السيد المسيح وتمحى صور مريم العذراء لتحل محلها تماثيل دنيوية للأباطرة والقادة بل احيانا للطيور والحيوانات . وفي سنة ٧٦٥ م . طلب الامبراطور قسطنطين الخامس من رعاياه ان يقسموا على التخلي عن عبادة الايقونات ، وبعدما ايقن ان سبيل الاقناع لم يجد مع الايقونيين ، لجأ الى العنف فأعدم من خالف رأيه وتمسك بعبادة الايقونات من القادة العسكريين وبعض كبار الموظفين ، أما الرهبان فاختصهم الامبراطور بكراهيته الشديدة ونقمته البالغة ، فتعرضوا للتعذيب وكي اجسامهم بالنار وسمل عيونهم وجذع انوفهم . . . فضلا عن تشريدهم بعد ان صادر ما للاديرة من ممتلكات واراضي وقام بتوزيعها على رجاله ومؤيدي سياسته ، وترتب على هذه الحركة موجة ضخمة من هجرة الرهبان البيزنطيين الى مختلف

الجهات البعيدة التي هي في مأمن من قبضة الامبراطور[1] .

وكان من جملة من هرب الراهبان يوحنا وشمعون اللذان اتجها نحو الشرق ووقعا في الأسر بيد بعض العرب .

استنتاج :

ومن دراسة قصة الرهبان يمكن استنتاج الامور التالية من حيث المعلومات الواردة فيها : ـ

أولا : كيفية الأسر : لم يكن جميع الأسرى نتيجة حروب ومعارك بين الطرفين البيزنطي والعربي ، بل ان الغزوات التي كان يقوم بها كل طرف لحدود الآخر كفيلة بأسر كل ما تصادفه الغزوة دون التفريق بين رجال ونساء وشيوخ وكهنة .

ثانيا : لعبت الحرب الايقونية داخل الامبراطورية البيزنطية دورا هاما في تشتيت الرهبان وهربهم الى البلدان المجاورة حيث تم اسرهم .

ثالثا : ان الغزوات لم تكن تتم الا بأمر من الخليفة ، ولهذا كان يهتم القائمون بها بعد عودتهم الى الخليفة بتصوير نجاحهم وانهم يستطيعون الوصول الى قصور اعدائهم وقادرون على تنفيذ ما يطلب منهم بدقة لينالوا رضا الخليفة (فقرة ٨) .

رابعا : انتقال الصراع الايقوني الى داخل معسكرات الاعتقال وتأثير ذلك على السجناء وقيامهم بالتكتلات داخل المعسكر باعداد الخطط لينال كل طرف من الآخر .

خامسا : الحياة داخل المعسكر : يتمتع السجناء بالحرية التامة داخل المعسكر الذي كان يضم بين جدرانه المسلمين والمسيحيين ، الرهبان والشيوخ ، وكانوا يلقون نفس المعاملة ، لا تمييز في ذلك ، فالاسلام اوصى بنيه : « الأسرى اخوة لكم واعوان وهم في ايديكم بنعمة الله واذ هم تحت

---

(١) عاشور ، سعيد تاريخ الدولة البيزنطية ص ١٤٣ .

رحمتكم فأطعموهم كما تطعمـون ، والبسوهم ، وآووهم كـما تأوون » . كما ويذكر القرآن احسان المسلم الى الاسرى بين الحسنات واعمـال البر والتقوى ﴿ **ويطعمـون الطعـام على حبـه مسكينا ويتيـما واسيرا** ﴾[1] . ولقد استطاع الرهبان اقامة شعـائرهـم الـدينية داخـل معسكر الاعتقـال عندما اعتزلوا في زاوية معينة لاقامة الصلاة تجاه الشرق .

سادسا : لم يكن الاسـرى يتعرضـون لأي تعذيب داخـل السـجن، بل يتبـين ان رئيس المعسكـر كان يحـافظ على حيـاة اسراه ويعتبـر نفسـه مسؤولا عن ذلـك ، اذ عندمـا وجد رئيس المعسكـر حياة الـرهبان معـرضة للخـطر اخـرجهم من السجن واسكنهم في بيته وهـذا دليـل قـاطـع عـلى حسن المعاملة والمحافظة على حياتهم .

سـابعا : العـدل في الاحكام : عنـد تـوجيـه تهمـة الجاسـوسيـة للراهب وقبـل الاستماع اليه طلب الخليفة المهدي الاستماع الى افادة المشتكي ، وقبل اتخاذ اي قرار وعندما لم يستطع الواشي اثبـات التهمة أعـاده الخليفة الى سجنه ، فالعـدل في الأحكام جعـل الخليفة بنفسـه يتولى التحقيق لكي يكون القرار عادلا ، فمن قول لـلامام عـلي بن ابي طالب : « لا تحكم مـع المدعي وان قلعت عينـه ، بل استمـع الى المدعى عليـه ربما قلعت عيناه » . ومتابعـة التحقيق مع الـراهب تفرضهـا ضرورات امنيـة ، لا سيما وان التهمة الموجهة اليه تتعلق بجاسوسيته ضد امن الدولة .

ثامنا : عند اثبات التهمة امر بضرب عنقه ، لان التهمـة تتعلق بسلامـة الدولـة وهذه عقوبتها الموت فقد قال الله في كتابه العزيز : ﴿ **انمـا جزاء الـذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادا ان يقتلوا او يصلبـوا ، او تقطع ايديهم وارجلهم من خلاف ، أو ينفوا من الأرض ، ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم ، الا الذين تابـوا من قبل ان تقدروا عليهم ، فاعلموا ان الله غفور رحيم** ﴾[2] .

---

(١) سورة الانسان آية ٨ .

(٢) سورة المائدة آية ٣٣ .

واخيراً لا بد من ابداء الملاحظة التالية :

ـ التشكيك في صحة بعض فقرات هذه القصة ، فعدم اسنادها الى أي مصدر آخر يجعلنا نتساءل ؟ من روى للكاتب هذه القصة ؟ وممن سمعها ؟ وهل صحيح ان اختيار هذا الراهب للقتل كان بسبب محاولته اعادة بعض من اسلموا الى المسيحية ؟ علما ان رهبانا آخرين كانوا يمارسون معتقداتهم الدينية داخل السجن وذلك باقامة الصلاة تجاه الشرق .

لقد اعترف الكاتب بأن سبب قتل الراهب انه لم يوافق على الدخول في الاسلام ، ومن يدري انه لم يكن هناك سبب آخر لم يذكره ؟ ولماذا لم يطلب من جميع السجناء المسيحيين مثل ما طلب منه ؟ وهذا ما لم يذكره راوي هذه القصة . ثم ماذا كانت نهاية بقية من كانوا من المسيحيين معه في الأسر بعد مصرعه في ١ أيار سنة ٧٨٠ م .

صحيح ان للدين دورا أساسيا في التعامل داخل الدولة الاسلامية ، اذ كان لا يجوز تغيير الدين الا اذا كان دخولا في الاسلام ، كما ان المسلم الذي ارتد عن الاسلام قتل ، كما عوقب بالقتل ايضا المسيحي الذي غيّر دينه في الدولة البيزنطية[١] .

معاملة كبار أسرى عمورية :

بعد حصار عمورية الذي استمر اسبوعين ، اعلنت المدينة التسليم ، فوقع في ايدي الخليفة المعتصم عدد وفير من النساء والاطفال فضلا عن الغنائم الوفيرة ، ونقل المعتصم الى سامراء اثنين واربعين اسيرا من ذوي المكانة حيث ظلوا في الحبس سبع سنوات[٢] .

وقصة هؤلاء تناولها الأدب البيزنطي ، حيث وصف حالاتهم ، وانهم كانوا يتعرضون لضغوطات نفسية هدفها جعلهم يعتنقون الاسلام ، فالنصوص المختصة بسير القديسين ، خاصة آلام الشهداء تحتوي على ذلك ، ودارت

(١) متز ، آدم الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٧٦ .
(٢) الطبري تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ٢٦٣ .

مناقشات حسب ايفود (Evode) بين (شهداء) عمورية ومحدثيهم من المسلمين[1] . ويعود امر هؤلاء الى فترة الامبراطور اللايقوني (محارب الايقونات تيوفيل القسطنطيني) . وعندما قام احد الخونة المرتد المسيحي باديترس (Badetzès) بتسليم المدينة للمسلمين ، وبعد ان قتل هؤلاء السكان والجنود ، اقتادوا معهم الى سوريا اثنين واربعين اسيرا من الضباط بينهم البطريقان تيودور كراتير (Cratère) وقسطنطين كاللتيس وغيرهم (Calliste) . وضع هؤلاء داخل زنزانات مظلمة ، واصبحوا في حالة من الضعف والوهن ، حتى ان الخليفة ارسل الاطباء المسلمين للاعتناء بهم[2] وكان المسلمون يتحاشون ان يناقشوهم في مسألة الايمان بينما كان البعض من فقهائهم يحضرون الى السجن ويهبونهم الثياب والنقود ، ثم يبدأون بحضهم بالرجوع عن ايمانهم ، حيث كان القديسون يدفعون هذه الدعوة ، ويرفضون الهدايا ، ويرد مناقشوهم المسلمون كونوا حريصين على فهم معنى كلامنا ، فاذا لم يكن ما ننصحكم به من الاشياء الجميلة والنافعة فلا داعي لأن تقبلوه او توافقوا عليه ، كل ذلك مع تذكيرهم للجسناء بعائلاتهم والروابط الحميمة للقرابة ، بأموالهم وبصداقاتهم الاجتماعية ، بشرفهم ، وبالمجد الذي يتمتعون به ، والوسيلة ، يؤكد المسلمون ، هي جد بسيطة ، اعتناق الاسلام ، الختان ، القيام باداء الصلاة ، واذا عادت الحرب للنشوب يوما ، فربما تأتيهم الفرصة للفرار والعودة الى دينهم وشعبهم ، فالمهم في كل هذا الحفاظ على الحياة والقدرة على التمتع بحياة واسعة ورغيدة[3] .

ويستمر المسلمون باقناعهم بالدخول في الاسلام ، بارسال الوفود الذين يحملون معهم الحسنات ويبدأون بالترحم على مصير السجناء ، الذين يدفعهم جهلهم وعدم ايمانهم الى العقاب ، ويذكرونهم بمرتبتهم العليا وبمزاياهم العسكرية ويسوقون البراهين على هزائم البيزنطيين ، كما يطلبون منهم العودة

---

(١) Proche Orient chretien. Jerusalem. T. 29 1979. P. 253.

(٢) Viesdes saints. Tome 3. Mars 1941. P. 112.

(٣) Proche Orient chretien. Jerusalem. T. 29. P. 254.

عن السير في الطريق الضيّق الذي دعاهم لاتباعه ، ابن مريم ، والالتزام بالسير على طريق صديق الرجال الكبير ، النبي محمد ، انه طريق واسع ، مريح ومليء بخيرات الحياة الدنيا والحياة الآخرة»(١) .

أمام هذه الوعود (أو البشرى) المزدوجة ، يجب عدم ركوب المصاعب ورفض قبول عطايا الله الا حسب ما تمليه عليه اهواؤه الذاتية . لا يوجد الا طريق واحد هو قبول الاسلام ، الله الذي هو رحيم ، يعرف الصعوبة التي تصادف كل رجل يرغب السير حسب القانون القاسي ليسوع . لهذا فقد ارسل نبيه محمد لينزع كل ضيق وليزيل كل شدة ويبشر الجميع بالخيرات واللذائذ الحاضرة وبفرج امتلاك الخيرات في المستقبل ، وايضا ليخلص بالايمان وحده الذين يسمعون لكلامه ، ويمضي الوقت ، آخرون يحضرون للسجن ، ويجيدون فن المناقشة او المناظرة ، ويحاولون ان يستخرجوا البراهين والأدلة لصالح الاسلام من الانتصارات العسكرية للمسلمين على البيزنطيين ، ولا شيء يمكن ان يتأتى له اقناع السجناء المسيحيين ، الذين بدورهم ، كانوا يردون على محدثيهم محاولين ايضا اسقاط براهينهم ، بوضع نظام دفاعي للعقيدة ولحياة المسيحيين في متناول المسلمين ، والنقاط الرئيسية لهذا النظام :

١ ـ الرب ـ الثالوث المقدس .

٢ ـ يسوع المسيح ـ النسب الإلهي ـ التجسيد ـ الخلاص .

٣ ـ حقيقة المسيحية .(٢)

كيفية قتلهم ؟(٣)

في الخامس من آذار سنة ٨٤٥ م . ، عشية الاعدام ، حضر باديتزس الى السجن ونادى بقسطنطين كاتب البطريك آيستيوس (Aesticus) وذلك في محاولة جديدة لاقناعهم بالارتداد ، ولكن هذه المحاولة فشلت ورفضت كسابقاتها .

---

(١) Proche Orient Chretien. Jerusalem. T. 29. P. 254.

(٢) Proche Orient chretein. Jerusalem. T. 29. 1979. P. 254- 255.

(٣) Vies des Saints Tome 3. Mars 1941. P. 112- 113.

قسطنطين عاد الى السجن ، وانتحى جانبا بالبطريق آيستيوس ، وأسرّ اليه ان ساعتهم الاخيرة قد دنت ، وأمضى السجناء الليل وهم ينشدون الشكر للسيد (أي للمسيح) . في الغد حضر احد ضباط الخليفة ومعه رجال مسلحون ، ولما لم يستطع حمل الرجال الاثنين واربعين بوعيده وتهديده ، اخرجهم من سجن المدينة الى ضفاف الفرات ، والامير الذي كان قد حكم عليهم اتى بدوره وذلك في آخر محاولة منه ، وركّز خاصة على تيودور الكراتيري الذي يعرف سيرة حياته ، والذي قال : « اعترف بأني هاجمت سيدي وربي ، وانه تألم لتركي ايماني الاول ، فأنا لا استحق لقب (اسم) المسيحي ولكن بما ان رحمته لا حدود لها ، فهو قد عفى عني لاعتراضي ، وانا متيقن بأنه سمح لي بهذه الفرصة الملائمة للموت من اجله ، اني آمل ان يتقبل تضحيتي ، عن كفارتي ويغسل دمي ، ومع ذلك ، اضاف ، اذا كان لكم عبد هارب ، يعود ليقاتل من اجلكم حتى الموت ، الا تغفرون له خيانته الاولى ؟ فكان جواب الامير « مت اذن ، لانك اردت ذلك ! » بعدها ذهب تيودور وجلس على الرمل ، وبعد ان قام بصلاته للرب ، قدم رأسه للجلاد ، بعد ذلك تقدم الآخرون تباعا للحصول على تاج الشهادة .

ولقد اتفق اليونان واللاتين على احياء ذكرى هؤلاء الاثنين واربعين شهيدا الذي يصادف موتهم السادس من آذار ، وبعض جداول الشهداء في الكنيسة اليونانية اي ما يسمى بالـ (مينابون) تسجل ذلك في السابع والثامن من آذار . وكتاب اسماء الشهداء وسائر القديسين الروماني ، حسب اضافاته الى اسنكار ايويارد (Usward) يسجل ذلك بشكل عام بدون ذكر الاسماء .(١)

استنتاج :

من قصة هؤلاء الاسرى ، يتضح لنا انهم كانوا يعاملون معاملة حسنة داخل السجن ، حتى انهم عندما اصبحوا في حالة من الضعف ، ارسل الخليفة الاطباء المسلمين للاعتناء بهم ، وكان يقدم لهم الثياب والهدايا والنقود .

---

(١) Vies des Saints. Tome 3. Mars 1941. P. 113.

ولقد اعتمد المسلمون على طريقة الاقناع ، لجعلهم يعتنقون الدين الاسلامي قائلين لهم : اذا لم يكن ما ننصحكم به من الاشياء الجميلة والنافعة ، فلا داعي لان تقبلوه ، أو توافقوا عليه ، موضحين لهم طريق النبي محمد ، انه طريق واسع مريح ومليء بخيرات الدنيا وخيرات الآخرة . وكانوا يختارون من محدثيهم من يجيد فن المناقشة او المناظرة ، ليستخرج الادلة والبراهين لصالح الاسلام ، ليحاول اقناعهم باعتناقه ، فقد ارسل الله نبيه لينزع كل ضيق وليزيل كل شدة . ويبشر الجميع بالتمتع بالخيرات واللذائذ الحاضرة ، وبفرج امتلاك الخيرات في المستقبل .

غير ان هذا الجانب من المعاملة الحسنة ، لم يكن ليخفي الجانب السيء من المعاملة ، فلقد وضع هؤلاء في زنزانات مظلمة ، وبدأت تمارس عليهم الضغوطات النفسية ، وذلك بالترحم على مصير السجناء الذين دفعهم جهلهم ، وعدم ايمانهم الى العقاب ، مذكراً بمراتبهم العسكرية ، وبسوق البراهين على هزائم البيزنطيين ، وبالطلب اليهم بالعودة عن السير في الطريق الضيق الذي دعاهم لاتباعه ، ابن مريم ، وعندما لم تجد محاولات الاقناع اية جدوى كان مصيرهم الموت وكان ذلك في السادس من آذار سنة ٨٤٥ م . / ٢٣٠ هـ .

معاملة ملك الروم ارمانوس سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م .

كان ملك الروم ارمانوس قد وقع اسيرا بيد السلطان الب ارسلان الذي طلب منه شروطا لاطلاق سراحه ، وبعد موافقته على ذلك فك قيده وقال :[1]

أعطوه قدحا ليسقينيه ، فأعطي ، فظن انه له ، فأراد ان يشربه فمنع منه وأمر أن يخدم السلطان ويتقدم اليه ويناوله اياه ، وأومأ الى الارض ايماء قليلا على عادة الروم ، وتقدم اليه فأخذ السلطان القدح وجز شعره فجعل وجهه على الأرض وقال : اذا خدمت الملوك فافعل هكذا ، وكان لذلك سبب اقتضاه وهو

(١) ابن الجوزي المنتظم ج ٨ ص ٢٦٣ وما يليها .
ابن الاثير الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ٦٥ - ٦٧ .

ان السلطان قال بالري ها انا امضي الى قتال ملك الروم وآخذه اسيرا ، واقيمه على رأسي ساقيا ، وانصرف ملك الروم الى خيمته فاقترض عشرة آلاف دينار فأصلح فيها شأنه وفرّق في الحواشي والاتباع والموكلين به واشترى جماعة من بطارقته واستوهب آخرين فلما كان من الغد احضره وقد ضرب له سريره وكرسيه اللذان اخذا منه ، فأجله عليهما وخلع قباءته وقلنسوته فألبسه اياهما وقال له : قد اصطنعت وقنعت بقولك وانا اسيّرك الى بلادك واردك الى ملكك . فقبّل الارض وقال له : أليس ينفذ اليك خليفة الله تعالى في ارضه رسولا يحملك به ويقصد اصلاح امرك ؟ فتأمر ان يكشف رأسه ويشد وسطه ويقبل الأرض بين يديك ؟

وكان قد بلغه انه فعل هذا بابن المحلبان فقال ما فعلت ؟ فقال أليس الأمر على ما يقول وبأن له منة تغير فقال : يا سلطان في أي شيء وفقت حتى اوفق في هذا ، وقام وكشف رأسه وأومأ الى الأرض وقال : هذا عوض عما فعلته برسوله . فسرّ السلطان بذلك وتقدم بأن كتبت له راية عليها مكتوب : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، فرفعها على رأسه وانفذها جبينه ومائة غلام يسيرون معه الى القسطنطينية وشيعه نحو فرسخ ، فلما ودّعه اراد ان يترجل ، فمنعه السلطان واعتنقا ثم افترقا ، بعدما هادنه السلطان خمسين سنة ، وعند وصول ارمانوس ملك الروم الى قلعة دوقية ، بلغه الخبر ان ميخائيل وثب على مملكته ، فلبس الصوف واظهر الزهد ، وجمع ما عنده من المال ، فكان مائتي الف دينار وطبق ذهب عليه جواهر قيمتها تسعون الف دينار وحلف بالانجيل انه ما يقدر على غير ذلك(١) .

استنتاج :

هكذا يتضح من هذه المعاملة انه قبل اطلاق سراحه فرض عليها شروطا اضطر ملك الروم ان يوافق عليها بدفع الاموال التي طلبها السلطان الب ارسلان ، واطلاق جميع اسرى المسلمين ، وعقد هدنة مدتها خمسين سنة ،

---

(١) ابن الجوزي المنتظم ج ٨ ص ٢٦٥ . ابن الاثير . الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ٦٧ .

وعندما لم يستطع ان ينفذ الشرط الثالث باعادة انطاكية والرها ومنبج الى المسلمين بسبب عزله وتولية ميخائيل الثالث بدلا منه ، فضل الزهد ووفى بتعهداته المالية التي ارسلها الى السلطان الب ارسلان معتذرا له انه لا يستطيع ان يفعل اكثر من ذلك .

دير سمالو

موقعه :

يقع هذا الدير شرقي بغداد ، باب الشماسية ، على نهر المهدي ، وصمالو من اهل الثغر الشامي قرب المصيصة وطرسوس يلفظونه بالسين[1] وهناك بساتين واشجار ونخل ، والموضع نزه حسن العمارة آهل بمن طرقه وبمن فيه من رهابنة ، وبين يديه اجمة قصب يرمي فيها الطير ، وعيد الفصح ببغداد فيه منظر عجيب ، لأنه لا يبقى نصراني الا حضره وتقرب فيه ولا احد من اهل التطرب واللهو من المسلمين الا قصده للتنزه فيه ، وهو احد متنزهات بغداد المشهورة . وقد وصفه محمد عبد الملك الهاشمي قائلا فيه :

ولرب يوم في سمالو تمّ لي ... فيه النعيم وغيبت احزانه
وأخ تشوب حديثه بحلاوة ... يلتذ وجع حديثه ندمانه
جعل الرحيق من المدام شرابه ... والمحسنات من الاوانس شأنه
بكرت علي به الزيارة فاغتدى ... طربا الي وسرني اتيانه
فأمرت ساقينا وقلت له إسقنا ... قد حان وقت شرابنا وأوانه
فتلاعبت بعقولنا نشواته ... وتوقدت بخدودنا نيرانه
حتى حسبت لنا البساط سفينة ... والبيت ترقص حولنا حيطانه[2]

كما قال احمد بن عبيد الله البديهي يذكره :

هل لك في الرقة والدير ... دير سمالو مسقط الطير

---

(١) الحموي ، ياقوت معجم البلدان ج ٣ ص ٤٢٣ .

(٢) مجلة الكتاب ـ بغداد ـ تموز سنة ١٩٧٥ ص ٢٠ . الشابشتي الديارات ص ١٤ نقابة المهندسين العراقيين ـ عرض تاريخي مصور ص ٣٥ .

والـديـر في لبس شتى منـاكبـه   كـأنما نشـرت في افقه الحبـر[1]

وموضع سمالو في الخارطات الحديثة ، في شمال شرقي خليج اسكندرونة واخربتها ، وتدعى اليوم باسم سنجرلي ، وقد نقب فيها الآثاريون ، فانتهوا الى حقائق في تاريخ الأمة الحثية وحضارتها[2] .

سبب بناء هذا الدير :

كان الخليفة الرشيد قد حاصر سنة ١٦٣ هـ . فسـأل اهلها الأمـان لعشرة ابيات فيهم القومس ، فأجابهم الرشيد الى ذلـك وكان في شـرطهم ألا يفرقـوا ، فانزلوا في بغداد على باب الشماسية ، فسموا موضعهم سمالو (بالسين) ، وبنى هناك دير سمالو المذكور ، وهو دير مشيد الأركان ، كثير الرهبان ، ويقال : بـل نـزلوا عـلى حكم المهدي فـاستحياهم وجمعهم بـذلـك المـوضـع وامـر ان يسمى سمالو[3] .

أما الطبري ، فقد قال[4] : سار هارون على نزل رستاقا من رساتيق اهـل الروم ، فيه قلعة يقال لهـا سمالـو فأقـام فيها ثمـانيا وثـلاثين ليلة ، وقـد نصب المجـانيق حتى فتحها الله بعـد تخريب لهـا وعـطش وجـوع اهلهـا ، وبعـد قتـل وجراحات كانت في المسلمين ، وكـان فتحها في شـروط شرطوهـا لانفسهم : لا يقتلوا او لا يرحلوا ولا يفرق بينهم فأعطوا بذلك فنـزلوا ووفـر لهم وقفل هـارون بالمسلمين سالمين الا من كان اصيب بها[5] .

وللشاعر ابو الهيثم خالد بن يزيد الكاتب شعرا في هذا الدير ، قال :[6]

يـا منـزل القصف في سمـالـو   مـالي عـن طيبـك انتـقـال

---

(١) الحموي ، ياقوت معجم البلدان ج ٢ ص ٥١٦ .
(٢) الشابشتي الديارات ذيل رقم ٤ ص ٣٤١ .
(٣) البلاذري فتوح البلدان ص ١٧٠ .
(٤) الطبري تاريخ الملوك والرسل ج ٣ ص ٣٥٤ .
(٥) الشابشتي الديارات ذيل رقم ٤ ص ٣٤٢ .
(٦) الشابشتي الديارات ص ١٥ .

واهـا لايـامـك الخـوالي والـعـيش جـاب بهـا زلال
تلك حيـاة الـنفـوس حـقـا وكـل مـا دونها محـال

دير الروم

موقعـه :

هو بأرض بغداد ، وهو بيعة كبيرة حسنة البناء محكمة الصنعة للنسـطورية خاصة ، وهي بالجانب الشرقي منها ، وللجاثليق قلاية الى جانبها ، وبينه وبينهـا بـاب يخرج منـه اليها في أوقـات صلاتهم وقـربانهم ، وتجـاور هـذه البيعـة بيعـة لليعقوبية مفـردة لهم حسنة المنـظر ، عجيبة البنـاء مقصودة لمـا فيها من عجـائب الصور وحسن العمل ، ومـدرك بن علي الشيبـاني[1] كان يـطرق هذه البيعـة في الاحـاد والاعياد للنـظر الى من فيها من المـردان والوجـوه الحسان من الشمـاسـة والرهبان في خلق ممن يقصد الموضع لهذا الشأن ، فقال[2] :

وجوه بدير الروم قد سلبت عقلي فأصبحت في خبل شديد من الخبل
فكم من غزال قد سبى العقل لحظة ومن ظبية رامت بألحاظها قتـلي
وكم قدّ من قلب بقد ، وكم بكت عيون لما تلقى من الأعين النجل

وقال ايضا :

ريـم بـدار الـروم رام قتـلي بمقلة كـحـلاء لاعن كـحـل
وطـرّة بهـا استـطار عقـلي وحسـن دل وقـبيـح فـعـل

سبب تسمية هذا الدير :

ان سبب التسمية هو ان اسرى من الروم ، قدم بهم الى المهدي واسكنـوا

---

(١) الحموي ، ياقوت معجم البلدان ج ٢ ص ٥١١ .
الشابشتي . الديارات ذيل رقم ٣ ص ٣٣٧ .
(٢) شاعر عباسي كان اعرابيا من بادية البصرة ، دخل بغداد صغيرا ، وتعلم العـربية والادب ، أمسه عمرو بن يوحنا ، كتب فيـه شعرا كثيـرا ومات في هـواه ـ مجلة الكتاب ـ بغـداد ـ السنة التـاسعة ١٩٧٥ ـ هامش ص ١١ .

دارا في شرقي باب الشماسية ، وشمالي الرصافة ، فسميت بهم وبنيت لهم بيعة هناك وبقي الاسم عليها . وكان قرب دير الروم محلة يقال لها (الـدور) انشأت حول الدير[1] .

---

(١) نقابة المهندسين العراقيين . بغداد (عرض تاريخي مصور) ١٩٦٨ . ص ٣٤ .

الباب الرابع

عمليات الفداء :

الفصل الأول : الافدية الجماعية المنظمة في العصر العباسي

الفصل الثاني : الافدية زمن الحمدانيين

الفصل الثالث : الافدية الأخرى .

ملحق في هذا الباب :

أولا ـ الغنيمة .

ثانيا ـ الجهاد .

مقدمـة :

عندما ظهر الاسلام كان وضع الاسرى في شبه الجزيرة العربية والمناطق المجاورة لها لا يخرج عن أمرين اثنين ، اما ان يتم قتلهم واما ان يصير الى استرقاقهم ، ولما اتسعت الفتوح الاسلامية واصبح للمسلمين اسرى لدى اعدائهم ، كما لاعدائهم اسرى لديهم اصبح القائد مخيرا بين قتل الاسير أو فدائه بأسير مسلم وامتنع الفداء بالمال لاستغناء الدولة عنه[1] .

وهكذا كان التشريع القرآني في انهاء حالة الاسرى في ضرورة اتباع المسلمين احد امرين لا ثالث لهما كما بينت الآية الكريمة : **﴿ واذا لقيتم الذين كفروا ، فضرب الرقاب ، فاما منا واما فداء حتى تضع الحرب اوزارها ﴾**[2] وقد منّ النبي على رجل اسمه عمرو بن سعدى كان يأمر وينهي عن الغدر . كما اطلق سراح ثمامة بن اثال سيد اليمامة الذي وقع اسيرا في يد سرية من المسلمين ، فجعله رسول الله في خيمة ، وكان يرسل اليه الطعام ويعرض عليه الاسلام ، فيأبى ويعرض استعداده لدفع الدية[3] .

---

(١) عون ، عبد الرؤوف الفن الحربي في صدر الاسلام ص ٢٩٨ .

(٢) سورة محمد آية ٤ .

(٣) دروزه ، محمد عزه الجهاد في سبيل الله ص ١٣١ ـ ١٣٢ .

وكـان بعض الناس يحتفظ بـأسيره ، وبخـاصة اذا علم مسـاره ، ليفـدي نفسه منه بالمال او يحضر بعض عشيرته لأخذه ودفع فدائـه . وكان مقـدار الفداء يختلف باختلاف مكانة الاسير في قومه ودرجة يسره[1] .

أما مقدار الفداء فقد ذكر الماوردي[2] انه كان يومها اربعـة آلاف درهم ، واحيانا كان يفدى اسير من المسلمين باطلاق اسير من الاعداء ، وأول فـداء من هذا النوع كان في سرية « عبد الله بن جحش » حيث عاد بأسيرين من قريش ، فبعث قومهما في فدائهما ، فامتنع الرسول حتى يقدم رجلان من السرية كانا تخلفا في طلب بعـير لهما ، ومن الجـائز وقـوعهما في أيـدي قـريش ، فلما حضـرا فـدى الرسول الاسيرين واطلقهما . وكذلك اطلق الرسول من اسـرى بدر « عمـرو بن ابي سفيان » ليفك به معد بن النعمان الذي كان قد اسره « ابو سفيان » لما ذهب الى مكة معتمرا[3] .

كما كان يطلق الاسير بلا فداء ان كان فقيرا ، أو رجي باطلاقه صلاحه ، بعد ان يتعهد بألا يظاهر على المسلمين احدا ، وان يكف عنهم لسانه ، كـما منّ الـرسول (ص) عـلى ابي عزة الجمحي الشـاعر بعـد ان تعهد بـألا يكون ضـد المسلمين بشعره في غزوة بدر[4] .

وكـان اطلاق الاسـرى يتم في منـاسبـات الافـراح ، كـالـزواج ، وشفـاء المرضى ، فعندمـا شفي قمر الـزمان ، وعقـد عقده عـلى الملكة حيـاة النفوس ، اطلق جميع المحابيس ، كما فعل ذلك أيضا عندما أصبح سلطانا[5].

---

(١) عون ، عبد الرؤوف الفن الحربي في صدر الاسلام ص ٥٨ .
(٢) الماوردي الاحكام السلطانية ص ٤٤ .
(٣) عون ، عبد الرؤوف الفن الحربي في صدر الاسلام ص ٢٩٥ .
(٤) نفس المرجع ص ٢٩٥ .
(٥) الف ليلة وليلة ج ٢ ص ٢٩٠ ـ ٢٩١ .

الأفدية الجماعية المنظمة في العصر العباسي

مقدمة :

كانت الحرب بين المسلمين وجيرانهم الروم سجالا ينال العدو منهم ، ويأسر بعضهم بعضا لكثرة هجوم اساطيل الاسلام الى بلاد الروم ، والتي كانت تسير من مصر والشام ومن افريقيا ، ولذلك احتاج خلفاء الاسلام الى الفداء ، وكان اول فداء وقع بمال في الاسلام قد جرى أيام بني العباس ، ولم يقع ايام بني امية فداء مشهور ، وانما كان يفدى بالنفر بعد النفر في سواحل الشام ومصر والاسكندرية وبلاد ملطية وبقية الثغور الجزرية الى أن كانت خلافة امير المؤمنين هارون الرشيد[1] .

والفداء قديم بين المسلمين والروم ، بدأ منذ العصر العباسي الاول واستمر بشكل منتظم طيلة هذا العصر ، والرسائل المتعلقة به تبين كيفية اجرائه واسم المتولي به من قبل المسلمين ، واسم المتولي له من قبل الروم ، وكيف ان هؤلاء كانوا يحجزون عندهم المتولي المسلم ، ويحجز المسلمون المتولي الرومي ، ويطلق هذان معا عند انتهاء عملية تبادل الاسرى ، كما ورد في الرسالة الموجهة من عامل ثغر طرسوس الى الخليفة المعتضد بعد انتهاء فداء سنة ٢٨٣ هـ .[2]

(١) المقريزي خطط ج ٢ ص ١٩١ .

(٢) الطبري تاريخ الرسل ج ١٠ ص ٤٦ .

والعلاقات السلمية بين دولتي الروم والاسلام شملت التراسل والتباحث ، وتبادل الرسل والرسائل من اجل تبادل الاسرى الذي سماه المؤرخون المسلمون الفداء ، والذي كان يسبق العمل به طلب عقد هدنة يحترمها الطرفان .

وسأتناول في هذا الفصل عمليات الفداء واسبابها وكيفية اجرائها ، وهي التي جرت على نهر اللامس ، واتخذت طابعا مميزا ، طيلة العصر العباسي .

نظام المفاداة بين الدولتين الاسلامية والبيزنطية :

كان نظام المفاداة من النظم المتبعة بين الدولتين الاسلامية والبيزنطية لانهما كانتا في حروب دائمة على حدودهما ، لا تنقطع الا في فترات قليلة ، عندما تكون الاوضاع الداخلية لواحدة منهما لا تتحمل ضغوطات خارجية فأنها تلجأ الى المهادنة وعقد الصلح مع الدولة الثانية وكانت هذه الحروب تنتهي بأخذ اسرى من الدولتين ، فكانتا تتفقان على ان يفدى بأسير من المسلمين بأسير من الروم وتحددان لهذا التبادل زمانا ومكانا يتم فيه بصورة رسمية محفلية .

ولم تأخذ عملية الفداء عملا منظما قبل العصر العباسي الذي كثر فيه عدد الاسرى نتيجة الحروب المتتالية بين الدولتين البيزنطية والاسلامية . وكانت تعقد المعاهدات بين الطرفين لتقرير الهدنة أو للمفاداة ومبادلة الاسرى ، وكان الروم يبذلون المال للحصول على الهدنة وخاصة في صدر الدولة العباسية وكانت كلما يزداد عدد الاسرى لدى الطرف الآخر تبذل الاموال لفكهم كما حدث ايام سيف الدولة الحمداني الذي دعا الناس لجمع الاموال والصدقات لفك الاسرى ومفاداتهم ، ولقد بقي العالم منقسما بين المسيحية والاسلام واستقرت العلاقات الحربية السلمية بين المسلمين وبين دول اوروبا حتى نشبت الحروب الصليبية التي ادت بالتالي الى انفعال يكاد يكون تاما بين العالمين الاسلامي والمسيحي[1] .

وكان تبادل الأسرى يجري عند اللامس في مقاطعة سلوقية على مسيرة يوم

---

(١) فرحان ، عبد الكريم اسرى الحرب عبر التاريخ ص ١٢٠ .

من طرسوس[1] على ان المقدسي يروي حدوث الفداء في ثغور فلسطين مثل قيسارية حيث تقع شلنديات الروم ومعه اسارى المسلمين للبيع كل ثلاثة بمائة دينار ، وفي كل رباط قوم يعرفون لسانهم ويذهبون اليهم في الرسالات فتوقد المنارة التي للرباط ثم التي تليها ثم الاخرى فما تكون ساعة الا وقد انفر بالقصبة وضرب الطبل على المنارة وفودي الى ذلك الرباط ، وخرج الناس بالسلاح والقوة ، واجتمع احداث الرساتيق . ثم كان الفداء ، فرجل يشتري رجلا ، وآخر يطرح درهما أو خاتما حتى يشترى ما معه[2] . وكانت تسبق حركة التبادل ايفاد سفارات يشترك فيها عمال الثغور لتقرير اسس الفداء . وتأتي الفخامة الاحتفالية من صفة الاطراف الحاضرين : من جهة الاسلام ، احد المقربين من الوزير أو الخليفة ، احد ولاة المناطق الحدودية ، من الجهة البيزنطية : وزير مطلق الصلاحية ، يحضر الاحتفال بعض مئات من الآلاف من الاشخاص الكثير منهم بأسلحتهم ، مع اجمل ما يمكن من التجهيز ، فحماسة افتداء الاخوة في الايمان لا يمكن ان يشك بها . لكنها لا تكفي دائما ، الدراهم تنقص ويجب عندها تدخل الامير الذي يوفي المبلغ ، احيانا يكون الغدر البيزنطي هو السبب فينسحب العدو دون ان يحرر السجناء ، وفي احسن الحالات يجب تمديد المعاهدة والاستعجال بانهاء القضية[3] .

ويتضح من ذلك ان تبادل الاسرى كان يجري وفقا لقواعد مرسومة ونظم خاصة . حتى اذا نجحت المفاوضات استعد الطرفان استعدادا عظيما لعمليات الفداء ، اذ ان سفن البيزنطيين كانت تذهب الى اللامس أو الشواطىء في فلسطين مزينة حاملة اسرى المسلمين الذين تقرر اطلاق سراحهم ، فاذا ما اقتربت هذه السفن من الشواطىء الاسلامية ورآها الحرس الموكل اليهم مراقبة السواحل ، دقوا الطبول ايذانا بحضور السفن . وهنا يخرج كبار الحكام في ابهة وزينة وعليهم اللباس الحربي لمقابلتها .

---

(١) من قرى الغرب ، على شط بحر الروم من ناحية ثغر طرسوس . ياقوت . معجم البلدان ج ٥ ص ٨ .

(٢) المقدسي احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ج ٨ ص ١٤٧ .

(٣) Ma Quel, André: **La Géographie humaine. P. 471.**

وكذلك كان اهالي القرى المجاورة للسواحل يخرجون زرافات ووحدانا مهرولين الى الشواطىء لمشاهدة التبادل(١) .

ولقد جرى اول فداء بين المسلمين والروم في عهد المنصور سنة ١٣٩هـ . عندما غزا صالح بن علي ملطية ، وبنى ما كان البيزنطيون قد هدموه ، حيث رغب الامبراطور في فداء الاسرى ، فيما المنصور كان يأبى ذلك حتى كتب اليه الامام الاوزاعي رسالة شديدة اللهجة بالمبادرة الى الفداء قائلا : « فليتق الله امير المؤمنين وليتبع بالمفاداة بهم من الله سبيلا » . فوافق المنصور على ذلك وجرى الفداء واستنقذ اسرى المسلمين(٢) .

وكانت الدولة الاسلامية تفتدي اضافة الى اولادها ، المسيحيين المختطفين على ارضها من قبل البيزنطيين(٣) .

وسأتناول في هذا الفصل الأفدية التي اجمعت عليها المصادر العربية ، بطريقة اجرائها وبمن حضرها ومن فودي بها والتي ميزها المسعودي ، حيث عدّد السجناء ، رجالا ونساء الخارجين من الاسر ،(٤) . وهي التي جرت في مكان ثابت على نهر اللامس .

الفداء الأول :

وهو أول فداء كان ايام بني العباس(٥) وكان القاسم بن الرشيد هو المتولي من جانب العباسيين والملك نقفور بن استبراق من جانب الروم ففرح الناس وفودي بكل اسير في بلاد الروم من ذكر وانثى وكان الفداء باللامس على جانب البحر بينه وبين طرسوس اثنا عشر فرسخا(٦) و ٣٥ ميلا(٧) من طرسوس وحضر

(١) المقدسي احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ج ٨ ص ١٧٧ .
(٢) الاصبهاني ، ابو نعيم حلية الأولياء وطبقات الاضفياء ج ٦ ص ١٣٥ .
(٣) بودل بهم مقابل عدد من الاعلاج لانه شرعا لا يوجد عقد مبادلة بالنسبة للمسيحيين .
(٤) MiQuel- André. **La Géographie humaine.** P. 471.
(٥) ابن الاثير . الكامل في التاريخ . ج ٥ ص ١٠٦ . المقريزي . خطط ٢٠ ص ١٩١ .
ابو الفداء . البداية والنهاية ج ١٠ ص ٢٠١ .
(٦) ابن الاثير الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ١٠٦ .
(٧) المسعودي . التنبيه والاشراف ص ١٦٠ .

ثلاثون الفا من المرتزقة مع ابي سليمان فخرج الخادم متولي طرسوس وخلف كثير من اهل الثغور وغيرهم من العلماء والاعيان وكان عدة الاسرى ثلاثة آلاف وسبعماية وقيل اكثر من ذلك(١) .

وذكر المسعودي ان القاسم بن الرشيد كان معسكرا بمرج دابق من بلاد قنسرين من اعمال حلب وعلى يده جرى وباسمه وفيه قيل : (٢)

يا ايها النفر الغزا ة النازلون بمرج دابق
اني لغاز لو تركت الى حبيب لي موافق

وحضر هذا الفداء وقام به ابو سليم فرج خادم الرشيد المتولي له ببناء طرسوس سنة ١٧١ هـ . وسالم البرلسي البربري مولى بني العباس في ثلاثين الفا من المرتزقة ، وحضره من اهل الثغور وغيرهم من اهل الامصار نحو من خمسمائة الف وقيل اكثر من ذلك بأحسن ما يكون من العدد والخيل والسلاح والقوة ، قد اخذوا السهل والجبل وضاق بهم الفضاء ، وحضرت مراكب الروم الحربية بأحسن ما يكون من الزي ومعهم اسارى المسلمين وكان عدة من فودي به من المسلمين في اثني عشر يوما ثلاثة آلاف وسبعمائة وقيل اكثر من ذلك واقل . والمقام باللامس نحوا من اربعين يوما قبل الايام التي وقع فيها الفداء وبعدها .

وفي هذا الفداء يقول مروان بن ابي حفصة بمدح الرشيد :

وفكت بك الأسرى التي شيدت لها محابس ما فيها حميم يزورها
على حين اعيا المسلمين فكاكها وقالوا سجون المشركين قبورها

الفداء الثاني :

حدث هذا الفداء في خلافة الرشيد سنة ١٩٢ هـ . على يدي ثابت بن نصر بن مالك امير الثغور الشامية وقد حضره مئات الالوف من الناس وكان عدة

---

(١) ابن الاثير . الكامل في التاريخ ج ٥ ص ١٠٦ .
(٢) المسعودي التنبيه والاشراف ص ١٦١ .

من فودي به من المسلمين في سبعة ايام الفين وخمسمائة ونيفا من ذكر وانثى[1] ولقد ذكر الطبري في ثنايا رواياته فداء ايام الامين فيقول : « ولم يكن فداء ومنذ ايام محمد بن زبيدة سنة ١٩٤ هـ . أو سنة ١٩٥ هـ . (٨١٠ م - ٨١١ م)[2] وفداء ايام المأمون في ذي العقدة سنة ٢٠١ هـ . على يد ثابت بن نصر[3] .

الفداء الثالث :

توافرت المعلومات في المصادر الاسلامية عن هذا الفداء والاجراءات التي تمت لانجازه وهي صورة مستمدة من روايات شهود العيان من الاسرى المسلمين الذين استنقذوا في هذا الفداء فقد ذكر الطبري[4] : في سنة ٢٣١ هـ . تم الفداء بين المسلمين وصاحب الروم واجتمع فيها المسلمون والروم على نهر يقال له اللامس على سلوقية على مسيرة يوم من طرسوس .

أسباب هذا الفداء وكيفية اجرائه :

ذكر عن احمد بن قحطبة صاحب خاقان الخادم - وكان خادم الرشيد - الذي كان قد نشأ بالثغر - ان خاقان قدم على الخليفة الواثق ومعه نفر من وجوه اهل طرسوس وغيرها يشكون صاحب مظالم كان عليهم يكنى ابا وهب فأحضر فلم يزل محمد بن عبد الملك يجمع بينه وبينهم في دار العامة عند انصراف الناس يوم الاثنين والخميس فيمكثون الى وقت الظهر وينصرف محمد بن عبد الملك وينصرفون فعزل عنهم وامر الواثق بامتحان اهل الثغور في القرآن فقالوا بخلقه جميعا الا اربعة نفر فأمر الواثق بضرب اعناقهم ان لم يقولوه وامر لجميع اهل الثغور بجوائز على ما رأى خاقان وتعجل اهل الثغور الى ثغورهم وتأخر خاقان بعدهم قليلا فقدم على الواثق رسل صاحب الروم وهو ميخائيل بن تيوفيل يسأله

(١) المسعودي . التنبيه والاشراف ص ١٦١ .
(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك مجلد ١ ص ١٤٢ .
المسعودي . التنبيه والاشراف ص ١٦٦ .
(٣) المسعودي . التنبيه والاشراف ص ١٦٦ .
(٤) الطبري . تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ١٤١ .

ان يفادي بمن في يده من اسارى المسلمين ، في وقت كانت حالة الحروب والاغارات بين الدولتين قد سببت لهما كثيرا من المتاعب ، فوجه الواثق خاقان في ذلك فخرج لفداء اسارى المسلمين في آخر سنة ٢٣٠ هـ . على موعد بين خاقان ورسل صاحب الروم الالتقاء للفداء في يوم عاشوراء في العاشر من محرم سنة ٢٣١ هـ . بعد ان كان الخليفة الواثق قد ارسل الى البلاط البيزنطي احد رسله ليعرف معلومات دقيقة عن عدد الاسرى المسلمين في الدولة البيزنطية ومدى استعداد الحكومة البيزنطية لتنفيذ هذا الفداء[١] .

ولقد دلت تحريات الرسول الاسلامي الى ان عدد الاسرى المسلمين ثلاثة آلاف رجل وخمسمائة امرأة وولد[٢] . وتقرر بعدها اجراء عملية الفداء بعد ان عقد الواثق لاحمد بن سعيد بن سلم الباهلي على الثغور والعواصم وامره بحضور الفداء .

ولقد اختلف رسول المسلمين مع البيزنطيين على الفداء ، اذ اشترط البيزنطيون الا يأخذوا في الفداء امرأة عجوزا ولا شيخا ولا صبيا مقابل من في ايديهم من الأسرى ، ولم يزل ذلك الخلاف بينهم اياما حتى رضوا عن كل نفس بنفس[٣] ولقد كان عدد اسرى المسلمين قد فاق الاسرى البيزنطيين[٤] .

ولقد حضر هذا الفداء سبعون الف رامح سوى من ليس معه رمح[٥] ، وكان ابو رملة الذي كلف من قبل قاضي القضاة احمد بن ابي داود مكلفا بامتحان الاسرى وقت المفاداة ، فمن قال : القرآن مخلوق فودي به ومن ابى ذلك ترك في ايدي الروم وامر لطالب بن داود الذي كان كاتبا من الكتاب بخمسة آلاف درهم وامر أن يعطوا جميع من قال : ان القرآن مخلوق ، وان الله

(١) الطبري . تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ١٤١ .
المسعودي . التنبيه والاشراف ص ١٦١ .
اليعقوبي . تاريخه ج ٢ ص ٤٨٢ . فازيلييف . العرب والروم ص ٢٤٠ .
(٢) العدوى ، ابراهيم احمد الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ٩٧٠ .
(٣) الطبري . تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ١٤٢ .
(٤) العدو ، ابراهيم احمد . الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ٩٨٠ .
(٥) اليعقوبي تاريخه ص ٤٨٢ .

لا يرى في الآخرة يفادي به ويدفع دينارا لكل انسان من ماله حمل معهم[1] وقيل دفع له ديناران وثوبان(٢) .

ولما كان العاشر من محرم سنة ٢٣١ هـ . اجتمع المسلمون ومن معهم من الاسرى على جانب النهر الشرقي والروم ومعهم قائدان يقال لاحدهما انقاش وللآخر لمسنوس على الجانب الغربي ومعهم اسرى المسلمين وكان النهر بين الطائفتين ، وعندما يطلق المسلمون الاسير يطلق الروم اسيرا من قبلهم ويلتقيان في وسط النهر ويأتي كل الى اصحابه واذا وصل الاسير الى الروم صاحوا حتى فرغوا واذا وصل الاسير المسلم الى المسلمين كبّروا ، وكان عدة اسرى المسلمين اربعة آلاف واربعمائة وستين نفسا والنساء والصبيان ثمانمائة واهل ذمة المسلمين مائة نفس[3] .

ويتابع الطبري موضحا كيفية اجراء عملية التبادل هذه قائلا : وذكر ابو قحطبة ـ وهو رسول خاقان الخادم الى ملك الروم ـ ان عدد المسلمين قبل الفداء كان ثلاثة آلاف رجل و ٥٠٠ امرأة وصبي ممن كان بالقسطنطينية وغيرها الا من احضره الروم ومحمد بن عبد الله الطرسوي وكان عندهم فأوفده احمد بن سعيد بن سلم وخاقان مع نفر من وجوه الاسرى على الواثق فحملهم الواثق على فرس واعطى لكل رجل منهم الف درهم(٤) .

وذكر محمد هذا انه كان اسيرا في ايدي الروم ثلاثين سنة ، وانه اسر في غزاة راميه وكان ممن فودي به في هذا الفداء وقال : فودي بنا في عاشوراء على نهر يقال له اللامس على سلوقية قريبا من البحر وان عدتهم كانت ٤٤٦٠ نفسا من النساء وازواجهن وصبيانهن ثمانمائة واهل ذمة المسلمين مائة أو اكثر فوقع الفداء في كل نفس عن نفس صغيرا او كبيرا فاستفرغ خاقان جميع من كان في

---

(١) الطبري تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ١٤٢ .
(٢) فازيلييف العرب والروم ص ٢٤٠ .
(٣) ابن الاثير الكامل : ج ٧ ص ١٠ .
الطبري تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ١٤٢ .
(٤) الطبري تاريخ الرسل والملوك ج ٩ . ص ١٤٣ .

بلد الروم من المسلمين ممن علم بموضعه .

وذكر عن محمد بن كريم انه قال : لما صرنا في ايدي المسلمين امتحننا جعفر ويحيى فقلنا واعطينا دينارين وقال : وكان البطريقان اللذان قدما بالاسرى لا بأس بهما في معاشرتهما ، وقال ايضا : وخاف الروم لكثرة عدد المسلمين فآمنهم خاقان من ذلك وضرب بينهم وبين المسلمين اربعين يوما لا يغزون حتى يصلوا الى بلادهم ومأمنهم وكان الفداء في أربعة ايام ففضل مع خاقان ممن كان امير المؤمنين اعد للفداء من المسلمين عدة كبيرة واعطى خاقان صاحب الروم ممن كان قد فضل في يده مائة نفس ليكون عليهم الفضل استشهارا مكان من يخشى ان يأسروه من المسلمين الى انقضاء المدة ورد الباقين الى طرسوس فباعهم . وتابع قائلا :

وكان خرج معنا من كان تنصر ببلاد الروم من المسلمين نحو من ثلاثين رجلا فودي بهم[1] وافتدى في هذا الفداء اسرى زبطرة التي خربها الامبراطور البيزنطي سنة ٨٣٧ م .[2]

ولقد ذكر المسعودي[3] اضافة الى ما اورده الطبري انه اخرج اهل زبطرة في هذا الفداء مسلم بن ابي مسلم الجرمي وكان ذا محل في الثغور ومعرفة بأهل الروم وارضها ، وله مصنفات في اخبار الروم وملوكهم وذوي المراتب منهم وبلادهم وطرقها ومسالكها واوقات الغزو اليها والغارات عليها ومن جاورهم من الممالك من برجان والابر والبرغز والصقالية والخزر وغيرهم[4] كما ذكر المسعودي ان جماعة من الاسارى المسلمين اختاروا الرجوع الى ارض النصرانية على القول بخلق القرآن وان من ابى الانقياد الى ذلك نالته محن ومهانة الى ان تخلص[5] .

اما السيوطي فقد روى[6] ان رجلا حمل الى الواثق وهو مكبل بالحديد من

---

(١) الطبري . تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ١٤٤ .

(٢) فازيلييف العرب والروم ص ١٧٨ - ١٧٩ .

(٣) المسعودي . التنبيه والاشراف ص ١٦٢ .

(٤) المسعودي . التنبيه والاشراف ص ١٦٢ .

(٥) نفس المصدر ص ١٦٢ .

(٦) السيوطي . تاريخ الخلفاء ص ٣١٦ .

بلاده ولما دخل ـ وابن ابي فؤاد حاضر ، وهو الذي حمل الواثق على التشدد في المحنة والذي دعا الناس الى القول بخلق القرآن ـ قال المقيد : اخبرني عن هذا الرأي الذي دعوتم الناس اليه ؟ اعلمه رسول الله (ص) فلم يدع الناس اليه ام شيء لم يعلمه ؟ قال : فكان يسعه ان لا يدعو الناس اليه وانتم لا يسعكم ؟ قال : فبهتوا وضحك الواثق وقام قابضا على فمه ودخل بيتا ومد رجليه وهو يقول : وسع النبي (ص) ان يسكت عنه ولا يسعنا فأمر له ان يعطى ٣٠٠ دينار وان يرد الى بلده ولم يمتحن احدا بعدها ومقت ابن ابي داود من يومئذ . واضاف السيوطي بأن الرجل المذكور هو ابو عبد الله بن محمد الاذرقي شيخ ابي داود والنسائي .

ويتبين من هذه المعلومات التي ذكرتها المصادر العربية المتعددة ان اهل الذمة كانوا مع المسلمين في اسر الروم وجرى فداؤهم مع اولئك المسلمين وان الأسير كان في ايدي الروم ثلاثين سنة ، وان من الأسرى من تنصر ببلاد الروم وفودي بهم ، كما تبين المعلومات ان المسلمين كانوا يؤمنون عدوهم حتى يعودوا الى بلادهم ، ويمتد مأمنهم الى ما بعد الفداء بوقت كاف حدّد بأربعين يوما ، كذلك تشير المعلومات الى تولي امير الثغور أمر الاشراف على عملية الفداء .

والقول بخلق القرآن والتي رافقت عملية الفداء كان لها معارضوها بدليل رفض بعض الاسرى القول بذلك ورغبتهم العودة الى بلاد الروم على القبول بذلك ، وقد اثر هذا العمل في سير عملية تبادل الاسرى .

وبما ان عدد اسرى المسلمين قد فاق عدد اسرى البيزنطيين فقد اضطر الخليفة الى شراء من كان يباع في بغداد من الرقيق البيزنطيين واخرج من كان في بلاطه كذلك من أولئك الرقيق حتى يتكافأ العددان[1] .

ولقد استمرت الهدنة طويلة سنتين قبل الواثق وخمس سنوات بعده ، وتوجت بهذا العمل السلمي الانساني والذي له معنى كبير بالنسبة للعلاقات العربية الرومية وهو فداء الاسرى ، لأنه اول فداء كامل لكافة من لدى العرب

---

(١) العدوى ، ابراهيم احمد الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ٩٨ .

والروم من الأسرى والذي لم يكن القصد منه الفداء نفسه بقدر ما كان القصد منه تهدئة الجبهة نفسها وابداء حسن النية فيها ، لأن الروم ، كانوا في غمرة الانشغال والفشل المستمر امام عرب صقلية وكريت ايضا ، والواثق كان يواجه الازمات الداخلية التي اثارها فساد الادارة حوله وسوء سمعتها بالرشوة الى جانب تسلط الجند الترك على الدولة واستئثارهم بحكمها في المشرق والمغرب ، عدا ما اثاره الواثق من اصراره على قضية خلق القرآن من رد فعل عنيف ، فبدا الواثق وكأن الجهاد والروم هم آخر همومه ، ولهذا ما ان جاءه العرض بفداء الاسرى من قبل الروم حتى قبله واتخذت له من المظاهر والمراسم ما جعله تاريخيا بارزا على الجبهة الرومية[١] .

وقبل ان ننتقل الى عملية الفداء الرابعة ، لا بد من الاشارة الى الرسالة التي ارسلها المأمون الى ابي الحسين اسحاق بن ابراهيم والي بغداد سنة ٢١٨ هـ/ ٨٣٣ م . بشأن القول بخلق القرآن .

مسألة خلق القرآن :

لا بد من الاشارة ولو بايجاز الى هذه المسألة التي كانت ابرز شيء في حياة المعتزلة لما اتصل بها من احداث تاريخية واجتماعية وسياسية[٢] ، فالقول بخلق القرآن ظهر في آخر الدولة الاموية على لسان « الجعد بن درهم » معلم مروان بن محمد آخر خلفاء بني امية ، والجعد كان في دمشق ، ولكنه بذر بذرته في العراق لما هرب اليه وقتل به .

كذلك قال ايضا بخلق القرآن جهم بن صفوان الترمذي الذي قتله سالم بن احوز بمرو سنة ١٢٨ هـ ، وورثت المعتزلة هذا القول من الجعد والجهم وزادوا المسألة تفصيلا ووسعوا فيها الجدل[٣] .

ومع ميل المأمون الى الاعتزال وارتفاع شأن احمد بن أبي داود[٤] الذي حمل

---

(١) مصطفى ، شاكر . دولة بني العباس ج ٢ ص ٥٧٢ - ٥٧٣ .

(٢) امين ، احمد ، ضحى الاسلام ج ٣ ص ٣٤ .

(٣) نفس المرجع ص ١٦٢ .

(٤) من أقوى الشخصيات في عصره . ولد بالبصرة سنة ١٦٠ هـ كان يحضر مجالس المأمون في

المأمون على القول بخلق القرآن سنة ٢١٨ هـ ، لأن هذه المسألة هي التي تركز فيها الاعتزال في زمن المأمون لكثرة القول والجدل فيها ، ولأنها تبتنى على اكبر اصل من اصولهم وهو التوحيد وعدم تعدد صفات الله . فساعدوا المأمون في ميله وكان حامل هذا اللواء احمد بن ابي داود وظلت هذه المسألة مسألة الدولة والناس من سنة ٢١٨ هـ ، الى سنة ٢٣٤ هـ ، وسميت بالمحنة ، وهي في الأصل الخبرة : محنته وامتحنته خبرته واختبرته .

بدأ المأمون ذلك في سنة ٢١٨ هـ بارسال كتاب الى والي بغداد اسحق بن ابراهيم بن مصعب وهو كتاب مطول ذكره ابن طيفور في تاريخ بغداد ، بدأه بالسبب الذي ألجأه الى حمل الناس على ذلك ، وهو ان خليفة المسلمين واجب عليه حفظ الدين واقامته والعمل بالحق في الرعية . وهذا نص الكتاب :

كتاب المأمون الى والي بغداد بشأن القول بخلق القرآن :

أرسل المأمون الى ابي الحسين اسحاق بن ابراهيم والي بغداد سنة ٢١٨ هـ . كتابا بشأن القول بخلق القرآن وهو اول كتاب ارسله المأمون في المحنة ، والذي كان له تأثيره الفعال على سير عملية الفداء التي جرت سنة ٢٣١ هـ . زمن الواثق وهذا نصه كما أورده ابن طيفور[١] .

أما بعد « فان حق الله على أئمة المسلمين وخلفائهم الاجتهاد وفي اقامة دين الله الذي استحفظهم ومواريث النبوة التي اورثهم واثر العلم الذي استودعهم والعمل بالحق في رعيتهم والتشمير لطاعة الله فيهم والله يسأل امير المؤمنين ان يوفقه لعزيمة الرشد وصريمته والاقساط فيما ولاه الله من رعيته برحمته ومنته . وقد عرف امير المؤمنين ان الجمهور الاعظم والسواد الاكبر من حشو الرعية وسفلة العامة ممن لا نظر ولا رؤ ية ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته ولا

=الجدل والمناظرة . جعله المعتصم قاضي القضاة ، كذلك ايام الواثق . اصيب بالفالج في خلافة المتوكل . توفي سنة ٢٤٠ هـ .

أمين ، احمد . ضحى الاسلام ج ٣ص ١٥٦ .

(١) ابن طيفور بغداد في تاريخ الخلافة العباسية ص ١٨٤ ـ ١٨٧ .

استضاء بنور العلم وبرهانه في جميع الاقطار والآفاق اهل جهالة بالله وعمى عنه وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده والايمان به ونكوب عن واضحات اعلامه وواجب سبيله وقصور ان يقدروا الله حق قدره ويعرفوه كنه معرفته ويفرقوا بينه وبين خلقه بضعف آرائهم ونقص عقولهم وخفائهم عن التفكير والتذكر وذلك انهم ساووا بين الله تبارك وتعالى وبين ما انزل من القرآن وقد قال الله تبارك وتعالى في محكم كتابه الذي جعله لما في الصدور شفاء وللمؤمنين هدى ورحمة : ﴿**انا جعلناه قرآنا عربيا**﴾[1] فكل ما جعله الله فقد خلقه الله وقال : ﴿**الحمد لله الذي خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون**﴾[2] وقال عز وجل : ﴿ **كذلك نقص عليك من ابناء ما قد سبق** ﴾[3] فاخبر انه قصص لأمور احدثها بعده وتلا بها مقدمها . وقال : ﴿ **الكتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير** ﴾[4] وكل محكم مفصل والله جلّ وعز محكم كتابه ومفصله فهو خالقه ومبتدعه ثم هم اولئك الذين جادلوا بالباطل الى قولهم ونسبوا انفسهم الى السنة وفي كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته مبطل قولهم ومكذب دعواهم يرد عليهم قولهم ، ثم اظهروا مع ذلك انهم هم اهل الحق والدين والجماعة وان من سواهم اهل الباطل والكفر والفرقة فاستطالوا بذلك على الناس وغروا به الجهال حتى مال قوم من اهل السمت الكاذب التخشع لغير الله والتقشق لغير الدين الى موافقتهم ومواطأتهم على سيء آرائهم تزينا بذلك عندهم وتصنعا للرئاسة والعدالة فيهم ، فتركوا الحق الى باطلهم واتخذوا دون هدى الله وليجة الى ضلالتهم فقبلت بتزكيتهم لهم شهاداتهم ونفذت احكام الكتاب بهم على دغل دينهم وبطل اديمهم وفساد نباتهم وتفننهم وكان ذلك غايتهم التي اياها طلبوا في متابعتهم والكذب على مولاهم وقد اخذ عليهم ميثاق الكتاب الا يقولوا على الله الا الحق ودرسوا ما فيه ﴿**اولئك الذين لعنهم الله فاصمهم واعمى ابصارهم افلا يتدبرون القرآن ام على قلوب**

(١) سورة الزخرف الآية ٢ .

(٢) سورة الانعام الآية ١ .

(٣) سورة طه الآية ٩٩ .

(٤) سورة هود الآية ١ .

اقفالها﴾[1] فرأى امير المؤمنين ان اولئك شر الأمة ورؤوس الضلالة والمنقوصون من التوحيد حظا والمخسوسون من الايمان نصيبا واوعية الجهالة واعلام الكذب ولسان ابليس الناطق في أوليائه والهائل على اعدائه من أهل دين الله واحق من انهم في صدقة واطرحت شهادته ولم يوثق بقوله ولا عمله فانه لا عمل الا بعد يقين ولا يقين الا بعد استكمال حقيقة الاسلام واخلاص التوحيد ومن عمى عن رشده وحفظه من الايمان بالله وبتوحيده كان عما سوى ذلك من عمله والقصد من شهادته اعمى واضل سبيلا ولعمر امير المؤمنين ان احجى الناس بالكذب في قوله وتحرص الباطل في شهادته من كذب على الله ووصيه ولم يعرف الله حقيقة معرفته فان اولاهم ان يرد شهادة الله عز وجل على كتابه وبهت حق بباطله فاجمع من بحضرتك من القضاة واقرأ عليهم كتاب امير المؤمنين هذا اليك وابدأ بامتحانهم فيما يقولون وتكشيفهم عما يعتقدون في خلق القرآن واحداثه واعلمهم ان امير المؤمنين غير مستعين في عمله ولا واثق فيما قلّده الله واستحفظه في امور رعيته من لا يوثق بدينه وخلوص توحيده ويقينه فاذا اقروا بذلك ووافقوا امير المؤمنين فيه وكانوا على سبيل الهدى والنجاة فمرهم بنظر من بحضرتهم من الشهود على الناس ومسألتهم عن علمهم في القرآن وترك الاثبات بشهادة من لم يقر انه مخلوق محدث ولم يروا الامتناع من توقيعها عنده واكتب الى امير المؤمنين، بما يأتيك من قضاء اهل عملك في مسألتهم والأمر لهم بمثل ذلك ثم اشرف عليهم وتفقد آثارهم حتى لا تنفذ احكام الله الا بشهادة اهل البصائر في الدين والاخلاص للتوحيد واكتب الى امير المؤمنين يكون منك في ذلك».

ويمكن ان نستخلص من هذا الكتاب ان المأمون كان يرى ان واجبا عليه تصحيح عقائد الناس الفاسدة لا سيما اذا تغلغل الفساد الى اصل من اصول الدين، كالاشراك مع الله في القدم شيئا مثل القرآن، وان كثيرا من عامة الناس كانوا يتكلمون في خلق القرآن ويرون انه قديم، وأوضح لهم المأمون في كتابه بالحجج من القرآن، وان بعض القضاة كان على هذا الرأي من القول بقدم القرآن، وكان يقبل شهادة مع من يقول بقدمه، وقد يرد شهادة من يقول

(1) سورة محمد الآيتان ٢٥ ـ ٢٦.

بحدوثه وان المأمون يرى ان القاضي او الشاهد لا يوثق بقضاته ولا بشهادته الا كانت عقيدته غير صحيحة ، وهو لذلك لا يريد ان يولي الاحكام ويزكي الشاهد الا اذا صح ايمانه وصح توحيده .

لهذا كانت خطوة المأمون مقصورة على هذا ، فلا تعذيب ولكن لا يتولى احكامه الا من وثق به وهو لا يثق الا بمن قال : ان القرآن مخلوق لانه في نظره برهان صحة عقله وصحة ايمانه ولهذا لجأ الى المفاداة بكل انسان قبل بالقول بذلك ورفض من لم يقل ذلك لان من لا يقر بخلق القرآن يعزل اذا كان قاضيا ، ولا تقبل شهادته ان تقدم للشهادة .

واخيرا انهى المأمون كتابه الى اسحاق بن ابراهيم طالبا منه ان يرسل اليه سبعة من كبار المحدثين وهم محمد بن سعد كاتب الواقدي ، وابو مسلم مستملي يزيد ابن هارون ، ويحيى بن معين ، وزهير بن حرب ابو خيثمة ، واسماعيل بن داود ، واسماعيل بن ابي مسعود ، واحمد بن الدروقي ، فأشخصوا فسألهم وامتحنهم عن خلق القرآن فأجابوا جميعا ان القرآن مخلوق فأعادهم الى بغداد وامر اسحاق ان يجمع الفقهاء والمشايخ من اهل الحديث في داره وان يقول امامهم هؤلاء السبعة بمثل ما قالوا به امام المأمون ففعلوا وخلّي سبيلهم[١] .

ولقد أورد احمد امين في كتابه ضحى الاسلام[٢] نماذج من الأسئلة التي طرحها اسحاق بن ابراهيم على مشاهير العلماء والاجوبة التي تلقاها ، والتي ارسلها الى المأمون ، كما اورد ايضا نماذج من الأسئلة التي طرحها الخليفة المعتصم بحضور القاضي احمد بن ابي داود على احمد بن حنبل الذي امتنع عن القول بخلق القرآن حتى انتهى به الأمر الى اعادته الى السجن وضربه بالسياط ثمانية وثلاثين سوطا حتى سال الدم منه وتعددت فيه الجراحات ثم ارسل الى السجن وارسل اليه طبيب يعالجه حتى برىء[٣] .

واستمر القول بخلق القرآن ايام الواثق الذي امر بامتحان الناس اجمعين

---

(١) ابن طيفور بغداد في تاريخ الخلافة العباسية ص ١٨٧ .
(٢) أمين ، أحمد ضحى الاسلام ج ٣ ص ١٧٣ ـ ١٧٥ .
(٣) نفس المرجع ص ١٨٠ ـ ١٨١ .

حتى ملئت السجون ممن انكر المحنة حتى ان مجالس الخاصة والعامة كانت تلوك هذه المسألة ، واذا جلس عالم مجلسا سأله سائل ، هل القرآن مخلوق ؟ واذا خلا الناس بعضهم الى بعض تحدثوا في اخبار خلق القرآن ومن حقد على آخر واراد ان يدس عليه اتهمه بأنه يقول القرآن غير مخلوق ، الى ان جاء المتوكل فأعلن سنة ٢٣٤ هـ . ابطال القول بخلق القرآن(١) .

وصار احمد بن نصر بن مالك الخزابي الى ابن ابي داود في بعض اموره فردّه فانصرف ذاما له فجعل ابن ابي داود يبسط عليه لسانه ويشهد بالكفر ، فكتب الواثق الى اسحاق في اشخاصه اليه فكلمه بكلام غليظ ، وحضر قوم فشهدوا عليه بشهادات وامتحنه في القرآن فأبى ان يقول انه مخلوق وشتمه فرد عليه فضرب عنقه وصلبه بسر من رأى ووجه برأسه ونصب ببغداد في الجانب الشرقي(٢) .

الفداء الرابع :

عام ٢٤١ هـ/ ٨٥٥ م ، هاجم الروم مدينة عين زربة(٣) واسروا قبيلة الزط بنسائها واطفالها ودوابها(٤) ، وقبيلة الزط اصلها من الهند ، والزط يسمون اليوم في سوريا بالنور ، واللفظ العربي آت من الهندية حط ، وقد نقل معاوية اسرا عديدة من الزط من البصرة الى سوريا سنة ٦٧٠ م . ثم نقل الوليد وزيد في النصف الاول من القرن الثامن الميلادي جماعة اقروها في انطاكية والمصيصة على تخوم الروم ، حيث كان في انطاكية في القرن التاسع الميلادي حي يسمى حي الزط(٥) وقد اغتنم الزط فرصة الاضطراب الذي سببه حرب الاخوين

---

(١) نفس المرجع ص ١٨٣ - ١٨٥ - ١٩٨ .

(٢) اليعقوبي تاريخه ج ٢ ص ٤٨٢ .

(٣) بلد بالثغر من واحي المصيصة . استولى عليها الروم فخربوها وانفق عليها سيف الدولة ثلاث الاف الف درهم حتى اعاد عمارتها ، ثم استولى عليها الروم ايام سيف الدولة . ياقوت . **معجم البلدان** ج ٤ ص ١٧٨ .

(٤) ابن كثير **البداية والنهاية** ص ٣٢٥ . فازيلييف . **العرب والروم** ص ١٩٦ .

(٥) فازيلييف . **العرب والروم** ص ١٩٦ .

الامين والمأمون ولدي الرشيد في النصف الاول من القرن التاسع الميلادي ، واخذت قبيلتهم تعد نفسها مستقلة تقريبا حتى اضطرت الحكومة العربية ان تشن عليهم عدة حملات مظفرة ، حيث اقيم حفل النصر في بغداد ثلاثة ايام واسر منهم ٢٣ الفا ، حيث تم نقلهم الى خانقين ، ثم الى شمالي شرقي بغداد ، ثم نقلوا الى عين ظربة حتى تم اسرهم سنة ٢٤١ هـ / ٨٥٥ م[١] .

وقد بدت المفاوضات بين الخليفة المتوكل والامبراطورة الرومية تيودورا حيث بعثت رسلا الى الخليفة وحملتهم الهدايا فأرسل الخليفة نصر بن الازهر بن فرج الى البلاط الرومي وحمله الهدايا الثمينة ليعلم عن يقين عدد من عند الروم من اسرى المسلمين فكانت عدتهم عشرين الفا تقريبا[٢] حيث كانوا يلاقون كل الوان التعذيب حتى ان كثيراً منهم اضطر الى الدخول في المسيحية[٣] ، هذا وقد كانت تيودورا قد عرضت النصرانية على من كان في يدها من الاسرى فمن اجابها الى النصرانية والا قتلته ، فقتلت اثني عشر الفا وتنصر بعضهم وبقي منهم الذين تم فداؤ هم وعددهم قريب من الـ ٩٠٠ رجالاً ونساء[٤] ويقال ان قنفلة الخصي كان يقتلهم من غير امرها[٥] وكان يومئذ قوي النفوذ[٦] .

كيف تمت عملية الفداء :

ارسلت تيودورا صاحبة الروم (ام ميخائيل بن تيوفيل) رجلا يقال له جورجس بن قريانوس يطلب الفداء لمن في ايدي الروم من المسلمين[٧] ، وقد طلب هذا الاخير وقتا طويلا يتسع لجمع الاسرى وارجاعهم الى بلادهم فطلب

---

(١) فازيلييف العرب والروم ص ١٩٦ .

(٢) نفس المرجع ص ١٩٧ . حسن ابراهيم حسن . تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ص ٢٣١ ـ ٢٣٢ .

(٣) ابن كثير . البداية والنهاية ج ١٠ ص ٣٢٥ . الطبري . تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٢٠٢ .

(٤) الطبري . تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٢٠٢ .

(٥) ابن الاثير . الكامل في التاريخ ج ٧ ص ٧٦ ـ ٧٧ .

(٦) الطبري . تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٢٠٢ .

(٧) فازيلييف . العرب والروم ص ١٩٧ .

(٨) الطبري . تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٢٠٢ .

في خطاب بعثه الى الخليفة هدنة حددها من ١٩ نوفمبر سنة ٨٥٥ م الى ٥ مارس سنة ٨٥٦ م (٢٤١ هـ - ٢٤٢ هـ) . ووصل الخطاب في ١٩ نوفمبر فأجاب الخليفة الى ما فيه ، وفي ٦ ديسمبر قصد جورجس الثغور واستؤجر له سبعون بغلة ، وكان معه ابو قحطبة الطرسوسي المغربي وخمسون بطريقا وخادما[١] .

وخرج شنيف الخادم وطلب الخليفة المتوكل من قاضي القضاة جعفر بن عبد الواحد أن يحضر الفداء ويستخلف على القضاء من يقوم مقامه[٢] ، وقد خلف ابنه ابا الشوارب ، وحمل معه مبلغا كبيرا من المال وانضم الى شنيف وحضر الفداء[٣] .

كما حضره أيضا علي بن يحيى الارمني صاحب الثغور الشامية[٤] .

وقد وصف البحتري كيفية قدوم وفد الروم الذي جاء الى المتوكل لفداء لاسرى قائلا :

لا يعـدم منـك المسلمـون فـانهم ... في ظـل ملكـك ادركـوا مـا أملّوا
حصّنت بيضتهم وحـطت حـريمهم ... وحملت من أعبـائهم مـا استثقلوا
فـاديت بـالاسرى وقـد غلقـوا فـلا ... مـن يـنـال ولا فـداء يـقـبـل
ورأيت وفـد الـروم بعـد عنـادهم ... عـرفـوا فضـائلك التي لا تجهـل
نـظروا اليـك فقـدسـوا ولـو أنهم ... نـطقـوا الفصيـح لكبـروا وهللوا
لحـظوك اول لحـظة فـاستصغـروا ... مـن كـان يعـظم فيهم ويبـجـل
أحضـرتهم حججـا لـو اجتلبت بهـا ... عـضم الحبـال لاقبلت تتنـزل
ورأوك وضـاح الجبـين كـما يـرى ... قمـر السماء التم لـيلة يكمـل
حضروا[٥] السماء فكلما راموا القرى[٦] ... مـالـت بأيـديهم عـقـول ذهـل[٧]

(١) فازيلييف . العرب والروم ص ١٩٨ الطبري . تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٢٠٢ .
(٢) ابن الاثير . الكامل في التاريخ ج ٧ ص ٧٦ - ٧٧ .
(٣) فازيلييف . العرب والروم ص ١٩٩ .
(٤) المسعودي . التنمية والاشراف ص ١٦٢ . المقريزي . خطط ج ٢ ص ١٩١ . اليعقوبي . تاريخه ص ٤٩٠ .
(٥) السماط : صف الجنود الذين يتقدمون بين يدي الملك . وسماط الطعام ما يبسط ليوضع عليه . يشير هنا الى دهشة وفد الروم من عظمة العربي وهم يتبادلين الطعام على سماطه .
(٦) القرى : ما يقدم للضيف .
(٧) البحتري : الديوان قصيدة ٦٢٩ ص ١٥٩٩ .

وقد جرى هذا الفداء على ضفاف نهر اللامس وعبر الاسرى على الطريقة المتبعة من قبل ، وكان الفداء يوم الفطر الذي يتبع شهر الصيام اي اول شوال[١] وقيل يوم الاحد لاثنتي عشر ليلة خلت من شوال سنة ٢٤١ هـ[٢]، وكان عدة من فودى به من المسلمين في سبعة ايام الفين ومائتين وقيل الف رجل ومائتي امرأة وكان من الروم من النصارى المأسورين من ارض الاسلام مائة رجل ونيف وعوضوا مكانهم عدة اعلاج اذ كان الفداء لا يقع على نصراني ولا ينعقد[٣].

أما الطبري فيقول ان اسرى المسلمين بلغ ٧٨٥ انسان ومن النساء ١٢٥ امرأة ، ويؤيده في ذلك ابن اثير[٤] وكان ممن افتدى نحو مائة مسيحي اخذهم الروم في الحروب السابقة وكانت فديتهم اقل من فدية المسلم[٥].

الفداء الخامس

أسبابه :

أسر المسلمون سنة ٢٤٥ هـ . بقيادة علي بن يحيى الارمني صاحب الثغور الشامية احد البطارقة الروم واسمه لغثيط وقد ادخله علي بن يحيى الارمني الى الخليفة المتوكل الذي دفعه الى الفتح بن خاقان حيث عرض عليه الاسلام وتهدده بالموت ان رفض فأبى الاسلام فقال له الفتح بن خاقان : نقتلك فقال البطريق : انتم أعلم[٦].

أما فازيلييف فيرى بأن أهل حصن لؤلؤة وكان في يد الروم طردوا واليهم فأرسل ميشيل اليهم بطريقا وعد كلا منهم بألف دينار ان سلموا له المدينة فأدخلوه المدينة ثم أسلموها واسلموه الى القائد العربي بلكجور (مارس سنة ٧٦٠م .) وأصبح البطريق في خطر عظيم[٧].

(١) فازيلييف : العرب والروم ص ١٩٩ .
(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٢٠٣ .
(٣) المسعودي . التنبيه والاشراف ص ١٦٢ . المقريزي . خطط ج ٢ ص ١٩٩ .
(٤) الطبري . تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٢٠٣ .
ابن الاثير . الكامل في التاريخ ج ٧ ص ٧٦ .
(٥) فازيلييف . العرب والروم ص ١٩٩ .
(٦) الطبري . تاريخ الرسل والملوك ج ١١ ص ٦٠ .
(٧) فازيلييف . العرب والروم ص ٢٠٨ .

وقلق الامبراطور البيزنطي على مصير رسوله فكتب الى الخليفة المتوكل ووعد بفدية لهذا الاسير بألف اسير مسلم(١) .

وكان الامبراطور قد علم بخيانة اهل لؤلؤة في الوقت الذي وصلت فيه الى عاصمته الوفادة الاسلامية والتي كان يرأسها نصر بن الازهر الطائي الشيعي من شيعة ولد العباس(٢) .

كيف تمت عمليته؟

ذكر نصر بن الازهر وصفا لكيفية استقباله في البلاط البيزنطي قائلا : لما صرت الى القسطنطينية حضرت دار ميخائيل الملك بوادى وسيفي وخنجري وقلنسوتي فجرت بيني وبين خال الملك بطرناس(٣) المناظرة ـ وهو القيم بشأن الملك ـ وأبوا ان يدخلوني بسيفي وسوادي فقلت : انصرف فانصرفت فرددت من الطريق ومعي الهدايا نحو من الف نافجة مسك وثياب حرير وزعفران كبير وظرائف وقد كان اذن لوفود برجان وغيرهم ممن ورد عليه وحملت الهدايا التي معي فدخلت عليه فاذا هو سرير فوق سرير واذا البطارقة حوله قيام فسلّمت ثم جلست على طرف السرير الكبير وقد هيء لي مجلس ووضعت الهدايا بين يديه ثلاثة تراجمة : غلام فراش كان لمسرور الخادم وغلام لعباس بن سعيد الجوهري وترجمان له قديم يقال له سرجون فاقبلوا يترجمون ما اقول فقبل الهدايا ولم يأمر لاحد منهم بشيء ، وقرّبني واكرمني قال فتغافل عني نحوا من اربعة اشهر حتى اتاه كتاب مخالفة اهل لؤلؤة واخذهم رسله واستيلاء العرب عليها فراجعوا مخاطبتي وانقطع الامر بيني وبينهم في الفداء على ان يعطوا جميع من عندهم واعطي جميع من عندي وكانوا اكثر من الف قليلا ، وكان جميع الاسرى الذين في ايديهم اكثر من الفين منهم عشرون امرأة معهن عشرة من الصبيان . . . ثم خرجت من عنده بالاسرى بأحسن حال حتى اذا جئنا موضع الفداء اطلقنا

---

(١) الطبري . تاريخ الرسل والملوك ج ١١ ص ٦٠ ، فازيلييف . العرب والروم ص ٢٠٨ .

(٢) فازيلييف . العرب والروم ص ٢٠٨ .
المسعودي . التنبيه والاشراف ص ١٦٢ .
المقريزي . خطط ٢ ص ١٩١ .

(٣) فازيلييف . ذكر انه ببروناس . العرب والروم ص ٢٠٨ .

هؤلاء جملة وهؤلاء جملة وكان عداد من صار في ايدينا من المسلمين اكثر من الفين[١] منهم عدة ممن تنصر وصار في ايديهم اكثر من الف قليلا وكان قوم تنصروا فقال لهم ملك الروم : لا اقبل منكم حتى تبلغوا موضع الفداء فمن اراد ان اقبله في النصرانية فليرجع من موضع الفداء والا فليمض ويمضي مع اصحابه وأكثر من تنصر من اهل المغرب واكثر من تنصر بالقسطنطينية وكان هناك صائغان قد تنصرا فكانا يحسنان الى الاسرى فلم يبق في بلاد الروم من المسلمين ممن ظهر عليه الملك الا سبعة نفر خمسة أتي بهم من صقلية اعطيت فداءهم على ان يوجه بهم الى صقلية ورجلين كانا من رهائن لؤلؤة فتركتهما، قلت : اقتلوهما فانهما رغبا في النصرانية[٢].

ويتضح من الرجوع الى عمليات الفداء انه كانت تقوم هدنة بعد كل عملية تبادل للاسرى تحدد مدتها في غالبية الاحيان بأربعة اشهر ، غير انه لم تعقد اية هدنة بعد الفداء الخامس الذي لم يكن يحمل اي معنى سياسي والذي لم تكد عمليته التقليدية تنتهي حتى تحرك الامبراطور البيزنطي لقتال العرب في الوقت الذي كان الروس الصقالبة قد ظهروا فجأة ولأول مرة امام اسوار القسطنطينية يحاصرونها[٣].

وذكر المسعودي ان فداء كان في ايام المتوكل سنة ٢٤٧ هـ . /٨٦١م. على يد محمد بن علي[٤].

وذكر المقريزي[٥] ان فداء كان في ايام المعتز والملك على الروم بسيل على يد شفيع الخادم سنة ٢٥٣ هـ. /٨٦٨م.

---

(١) ذكر المسعودي ان عدد من فودي به من المسلمين ٢٣٦٧ من ذكر وانثى . المسعودي . التنبيه والاشراف ص ١٦٢ .

(٢) الطبري . تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٢١٩ وما يليها .
فازيلييف . العرب والروم ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠ .

(٣) مصطفى ، شاكر دولة بني العباس ج ٢ ص ٥٨٠ .

(٤) المسعودي . التنبيه والاشراف ص ١٦٦ .

(٥) المقريزي . خطط ج ٢ ص ١٩١ .

وفي سنة ٢٥٨ هـ. /٨٧٢ م. تمت عملية فداء على نهر اللامس وذلك بعدما غزا الصائفة محمد بن علي بن يحيى الارمني وقدم شنيف الخادم مولى المتوكل للفداء فاجتمعوا بنهر اللامس ففادوا وشرطوا للروم هدنة اربعة اشهر وكان ذلك في شهر رمضان سنة ٢٥٨ هـ . أيام الخليفة المعتمد[١].

الفداء السادس

حدث هذا الفداء سنة ٢٨٣ هـ . على يد احمد بن طفان في خلافة المعتضد باللامس والملك على الروم أليون بن بسيل ابو قسطنطين بن أليون الملك . واحمد بن طفان امير الثغور الشامية وانطاكية من قبل ابي الجيش خمارويه بن احمد بن طولون صاحب مصر واجناد الشام وديار مصر وغيرها[٢].

كيف حصل هذا الفداء ؟

سنة ٢٨٢ هـ . وقعت الهدنة بين الدولتين البيزنطية والاسلامية في ايام ابي الجيش فقتل ابو الجيش بدمشق في ذي العقده من تلك السنة[٣]، وورد كتاب من عامل ثغر طرسوس الى المعتضد يخبره بانجاز عملية الفداء سنة ٢٨٣ هـ. قائلا :

بسم الله الرحمن الرحيم .

أعلمك ان احمد بن طغان نادى في الناس يحضرون الفداء يوم الخميس لاربع خلون من شعبان سنة ٢٨٣ هـ . وانه قد خرج الى لامس - وهو معسكر المسلمين - يوم الجمعة لخمس خلون من شعبان وامر الناس بالخروج معه في هذا اليوم فصلّى الجمعة وركب من مسجد الجامع وخرج معه وجوه البلد والموالي والقواد والمطوعة بأحسن زي فلم يزل الناس خارجين الى لامس الى يوم الاثنين لثمان خلون من شعبان وجرى الفداء بين الفريقين اثني عشر يوماً ، وتم الفداء

(١) اليعقوبي . تاريخه ج ٢ ص ٥١٠ .
المسعودي . التنبيه والاشراف ص ١٦٦ .

(٢) المسعودي . التنبيه والاشراف ص ١٦٣ .

(٣) نفس المصدر ص ١٦٣ .

في ايام ولده جيش ابن خمارويه وكانت جملة ما فودى به من المسلمين من الرجال والنساء والصبيان ٢٥٠٤ انفس واطلق المسلمون يوم الثلاثاء لسبع بقين من شعبان «اسميون» رسول ملك الروم واطلق الروم فيه يحيى بن عبد الباقي رسول المسلمين المتوجه في الفداء وانصرف الامير ومن معه[١].

وقيل ان عدة من فودي به من المسلمين في عشرة ايام ٢٤٩٥ من ذكر وانثى وقيل ثلاثة آلاف رجل[٢] .

وفي سنة ٢٩٠ هـ ورد رسولا صاحب الروم احدهما خادم والآخر فحل يسأله الفداء (زمن الخليفة المكتفي) بمن في يده من المسلمين اسرى ومعهما هدايا من صاحب الروم واسارى من المسلمين بعثت بهم اليه فأجابهما الى ما سألا وخلع عليهما[٣] .

الفداء السابع :

فداء رستم ويعرف بفداء الغدر في خلافة المكتفي باللامس لست بقين من ذي العقدة سنة ٢٩٢ هـ والملك على الروم أليون بن بسيل والقيم به رستم بن برد والقرغاني امير الثغور الشامية وكان عدة من فودي به من المسلمين في أربعة ايام ١١٦٥ من ذكر وانثى ، ثم غدر الروم وانصرفوا ورجع المسلمون بمن في أيديهم من أسارى الروم[٤] وقد عرف هذا الفداء بفداء الغدر لأن الروم غدروا وانصرفوا ببقية الاسرى[٥] .

وفي سنة ٢٩٤ هـ . غزا ابن كيلغ من طرسوس فأصاب من العدو اربعة آلاف رأس سبي وكاتب اندروفقس البطريق السلطان يطلب الامان وكان على حرب أهل الثغور من قبل صاحب الروم فأعطي ذلك فخرج واخرج نحوا من

---

(١) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ج ١٠ ص ٤٦ .
(٢) المسعودي . التنبيه والاشراف ص ١٦٣ .
(٣) الطبري . تاريخ الرسل والملوك ج ١٠ ص ١٠٧ .
(٤) المسعودي . التنبيه والاشراف ص ١٦٣ . الطبري . صلة ص ١٧ .
(٥) المقريزي . خطط ٢ ص ١٩٢ .

مائتي نفس من المسلمين كانوا اسرى في حصنه وكان صاحب الروم قد وجه اليه من يقبض عليه فأعطى المسلمين الذين كانوا في حصنه اسرى السلاح واخرج معهم بعض بنيه فكسبوا البطريق الموجه اليهم للقبض عليه ليلا فقتلوا ممن معه خلقا كثيرا وغنموا ما في عسكره[1] .

وفي نفس السنة وافى ملك الروم باب الشماسية بكتاب الى المكتفي يسأله الفداء بمن معهم من المسلمين لمن في أيدي الاسلام من الروم ، فدخلوا بغداد ومعهم هدية كبيرة وعشرة من أسارى المسلمين[2] .

الفداء الثامن :

وفي شوال سنة ٢٩٥ هـ . كان الفداء بين المسلمين والروم في ذي العقدة ففدى من كان عندهم من الرجال ثلاثة آلاف نفس[3] وهذا فداء رستم ايضا ويعرف بفداء التمام في خلافة المكتفي باللامس ، والملك على الروم أليون والقيم به رستم بن بردو . وقد اختلف المسعودي مع الطبري في عدد من فودي به فقال انه بلغ ٢٨٤٢ من ذكر وانثى[4] .

وفي سنة ٢٩٨ هـ . قدم القاسم بن سيما من غزاة الصائفة الى الروم ومعه خلق كثير من الأسرى وخمسون علجا قد حملوا على الجمال مشهورين بأيدي جماعة منهم اعلام عليها صلبان الذهب والفضة وذلك يوم الخميس لأربع عشر ليلة بقيت من شهر ربيع الأول .

الفداء التاسع :

وصف احمد بن مسكويه[5] مراسيم استقبال وفد الروم في البلاط العباسي

---

(١) الطبري . تاريخ الرسل والملوك ج ١٠ ص ١٣٤ .
(٢) الطبري . صلة ص ٢٤ .
الطبري . تاريخ الرسل والملوك ج ١٠ ص ١٣٨ .
(٣) نفس المصدر ص ٢٦ .
(٤) المسعودي . التنبيه والاشراف ص ١٦٣ ـ ١٦٤ .
(٥) مسكويه ، (احمد بن) تجارب الأمم ج أول ص ٥٣ ـ ٥٥ .

زمن الخليفة المقتدر الذي جاء يطلب الفداء بما يلي :

سنة ٣٠٥ هـ . ورد رسولان لملك الروم الى مدينة السلام على طريق الفرات بهدايا عظيمة وألطاف كثيرة يلتمسان الهدنة وكان دخولهما يوم الاثنين لليلتين خلتا من المحرم فانزلا في دار صاعد بن خلد وتقدم ابو الحسن بن الفرات بأن يفرش لهما ويعد فيه كل ما يحتاجان اليه من الآلات والأواني وجميع الاصناف وان يقام لهما ولمن معهما الانزال الواسعة والحيوان الكثير والحلاوة حتى يتسع بذلك كل من معهما ، والتمسا الوصول الى المقتدر بالله ليبلغاه الرسالة التي معهما ، فأعلما ان ذلك متعذر صعب لا يجوز الا بعد لقاء وزيره ومخاطبته فيما قصدا اليه وتقرير الأمر معه والرغبة اليه في تسهيل الاذن على الخليفة والمشورة عليه بالاجابة الى ما التمسا . فسأل ابو عمر عدي بن عبدُ الباقي الوارد معهما من الثغر أبا الحسن بن الفرات الاذن لهما في الوصول اليه فوعده بذلك في يوم ذكره له ، وتقدم الوزير بأن يكون الجيش مصطفا من دار صاعد الى الدار التي اقطعها بالمخرم وان يكون غلمانه وحده وخلفاء الحجاب المرسومين بداره منتظمين من باب الدار الى موضع مجلسه ، وبسط له في مجلس عظيم مذهب السقوف في دار منها يعرف بدار البستان بالفرش الفاخر العجيب وعلقت الستور التي تشبه الفرش واستزاد في الفرش والبسط والستور ما بلغ ثمنه ثلاثين الف دينار ولم يبق شيء تجمل به الدار ويفخم به الأمر الا فعل وجلس على مصلّى عظيم ، من ورائه مسند عال والخدم بين يديه وخلفه وعن يمينه وشماله والقواد والأولياء قد ملأوا الصحن ، ودخل اليه الرسولان فشاهدا في طريقهما من الجيش وكثرة الجمع ما هالهما ، ولما دخلا دار العامة اجلسهما الحاجب في رواقها والرجال قد امتلأت بهم الدار ثم اخذ بهما في ممر طويل من وراء هذا الرواق حتى أخرجهما الى صحن البستاني ثم عدل بهما الى المجلس الذي كان الوزير جالسا فيه فشاهدا من بهاء المجلس والفرش الذي فيه وكثرة الجمع منظرا عجيبا جليلا . وكان معهما ابو عمر ابن عبد الباقي يترجم عنهما ولهما وحضر نزار بن محمد صاحب الشرطة في جميع رجاله فأقيما بين يدي الوزير ابي الحسن ابن الفرات فسلما وترجم لهما ابن عبد الباقي ما قالا فأجابهما بما ترجمه لهما ، ورغبا في ايقاع الفداء ومسألة المقتدر بالله الاجابة اليه فأعلمهما انه يحتاج الى مخاطبته فيما

ذكراه ثم العمل فيه بما يرسمه والتمسا منه ايصالهما اليه فوعدهما به ، واخرجا من بين يديه واخذ بهما في الطريق الذي دخلا منه وعادا الى دار صاعد والجيش منتظم طول الطريق بأحسن زي واكمل هيئة . وكان زيهما دراريع ديباج ملكية ووقايات وفوق الوقايات قلانس ديباج محدودة الرؤوس . وخاطب ابن الفرات المقتدر بالله في ايصالهما اليه وواقفه على ما يجيبهما به وتقدم الى سائر الأولياء والقواد وسائر اصناف الجيد بالركوب الى دار السلطان وان يكونوا منتظمين للظهر من دار صاعد الى دار السلطان فركبوا ووقفوا في الطريق على هذا الترتيب في الزي الحسن والسلاح التام وتقدم بأن تشحن رحاب الدار والدهاليز والممرات بالرجال والسلاح وان يفرش سائر القصر بأحسن الفرش ، ولم يزل يراعى ذلك حتى فرغ من جميعه ثم انفذ الى الرسولين بالحضور فركبا الى الدار على الظهر وشاهدا في طريقهما من الجيش وكثرته وحسن زيّه وتكامل عدته امرا عظيما . ولما وصلا الى الدار اخذ بهما في ممر يفضي الى صحن من تلك الصحون ثم عدل بهما الى ممر آخر وأخرجا منه الى صحن اوسع من الأول ولم تزل الحجاب يخترقون بهما في الصحون والممرات محشوة بالغلمان والخدم الى ان قربا من المجلس الذي فيه المقتدر بالله والأولياء وقوف على مراتبهم والمقتدر جالس على سرير ملكه وابو الحسن ابن الفرات واقف بالقرب منه ومونس الخادم ومن دونه من الخدم وقوف عن يمينه ويساره . فلما دخلا الى المجلس قبلا الأرض ووقفا حيث استوقفهما نصر الحاجب[1] واديا اليه رسالة صاحبهما في الفداء ورغبا في ايقاعه . فأجابهما الوزير عنه بأن يفعل ذلك رحمة للمسلمين ورغبة في فكهم وايثارا لطاعة الله عز وجل خلاصهم وانه ينفذ مونسا لحضور ذلك . ولما خرجا من حضرته خلع عليهما مطارف خز مذهبه ، وعمائم خز وخلع على ابي عمر ايضا وانصرف على الظهر معهما والجيش على حاله منتظم للفداء ، فتأهب لذلك وابتيع من التمس الرسل ابتياعه من الروم المطلوبين واطلق له وللقواد الشاخصين معه ، من بيت المال بالحضرة مائة الف وسبعون الف دينار ، وكتب الى العمال في طريقه بازاحة علته فيما يلتمسه وحمل الى كل واحد من الرسولين

(١) من اشهر حجاب دار الخلافة الصابىء ، الهلال رسوم دار الخلافة ص ١٢ .

عشرون الف درهم صلة لهما وخرجا مع مونس ومعهما ابو عمر[1] .

وقد سمي هذا الفداء بفداء مؤنس وقد جرى في شهر ربيع الاول سنة ٣٠٥ هـ . والملكان على الروم قسطنطين بن اليون وارمانوس ، وكان قسطنطين يومئذ في حجره ، وكان القيم به مؤنس الخادم وبشرى الخادم الافشيني امير الثغور الشامية وانطاكية والمتوسط له والمعاون عايه ابو عمير عدي بن احمد بن عبد الباقي التميمي الادنى (من اهل اذنه) وعدة من فودي به في ثمانية ايام ثلاثة آلاف وثلاثمائة وست وثلاثين من ذكر وانثى[2] .

وفي هذا الفداء اطلق ابو الهيجا عبد الله بن حمدان واخوته من الحبس في دار السلطان وخلع عليهما خلعة الرضا[3] .

الفداء العاشر :

فداء مفلح في خلافة المقتدر ايضا بالـلامس في رجب سنة ٣١٣ هـ . والملكان على الروم قسطنطين وارمانوس . وكان القيم به مفلح الخادم الاسود المقتدري وبشرى خليفة ثمل الخادم الدلفي على الثغور الشامية ، وعدة من فودي به من المسلمين في تسعة عشر يوما ثلاثة آلاف وتسعمائة وثمانون من ذكر وانثى[4] .

الفداء الحادي عشر :

فداء ابن ورقاء في خلافة الراضي باللامس في آخر ذي القعدة وايام من ذي الحجة سنة ٣٢٦ هـ . والملكان على الروم قسنطين وأرمانوس ، وكان القيم به ابن ورقاء الشيباني من قبل الوزير الفضل بن جعفر بن الفرات وبشرى الثملي

(١) مسكويه ، احمد بن تجارب الامم ج ١ ص ٥٤ ـ ٥٥ .
(٢) المسعودي . التنبيه والاشراف ص ١٦٤ .
(٣) مسكويه ، احمد بن تجارب الامم ج ١ ص ٥٥ وما يليها .
الصابىء ، الهلال . رسوم دار الخلافة ص ١١ ـ ١٢ .
(٤) المسعودي . التنبيه والاشراف ص ١٦٤ .

امير الثغور الشامية ، وكان عدة من فودي به من المسلمين في ستة عشر يوما ستة آلاف وثلاثمائة ونيفا من ذكر وانثى ، وفضل في ايدي الروم من المسلمين ثمانمائة رجل ردوا وفودي بهم على نهر البدندون في مرارشتي[١] .

وزيد في الهدنة بعد انقضاء الفداء ستة اشهر ، لأجل من تخلف في أيدي الروم من المسلمين ، حتى جمع الاسارى لهم[٢] .

ويتضح من ذلك ، ما من عملية فداء الا وتسبقها هدنة يعمل خلالها الطرفان للحصول على جميع اسراه ويمكن تمديدها فيما لو انقضت مدتها وبقي اسرى لدى احد الطرفين . فالنظام المتبع في تبادل الاسرى منذ الفداء الاول بقي محافظا عليه في كل عمليات تخليص الأسرى .

الفداء الثاني عشر[٣] :

سمي بفداء ابن حمدان في خلافة المطيع باللامس في شهر ربيع الأول سنة ٣٣٥ هـ . والملك على الروم قسطنطين .

وكان القيم به نصر الثملي امير الثغور الشامية من قبل ابي الحسن علي بن عبد الله بن حمدان صاحب جند حمص وجند قنسرين وديار مضر وديار بكر والثغور الشامية والجزرية .

وكان عدة من فودي به من المسلمين الفين واربعماية واثنين وثمانين من ذكر وانثى وفضل للروم على المسلمين قرضا مائتان وثلاثون لكثرة من كان في ايديهم ، فوفاهم ابو الحسن ذلك وحمله اليهم .

وكان الذي شرع في هذا الفداء وابتدأ به الاخشيد محمد بن طغج امير مصر والشام والثغور الشامية ، وكان ابو عمير عدي بن احمد بن عبد الباقي الآذاني شيخ الثغر والمنظور اليه منهم قدم اليه الى دمشق في ذي الحجة سنة

---

(١) المسعودي التنبيه والاشراف ص ١٦٤ .

(٢) المسعودي . التنبيه والاشراف ص ١٦٤ .

(٣) نفس المصدر ص ١٦٥ .

٣٣٤ هـ . والمسعودي بها ومعه يوانس الانسيبطوس البطريقوس المرقوص المترهب ، رسول ملك الروم في اتمام هذا الفداء . وكان ذا رأي وفهم بأخبار ملوك اليونانيين والروم ، ومن كان في اعصرهم من الفلاسفة ، وقد اشرف على شيء من آرائهم . وكان الاخشيد حينئذ شديد العلة فتوفي يوم الجمعة لثمان خلون من ذي الحجة من تلك السنة ، وسار ابو المسك كافور الاخشيدي بالجيش راجعا الى مصر ، وحمل معه ابا عمير والمسدقوس الى بلاد فلسطين ، فدفع اليها ثلاثين الف دينار من مال هذا الفداء . وصار الى مدينة صور فركبا في البحر الى طرسوس فإذا ما وصلا اليها كاتب بشرى الثملي امير الثغور الشامية ابا الحسن بن حمدان ودعا له على منابر الثغور الشامية ، فجدّ في اتمام هذا الفداء فعرف به ونسب اليه[١] .

وبهذا الفداء تنتهي عمليات الفداء المنظمة بين البيزنطيين والروم والتي جرت على اللامس من ساحل البحر الرومي ، والتي كانت تسبقها هدن للتمكن من القيام بها بالشكل المرسوم لها حتى انه اذا انتهت الهدنة وبقي اسرى لدى احد الطرفين كانت تمدد لفترة اخرى حتى لا يبقى أي أسير لدى الطرفين .

ولقد ذكر المسعودي ان عددا من الافدية التي لم تأخذ اهمية والتي لم يجد لها حقيقة منها فداء كان في ايام المهدي على يد المعروف بالنقاش الانطاكي . فداء كان في أيام الرشيد في شوال سنة ١٨١ هـ . على يد عياض بن سنان امير الثغور الشامية[٢] . بينما ذكر ابن الاثير ان القاسم بن الرشيد كان يمثل الدولة العباسية في هذا الفداء[٣] .

(١) المسعودي . التنبيه والاشراف ص ١٦٥ .

(٢) المسعودي التنبيه والاشراف ص ١٦٦ .

(٣) ابن الاثير الكامل في التاريخ ج ٢ اخبار سنة ١٨١ هـ .

الأفدية زمن الحمدانيين

مقدمة :

لم تنته الغزوات بين الدولتين المتجاورتين بانتهاء الفداء الثاني عشر ، بل استمرت واستمر معها الاسر من كلا الطرفين .

ففي سنة ٣٤٢ هـ . غزا سيف الدولة نواحي ملطية فسبى واحرق وبلغ مبلغا عظيما ، وفتح حصن عرقة واحرق مدينة ملطية ، وانصرف يريد الخروج فقدّم جماعة من الديلم الى الدرب فوجد الروم واسر الديلم ورجع سيف الدولة ودل على مخاضة للفرات فعبر منها الى بطن هنزيط[1] فقتل من اهله ما لا يعلم كثرته ، وانتهى اليه الخبر ان الدمستق قد خرج الى نواحي حلب بالغنائم والسبي فاتبعه ولحقه بناحية مرعش على نهر سيحان[2] ، ولم يصل الى ذلك الموقع مع سيف الدولة الا ٦٠٠ فارس فقاتلهم واسر جماعة منهم ابن الدمستق قسطنطين وعدد من البطارقة وخلّص جميع ما بأيديهم من الاسارى والغنائم

(١) من الثغور الرومية ، وهي في الاقليم الخامس ، طولها احدى وسبعون درجة وثلثان وعرضها تسع وثلاثون درجة ونصف وربع . ياقوت . معجم البلدان ج ٥ ص ٤١٨ .

(٢) نهر كبير بالثغر من نواحي المصيصة ، وهو نهر اذنه بين انطاكية والروم يمر بإذنه ثم ينفصل عنها نحو ستة أميال فيصب في بحر الروم .

ياقوت . معجم البلدان ج ٣ ص ٢٩٣ .

وانصرف سالما فدخل حلب وعقدت له القبات[1] .

وفي ذلك يقول المتنبي مادحا سيف الدولة ، موضحا هزيمة الدمستق وكيف تخلى عن ابنه واسلمه للأسر قائلا :

سرّبت الى جيحان من ارض آمد   ثلاثا لقد ادناك ركض وابعدا
فولى واعطاك ابنه وجيوشه   جميعا ولم يعط الجميع ليحمدا
عرضت له دون الحياة وطرفه   وابصر سيف الدولة منك مجردا
وما طلبت زرق الاسنة غيره   ولكن قسطنطين كان له الفدى
وأصبح يجتاب المسوح مخافة   وقد كان يجتاب الدلاص المسودا
وما تاب حتى غادر الكر وجهه   جريحا وخلى جفنه النقع ارمدا
وقد سار في الروم الدمستق باغيا   له ساعة نكراء في ندب نكد
وكمّن قسطنطين تحت صليبه   ومد القنا من فوق ارعن ممتد
واسلم قسطنطين للأسر فردس   وولى وقد حذته فوهاء في الخد[2]

فداء سنة ٣٤٢ هـ / ٩٥٢ م :

وذكر المقريزي[3] ان فداء حصل في الاسكندرية في شهر ربيع الاول سنة ٣٤٢ هـ . خرج فيه ابو بكر محمد بن علي المارداني من مصر ومعه الشريف ابو القاسم الرئيس والقاضي ابو جفص عمر بن الحسين العباسي وحمزة بن محمد الكتاني في جمع كبير وكانت عدة من فودي به من المسلمين ستين نفسا بين ذكر وانثى .

فداء سنة ٣٥٥ هـ / ٩٦٦ م :

بين سيف الدولة والروم البيزنطيين واطلاق سراح محمد بن ناصر الدولة :

سنة ٣٥٤ هـ . ورد الخبر باجابة نقفور الى ما طلبه سيف الدولة من

---

(١) كنار ، ماريوس . كتاب سيف الدولة هامش ص ١٠٣ .
(٢) المتنبي . الديوان ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧ .
(٣) المقريزي . خطط ج ٢ ص ١٩٢ ـ ١٩٣ .

الهدنة والفداء على ان يخرج بدل ابي الفوارس محمد بن ناصر الدولة ومن معه من بني عمه جماعة من البطارقة وان يفادي بغلمان سيف الدولة من الروم وان يبتاع من الاسرى ببلد الروم كل واحد بثمانين دينارا ، فأحضر سيف الدولة اثمان الفي رأس وذلك مائة وستون الف دينار فعاينها الرسول وجاءت كتب الطرسوسيين الى سيف الدولة ليأخذ منهم الاسارى فانهم عجزوا عن اقواتهم[1] .

وفي سنة ٣٥٥ هـ . قدم ابو الفوارس محمد بن ناصر الدولة من الاسر الى يافارقين[2] أخذته اخت الملك لتفادي به اخاها فجاء ستة آلاف فنفذ سيف الدولة اخاه في ثلاثمائة الى حصن الهناخ ، فلما شاهد بعضهم ببعض سرح المسلمون اسيرهم في خمسة فوارس وسرح الروم اسيرهم ابا الفوارس في خمسة فالتقيا في وسط الطريق وتعانقا ثم صار كل واحد الى اصحابه فترجلوا له وقبلوا الأرض ، ثم احتفل سيف الدولة لابن اخيه وحمل له الخيل والمماليك والعدد التامة ، فمن ذلك مائة مملوك بمناطقهم وسيوفهم وخيولهم ، وطال مقام سيف الدولة بميا فارقين فانفق في سنة وثلاثة اشهر نيفا وعشرين الف الف درهم ومائتين وستين الف دينار وتم الفداء في رجب ، فخلص من الاسر من بين امير الى راجل ثلاثة آلاف ومائتين وسبعون نفسا ، وارسل ابا القاسم الحسين بن علي المغربي لتقدير ذلك ومعه هدية بعشرة آلاف دينار منها ثلاثمائة مثقال مسك وانفق سيف الدولة على الفداء ثلاثمائة الف دينار[3] .

ولما لم يبق احد من اسرى الروم في الوقت الذي ظل فيه بعض اسرى المسلمين منهم غلامه رقطاش ، اشترى سيف الدولة كل رجل من المسلمين باثنين وسبعين دينارا كي يعيد له حريته ، فلما نفذ ما كان معه من المال رهن بدلته الجوهر المعدومة المثل وفدى بقية ابناء المسلمين[4] .

---

(١) مسكويه ، احمد بن تجارب الأمم ج ٢ هامش ص ٢١٢ .

(٢) اشهر مدينة بديار بكر ياقوت . معجم البلدان ج ٥ ص ٢٣٥ ـ ٢٣٨ .

(٣) مسكويه ، احمد بن تجارب الامم ج ٢ ص ٢٢٠ .

(٤) ابن العديم تاريخ حلب ج ١ ص ١٤٦ .

ولم يحدث الفداء على نهر اللامس كما جرت العادة لأنه اصبح داخل الاملاك البيزنطية ، ولقد قام الشاعر ابو فراس الحمداني بدور كبير في تقرير الهدنة والفداء[1] .

فداء ابي فراس الحمداني :

سنة ٣٤٩ هـ . خرج بردس الاسطرا طيغوس بن توذلس البطريق وهو ابن اخت ملك الروم في الف من وجوه الارمن والروم الى نواحي منبج[2] فصادف ابا فراس يتصيد في سبعين فارسا فأراده اصحابه على الهزيمة فأبى وثبت يقاتل حتى اثخن بالجراح واسر وكان في مجلس سيف الدولة ابن بردس الاسطرا طيغوس بن توذلس البطريق ، اسره يوم هزم جده الدمستق ، فلما حصل ابو فراس في يد بردس كتب الى سيف الدولة يسأله المفاداة به قائلا :[3]

دعوتك للجفن القريح المسهد[4] ... لدي ، وللنوم القليل المشرد
وما ذاك بخلاً بالحياة وانها ... لأول مبذول لأول مجتد[5]
وما الاسر مما ضقت ذرعا بحمله ... وما الخطب مما ان اقول له : قدي[6]
ولكنني اختار موت بني ابي ... على صهوات الخيل غير موسّد
وتأبى وآبى ان اموت موسّدا ... بأيدي النصارى موت اكمد[7] أكبد[8]
اقلب طرفي بين خل مكبل ... وبين صفي بالحديد مصفد[9]

ثم ينتقل الى الطلب من سيف الدولة بدعوته لفدائه مادحا اياه ، موضحا

---

(١) مسكويه ، احمد بن تجارب الامم ج ٢ حاشية ص ٢١٣ .

(٢) بلد قديم ، بينها وبين حلب عشرة فراسخ ، خرج منها جماعة من الشعراء منهم البحتري وله بها املاك . ياقوت . معجم البلدان ج ٥ ص ٢٠٥ .

(٣) ابو فراس الديوان ص ٨٢ ـ ٨٦ .

(٤) المحمول على السهر .

(٥) الطالب .

(٦) حسبي .

(٧) المتغير اللون .

(٨) المصاب في كبده .

(٩) مقيد بالاغلال والحديد .

له انه لا يخاف الموت الا لانه في دار النصارى قائلا :

دعوتـك والابواب ترتج بيننا ... فكن خير مدعـو واكرم منجـد
فمثلك من يدعى لكل عظيمة ... ومثـلي من يفـدى بكـل مسـوّد
أناديك اني لا اخاف من الردى ... ولا ارتجي تـأخير يـوم الى غـد
ولكن انفت الموت في دار غربة ... بأيدي النصارى الغلف ميتة اكمد
فلا تترك الاعداء حولي ليفرحوا ... ولا تقـطع التـآل عني وتقعـد
ولا تقعدن عني وقد سيم فديتي ... فلست عن الفعل الكريم بمقعد
فان مت بعد اليوم عابك مهلكي ... معـاب النزار بـين مهلك معبد
هم عضلوا عنه الفداء فأصبحوا ... يهذون اطراف القريض المقصد
ولم يـك بدعـا هلكه غـير انهم ... يعابون اذ سيم الفداء وما فدى
فلا كان كلب الروم أرأف منكم ... وارغب في كسب الثنـاء المخلد
فان تفتدوني تفتدوا شرف العلا ... واسـرع عـواد اليهـا معـود
وان تفتـدوني تفتـدوا بعـلاكم ... فتى غير مردود اللسـان او اكيد
يـدافع عن اعـراضكم بلسانـه ... ويضرب ء٠م بالحسـام المهند
فـلا كل من شـاء المعالي ينـالها ... ولا كل سيار الى المجـد يهتدى

الى ان يقول :

ولم ادر ان الدهر في عدد العدى ... وان المنايا السود يرمـين عن يد
بقيت ابن عبد الله تحمي من الردى ... ويفـديك منـا سيد بعـد سيـد
بعيشـة مسعـود وايـام سالم ... ونعمـة مغبـوط وحـال محسّـد
ولا يحـرمني الله قـربـك انـه ... مرادي من الدنيا وحظي وسؤددي

وفي سنة ٣٥٤ هـ . عندما جاء من بلد الـروم كتاب ابي فـراس بن حمدان من الأسـر بتصحيح امـر الفداء ونفـذ شرائط ملك الـروم وفيه خط ملك الـروم بالاحمر وخطوط بطارقته على أن يأخذوا عندهم ستة من بني حمدان ويأخـذ سيف الدولة عنده ستة من بطارقته ، كما وردت الاخبار ان ملك الروم ارسل الى اهل طرسوس يهادنهم على ان يخربوا سور المدينة وان يبنوا بيعة كانت لهم تخربت فلم

يجيبوا وحاصرهم وخرّب سورهم واخذت الروم ثغر المصيصة فقتلوا كل الرجال فلم يفلت منهم الا سبعة نفر[١] .

واستمر ابو فراس في الاسر يكتب لابن عمه سيف الدولة طالبا ان يفديه ، وهو الذي نشأ على المجد والترف وعاش عيشة الامراء فاذا هو اليوم في الاسر بين القيود ويطلب الفداء من ابن عمه فلا يلبي نداء ويتذكر ما له على امير حلب من اياد بيضاء ويقول مقابلا بين عيشته وعيشة ابن عمه قائلا :[٢]

يا واسع الدار كيف توسعها ... ونحن في صخرة نزلزلها
يا ناعم الثوب كيف تبدله ... ثيابنا الصوف ما نبدلها
يا راكب الخيل لو بصرت بنا ... نحمل اقيادنا وننقلها

ولكن هذه الحياة مهما قست فلن تفت من عزيمة الشاعر فهو لا يتهرب من ذلك ، يطلب الفداء ، يطلبه لأن هناك عجوزا تعقد على ابنها الآمال :

لولا العجوز بمنبج ... ما ذقت اسباب المنية
ولكان لي عما سألت ... من الفدى نفس أبيه
لكن اردت مرادها ... ولو انجذبت الى الدنية[٣]

على ان ابي فراس ، هذا الفارس الشجاع ، هذا الامير الذي يعاني في الاسر دروب الآلام والوان العذاب ، آلمه هذا النسق من العيش الجديد ، آلمه ان يغيب عن ام حنونة طالما ترقبت مجيئه ، آلمه ان يطلب الفداء من ابن عمه وان يسوّفه هذا الاخير ، آلمه أن والدته قصدت سيف الدولة من منبج تكلمه في مفاداة ابنها وتتضرع اليه ولم يكن عنده ما رجت من حسن الايجاب ، آلمه ان يوافق طلبه هذا عنفا من الدمستق بأبي فراس ومن معه من الاسرى وزيادة في ارهاقهم ، كتب الى سيف الدولة قائلا :[٤]

يا حسرة ما اكاد احملها ... آخرها مزعج وأولها

---

(١) مسكويه تجارب الامم ج ٢ هامش ص ٢١٣ .
(٢) أبو فراس شرح ديوانه ص ١٤٠ .
(٣) أبو فراس شرح ديوانه ص ٥٦ .
(٤) ابو فراس شرح ديوانه ص ١٤٠ .

عـليلة بـالـشـام مـفـردة   بـات بـأيـدي العـدى معللهـا

هـو يريـد الحياة رأفـة على امـه ولعله يوصيهـا بالصبـر ويكبر ثقتـه بالله ، قائلا : (١)

يـا امـتـاه لا تجـزعـي   وثـقـي بـفـضـل الله فيّ
أوصيـك بـالصبـر الجميـل   فـانـه خـير الـوصـيـة

ولكن هذه الأم ما استطاعت ان تصبر طويلا فاذا بها تقصد سيف الدولـة طالبة الفداء لوحيدها فيردها امير حلب خائبـة ويصل الخبـر الى الاسير فيصعـد زفرة قائلا :(٢)

بـأي عـذر رددت والهـة   عليـك دون الـورى معـولهـا
ان كنت لم تبـذل الفـداء لهـا   فلم ازل في رضـاك ابـذلهـا
ارحـامنـا منـك ، لم تقـطعهـا   ولم تـزل ، دائبـا تـوصلهـا

كان ابو فراس يستعطف ولكنه لم يفقد اباءه وكبـريـاءه فهو يـطلب الفداء دون ان يتـذلل ، واذا شعـر بأنـه أهين او ذل يهب ليـدافع عن نفسـه ، اسمعه يصارح ابن عمه ويرد عن نفسه تهمـة الخمول ، يـوم اراد ان يطلب الفـداء من اهل خراسان فقال له ابن عمه ومن يعرفك بخراسان ؟ فقال له : (٣)

فـلا تـنـسبـن اليّ الخـمـول   عليـك اقمـت فلم اغـتـرب
وأصبحت منك فان كان فضل   وان كـان نقص فـانت السبب
وان خـراسـانَ ان انـكـرت   عـلاي فقـد عـرفتهـا حلب

وطال اسر ابي فـراس سبع سنـوات ، وكثرت رسـائله واشعاره التي كـان يلح بها على ضرورة مفاداته وانقاذه من الأسر ، حتى ظن اخيرا ان سيف الدوْلة كان يتعمد اهماله وتركه في قبضة أعدائه .

---

(١) ابو فراس شرح ديوانه ص ٥٦ .
(٢) نفس المرجع ص ١٤٠ .
(٣) نفس المرجع ص ٧١ ـ ٧٢ .

واخيـرا سنة ٣٥٥ هـ . تم فـداء ابي فراس الحـارث بن سعيد بن حمـدان وابا الهيثم ابن القاضي ابي حصين[١] .

ولقـد سمع سيف الـدولة من الأسـارى الذين انقـذهم ما لاقـوه من سوء المعاملة من قبل الروم ، وما يلقاه اخوانهم الذين لا يزالون في قيود الاسر من ذل وهوان ، فعرف سيف الـدولة قضيـة كل اسـير من أسرى المسلمـين سواء اكـان هؤلاء الأسرى من جنود امارته أو من جنود امراء آخرين ، ولما لم تكن الـظروف مـلائمة لاستنقـاذ بقية الأسـرى في حرب سـريعة ، فقـد عمد سيف الـدولة الى فدائهم بالمـال ، ففدي ٢٤٨٢ أسيـرا من ذكر وانثى كـان اكثرهم ممن اسـروا في عهد الأخشيد ، وكان قد بدأ بهذا الفـداء محمد بن طغـج الاخشيد ولكن المنيـة عاجلته قبل اتمامه ، فجاء سيف الدولة واتمه من بعده[٢] .

ولقد خسر سيف الدولة احد قواده « ابـا العشائـر » الذي كـان واليا عـلى انطاكية واسر في موقعة عرندس سنة ٣٤٥ ثم حمل الى القسطنـطينية حيث مـات بها وكان من الأمراء والشعراء[٣] ، وقال ابو فراس يرثيه[٤] :

أأبـا العشـائـر لا محلك دارس بين الضلوع ، ولا مكانك نازح
اني لأعلم بعـد مـوتـك انـه مـا مرّ لـلاسـراء يـوم صـالـح

ومن قواد سيف الدولة ايضا ابن عمه ابو تغلب وائل بن داود بن حمدان ، وكـان يتولى امـارة حمص حينما اغـار عليهما رجـل يعرف بـالمبرقـع ووقعت بينهـما معارك اسر فيها وائل الذي لم يلبث في الاسر الا قليـلا لأن سيف الدولـة سارع اليه وانقذه واوقع بالمبرقع وقتله[٥] .

ولقـد ذكر ابن الاثـير[٦] انه في سنـة ٤٤٠ هـ . عندمـا غزا ابـراهيم ينال

---

(١) مسكويه تجارب الامم ج ٢ ص ٢٢٠ الطبري . صلة ص ٣٩٤ .

(٢) الشكعة ، مصطفى سيف الدولة الحمداني ص ٦٧ ـ ٦٨ .

(٣) ابن العديم زبدة الحلب ص ١٢٦ .

(٤) ابو فراس الديوان ص ٦٩ شرح الديوان ص ٢٤٣ .

(٥) كنار ، ماريوس ، سيف الدولة الحمداني ص ٢٢١ .

(٦) ابن الاثير الكامل في التاريخ ج ٩ ص ٥٤٦ .

الروم واشتد القتال حيث كان النصر للمسلمين الذين اكثروا القتل في الروم حيث اسروا جماعة كثيرة من بطارقتهم وكان ممن اسر قاريط ملك الابخاز فبذل في نفسه ٣٠٠ الف دينار وهدايا بمئة الف فلم يجبه في ذلك ، ولم يزل يجول تلك البلاد وينهبها حتى بقي بينه وبين القسطنطينية خمسة عشر يوما . .

الأفدية الأخرى . . .
منديل الرها

١ ـ قصته :

تعود قصة هذا المنديل الى ما جرى من تبادل الرسائل بين السيد المسيح والملك الأبجر الخامس ملك الرها (٤ ق. م. ـ ٥٠ م)، ذلك ان الملك كتب اثناء مرضه الى السيد المسيح يسأله ان يقدم لزيارته ويشفيه من مرضه ، ووعد السيد المسيح بأنه سوف يرسل له من تلاميذه من يقوم على علاجه ويبشر بالانجيل بين رعاياه ، ولقد كتبت رسالة السيد المسيح على ورق باللغة السريانية ومنها نسخ كثيرة اشتهرت بقواها الخارقة في شفاء المرضى ورعايتهم وان صورة السيد المسيح طبعت على هذا المنديل واشتهرت بما يصدر منها من معجزات[1] وبقي هذا المنديل محفوظا في كنيسة الرها .

٢ ـ طلب مبادلة المنديل :

سنة ٣٣١ هـ . اشتد حصار البيزنطيين للرها واتت جيوش الروم بعد اجتيازها ديار بكر وفتحها ارزن وبلوغها نصيبين طالبة من اهل الرها ان يدفعوا اليهم الايقونة المنديل الذي في كنيسة الرها والذي كان السيد المسيح عليه السلام مسح به وجهه وصارت صورة وجهه فيه . وبذل الروم انهم اذا سلموهم

(١) العريني ، السيد الباز الدولة البيزنطية هامش ص ٤٠٧ ـ ٤٠٨ .

المنديل اطلقوا من الأسرى المسلمين الذين في أيديهم عددا ذكروه لهم ، فكاتب المسلمون الخليفة المتقي لله بذلك فأمر الخليفة باحضار الفقهاء والقضاة واستبيانهم في ذلك والعمل بما يقولون واستحضرهم الوزير ابو الحسين بن مقلة واستحضر علي بن عيسى والوجوه من اهل المملكة وعرفهم ما ورد في هذا المعنى وسألهم عما عندهم وجرى خطب طويل ذكر فيه بعض من حضر حال هذا المنديل وانه منذ الدهر الطويل في هذه البيعة لم يلتمسه ملك من ملوك الروم وان في دفعه غضاضة[1] على الاسلام والمسلمون احق بمنديل عيسى عليه السلام وفيه صورته . فقال علي بن عيسى : ان خلاص المسلمين من الاسر واخراجهم من دار الكفر مهما يقاسونه من الضرر والضنك أوجب واحق ، ووافقته جماعة ممن حضر على قوله واشار هو وغيره من قضاة المسلمين بتسليم الاسارى من أيديهم اذ لا طاقة للسلطان بهم ولا له حيلة في استنقاذ الاسارى من أيديهم وعمل في ذلك محضرا واخذ في ذلك خطوط الجماعة الذين حضروا وعرض على المتقي وامر بكتب الجواب واستقر الامر بين اهل الرها وبين الروم على ان دفعوا اليهم مائتي نفس من المسلمين ممن كانوا اسروهم وشرط اهل الرها عليهم الا يعبروا فيما بعد على بلدهم وعقدوا هدنة مؤبدة وتسلم الروم المنديل وحملوه الى القسطنطينية[2] .

٣ ـ الاحتفال باستلامه :

وفي الخامس عشر من شهر آب سنة ٩٤٤ م / ٣٣٤ هـ خرج اولاد الملك البيزنطي رومانوس الى باب الذهب مستقبلين المنديل ومشى اهل الدولة باجمعهم بين يديه بالشمع الكثير وجرى احتفال كبير في البلاط وذلك في السنة ٢٤ منذ ملك رومانوس الشيخ مع قسطنطين بن لاون .

واستمرت الهدنة بين الروم وأهل الرها الى أن نقضها سيف الدولة سنة

---

(١) ابن الاثير الكامل في التاريخ ج ٨ ص ١٢٧ . ابن الجوزي . المنتظم ج ٦ ص ٢٩٣ الطبري صلة ص ٣٤٠ . السيوطي . تاريخ الخلفاء ص ٣٦٥ . متز ، آدم الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ج ١ ص ٢٥ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ج ٨ ص ١٢٧ .

٣٣٨ هـ/ ٩٥٠ م حيث الزم اهل الرها الغزو معه عندما غزا المصيصة فهلك فيها كثير منهم[١] .

وفي سنة ٣٦٤ هـ/ ٩٧٤ م . فتحت بعلبك وبيروت واخذت من بيروت صورة المسيح التي تنسب اليه الخوارق ونقلت الى الكنيسة التي اسسها زيمسكيس في قصر البرنز بالقسطنطينية[٢] .

شروط اطلاق سراح ورد الرومي (٣٧٥ هـ/ ٩٨٥ م) :

كان ورد الرومي قد قبض عليه ايام عضد الدولة وبقي في الاعتقال مدة ثمانية اعوام حتى سافر زيار بن شهراكويه في اطلاقه وخاطب صمصام الدولة في ذلك فشرط عليه شروطا :

١ ـ ان يعترف لصمصام الدولة بالصنيعة ويكون حربا لمن حاربه وسلما لمن سالمه من المخالفين في الدين والموافقين عليه .

٢ ـ ان يفرج عن جماعة من المسلمين من بين من احاطت ربقة الأسر بارقابهم أو طالت يد الحصر في اعناقهم ويعنهم على النهوض الى بلادهم وحراستهم على طرقاتهم في نفوسهم واموالهم وحرمهم وأولادهم .

٣ ـ ان لا يجهز جيشا الى ثغر ولا يغضي العين لأحد من اصحابه في مثل ذلك على غدر .

٤ ـ ان يسلم سبعة من حصون الروم برساتيقها ومزارعها آهلة عامرة .

٥ ـ ان يفي بقية ما عاش بجميع ما قرر معه واشترط عليه .

واما ما شرط له فالتخلية في سبيله وحمايته من الأيدي الخاطفة حتى يخرج هو ومن صحبته موفورين من البلاد التي تضمها مملكة صمصام الدولة وان يكون امر الحصون اذا سلمها مجرى العادة المستمرة في حراسة اهلها واقرارهم على

---

(١) نفس المصدر ص ١٢٨ . العريني ، السيد الباز . الدولة البيزنطية ص ٤٠٨ .
(٢) متز ، آدم . الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ج ١ ص ٢٧ .

املاكهم وحقوقهم واجرائهم في المعاملات والجنايات على رسومهم واستوثق من اخيه قسطنطين ومن ابنه ارمانوس بمثل ما استوثق منه وكتب بذلك كتب وسجلات واستؤذن الخليفة الطائع لله في امضائها فأذن فيها وامر بأحكام قواعدها ومبانيها ، فلما استقرت القاعدة افرج عنه وحمل اليه مال وثياب وجلس صمصام الدولة للقائه[1] .

الشروط التي فرضت على ملك الروم ارمانوس لاطلاق سراحه :

عندما اسر ملك الروم سنة ٤٦٣ هـ . احضر امام السلطان الب ارسلان الذي كان قد عرض عليه الهدنة فرفضها ، فرض عليه السلطان الشروط التالية لاطلاق سراحه :

١ ـ ان يدفع الف الف دينار وخمسمائة الف دينار وفي الهدنة ثلاثمائة وستين الف دينار في كل سنة .

٢ ـ اطلاق كل اسير ببلاد الروم .

٣ ـ اعادة امارة انطاكية والرها ومنبج الى المسلمين .

وقد وافق ملك الروم على هذه الشروط ، وطلب من السلطان الب ارسلان التعجيل في اطلاق سراحه قبل ان تنصب الروم ملكا غيره ولكي يستطيع ان يفي بما وافق عليه . وقال مخاطبا السلطان : اذا رجعت الى ملكي فانفذ الى كل موضع منها عسكرا وحاصره لأتوصل الى تسليمها ، فاما ان ابتدىء بذلك فلا يقبل مني ذلك ، واما الاسارى فأنا أسرحهم وافعل الجميل معهم ، فتقدم السلطان يفك قيده وغله[2] .

وهكذا يتبين ان عمليات التبادل أو ما سمي بالفداء كانت تتم في العصر العباسي وفق مراسم منظمة يعد لها الطرفان وتتخذ طابع الاهتمام وبشروط محددة وتليها هدنة تحدد مدتها حسب المفاوضات ، ويشترك بها رسل من الطرفين

---

(١) مسكويه تجارب الامم ج ٣ ص ١١١ ـ ١١٢ .

(٢) ابن الجوزي المنتظم ج ٨ ص ٢٦٣ .

يسـودها التكـريم والحفاوة لتبيـان مظاهـر الابهة والعـظمة امـام الـرسـل لينقلوا بدورهم ما شاهدوه الى ملوكهم واباطرتهم .

وكانت الدولة الاسلامية ، عندما يفوق اسرى المسلمين اسرى البيزنـطيين عـددا ، تعمد الى شـراء من كان يبـاع في بغـداد من الـرقيق البيـزنـطي ويخـرج الخليفة من كان في بلاطه من الرقيق حتى يتكافـأ العدوان ، كـما كانت تعمـد في بعض الاحيان الى ابتياع اسرى المسلمين الذين يبقون لدى الدولة البيزنطية بعـد عمليات الفداء . وكان كبار رجال الاسرى من الطرفين يبـادلون اولا ففي فـداء سنة ٣٥٥ هـ . اطلق سراح ست اسـرى من بني حمدان مقـابل سـتـة اسرى من البطارقة ، ولقد عمد سيف الدولة الى شراء كل اسير من المسلمين بقي في أيدي الروم باثنين وسبعين دينارا ولما نفـذ منه المـال رهن بدلتـه الجوهـر المعدومـة المثل وفدى بقية اسرى المسلمين ، وهذا دليل على اهتمام المسلمين بعدم ابقاء سجناء لهم لدى الدولة البيزنطية ، علما انه لم تكن الدولة البيزنـطية تهتم بـاطلاق جميـع اسراها والا لمـا امتلأت بيـوت الخلفاء والقـواد بالأسـرى الذين تحـولوا الى رقيق وجوار في بيوت الخاصة والعامة .

ملحق في هذا الباب

أولا ـ الغنيمة .

ثانيا ـ الجهاد .

الغنيمة

تعريفها :[1]

هي ما اصاب المسلمون من عساكر اهل الشرك ، وما اجلبوا به من المتاع ، والسلاح والكراع ، وكذلك ما اصيب في المعادن من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص . فان للامام في ذلك الخمس ، في ارض العرب كان أو في ارض العجم وخمسه الذي يوضع فيه مواضع الصدقات ـ وفيما يستخرج من البحر من حلية وعنبر فالخمس يوضع في مواضع الغنائم على ما قال رسول الله (صلعم) في كتابه « واعلموا انما غنمتم من شيء ، فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل »[2] .

والغنيمة تشتمل على الأسرى المقاتلين الذين يقعون في الأسر ، والسبي وهم النساء والاطفال الذين يقعون في أيدي المسلمين ، فالأسرى يطبق عليهم الفداء أو المن بغير فداء ، والسبي لا يجوز قتلهم ويكونون سبيا مسترقا يقسمون مع الغنائم ، ويجوز قبول الفدية منهم .[3] والغنيمة هي اكثر اقساما واحكاما لأنها اصل تفرع عنه الفيء فكان حكمها اعم وتشتمل على أربعة اقسام :

---

(١) ابو يوسف الخراج ص ٢٣ .

(٢) سورة الانفال آية ٤٢ .

(٣) شلبي ، ابو زيد الدولة العباسية ـ العصر الذهبي ص ٤٣١ ـ ٤٣٢ .

أسرى ، سبي ، ارضين واموال[1] .

وسأتناول موضوع الأسرى والسبي ونظرة الاسلام الى كل منهما من خلال الغنائم .

قسمة الغنائم :

الأسـرى : هم الرجـال المقاتلون من الكفـار اذا ظهر المسلمـون بأسـرهم احيـاء ، ولقد اختلف الفقهـاء في طلبهم ، فالشـافعي ـ رحمه الله ـ ذهب الى ان الامام ، أو من استنابه عليهم في امر الجهاد مخير فيهم اذا اقـاموا عـلى كفرهـم في الاصلح من أحدِ أربعة اشياء : اما القتل وأما الاسترقاق وأما الفداء بمال ، وأما المن عليهم بغـير فداء ، فـان اسلموا وسقط القتـل عنهم ، وكان عـلى خياره في احد الثلاثة . وقال مالك : الامام مخير بين ثلاثة اشياء : القتل ، أو الاسترقـاق او المفاداة بالرجال دون المال وليس له المن ، وقال ابو حنيفة : يكون الامام مخيرا بين شيئين القتل أو الاسترقاق وليس له المن ولا المفاداة[2] .

وقد جاء القرآن بالمن والفـداء قال تعـالى : فامـا منا بعـد واما فـداء حتى تضع الحرب اوزارها[3] . ومنَّ رسول الله (ص) على ابي غرة الجمحي يوم بدر وشرط عليه أن لا يعود لقتاله فلما عاد لقتاله يوم احد واسـر امر رسـول الله بقتله فقال للرسول (ص) : أمنن عليّ ، فقال لـه : لا يلدغ المؤمن من حجر مـرتين فأمر بضرب عنقه ، ولما قتل النضر بن الحرث بالصفراء بعد انكفائـه من بدر لما استوقفته ابنته قتيلة يوم فتح مكة وانشدت قولها :

يـا راكبـا ان الأتيـل مـظنـه	عن صبح خامسـة وانت موفق
ابـلغ بـه ميتـا فـان تحيـة	ما ان تزال بهـا الركـائب تخفق
أمحمـد يـا خـير ضـير كـريمـة	في قومها والفحل فحل معـرق
النضـر اقرب من قبلت قـرابـة	واحضهم ان كـان عتق يعتق

(١) الماوردي الاحكام السلطانية ص ١٢٥ .
(٢) الماوردي الاحكام السلطانية ص ١٢٥ ـ ١٢٦ .
(٣) سورة محمد آية ٤ .

مـا كان ضـرّك لو مننت وربمـا منّ الفتى وهــو المغيظ المحـنق

فقال النبي (ص) لو سمعت شعرها ما قتلته ولو لم يجز المن لما قال هـذا لأن احكام مشروعة[1] .

وأمـا الفداء فقـد اخذ رسـول الله فداء اسـرى بدر وفـادى بعدهم رجـلا برجلين فاذا ثبت خياره فيمن لم يسلم بين الأمور الأربعة تصفح احوالهم واجتهد برأيه فمنهم ممن علم منه قوة بـأس وشدة نكـاية ويئس من اسـلامه وعلم مـا في قتله من وهن قـومـه قتله صبـرا من غـير مثلة ومن رآه منهم ذا جلد وقـوة عـلى العمل وكان مأمون الخيـانة والخبـاثة استـرقه ليكـون عونـا للمسلمين ، ومن رآه منهم مرجو الاسلام أو مطاعا في قومـه منّ عليه واطلقـه ومن وجد منهم ذا مـال وكان بالمسلمين خلة وحاجة فاداه على مال وجعله عدة للاسـلام وقوة للمسلمـين وان كـان في أسرى عشيـرته أحـد من المسلمـين من رجـال أو نسـاء فـاداه عـلى اطلاقهم فيكون خياره في أربعة على وجه الاحوط الاصلح ويكون المـال المأخـوذ في الفـداء غنيمة تضـاف الى الغنـائم ولا تخص بهـا من أسـر من المسلمـين فـان رسول الله (ص) دفع فداء الأسرى من أهل بدر الى من أسرهم قبل نزول قسم الغنيمة في الغانمين ، ومن اباح الامام دمه من المشركين لعظم نكايته وشدة اذيتـه ثم اسر جاز له المنّ عليه والعفو عنه[2] .

قال ابو يوسف لهارون الرشيد :[3] « اذا سـألت عنه يـا امير المؤمنـين من قسمة الغنائم اذا اصيبت من العـدو كيف تقسم ذلك فـان الله تبارك وتعـالى قد انزل بيان ذلك في كتابه فقال فيما انزل عن رسوله (ص) واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيـل ، ان كنتم آمنتم بالله وما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقي الجمعان والله على كل شيء قدير »[4] فهذا والله اعلم فيما يصيب المسلمون من عساكر اهل الشرك وما

---

(١) الماوردي الاحكام السلطانية ص ١٢٦ .
(٢) الماوردي الاحكام السلطانية ص ١٢٦ ـ ١٢٧ .
(٣) ابو يوسف الخراج ص ١٩ .
(٤) سورة الانفال آية ٤٢ ـ ٤٣ .

اجلبوا من المتاع والسلاح والكراع فان في ذلك الخمس لمن سمّى الله عز وجل في كتابه العزيز واربعة اخماسه بين الجند الذين اصابوا ذلك من أهل الديوان وغيرهم يضرب للفارس منهم ثلاثة اسهم ، سهمان لفرسه وسهم له وللراجل سهم » .

أما الرشيد فقال : خذ بأي القوانين رأيت واعمل بما ترى انه افضل واخير للمسلمين فان ذلك موسع عليك ان شاء الله ولست ارى ان تقسم الرجل اكثر من فرسين[1] .

وهكذا بعد استثناء السلب والخمس من الغنيمة ، والسلب (هو ما يكون مع المقتول من سلاح ونحوه) فيجوز ان يأخذه القاتل لقوله (ص) من قتل قتيلا فله سلبه واما الخمس فهو لمن ذكرهم الله في كتابه « واعلموا انما غنمتم . . . وابن السبيل » . واما الاخماس الأربعة فتوزع على المقاتلين كما كان يفعل رسول الله[2] .

وقد اجيز اشراك غير المقاتلين في الغنيمة ممن حضر مكان القتال وذلك بعد استئذان اصحاب الحق فيها فقد اشرك النبي (ص) جعفر بن ابي طالب ومن معه في الغنائم ، بإذن من الصحابة ، حينما عادوا من الحبشة واليمن[3] .

السبي :

كانت طبقة المقاتلة هي مصدر السبي الكثير الذي كان يعقب اكثر المعارك ، ولقد نقل هذا السبي الى الجزيرة العربية وتوزعته الاسر العربية الكبيرة ، لان صغار الجنود كانوا ينزلون عن نصيبهم من الأسرى ، لأن حاجتهم الى المال الذي يعتاضون به عنهم كانت اشد من حاجتهم الى الاسير الذي يبدو انه سيكون كلاً على اكتافهم ، ومنه كانت الوان من الزواج والولاء والتبني ، والوان من الاختلاط كان لها آثارها البعيدة في مستقبل الحياة العربية في

---

(١) الخضري محاضرات في تاريخ الامم الاسلامية ـ الدولة العباسية ص ١٤٠ .

(٢) البوطي ، محمد سعيد رمضان فقه السيرة ص ٢٨١ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ص ٣٣٤ .

الفكر واللغة والعقيدة[1] .

والسبي هم الاطفال والنساء الذين لا يجوز ان يقتلوا ، اذا كانوا اهل كتاب لنهي الرسول عن قتل النساء والولدان ، ويكونون سبيا مسترقا يقسمون مع الغنائم . وان كان النساء من قوم ليس لهم كتاب كالدهرية وعبدة الاوثان وامتنعت عن الاسلام . فعند الشافعي يقتلن وعند ابي حنيفة يسترقفن ، ولا يفرق فيمن استرقفن بين والدة وولدها لقول النبي (ص) لا توله والدة من ولدها فان فادا بالسبي على مال ، جاز ، لان هذا الفداء بيع ويكون مال فدائهم مقوما مكانهم . ولم يلزم استطابة نفوس الغانمين عنهم ، فاذا اراد ان يفادي بهم على أسرى من المسلمين في أيدي قومهم عوّض الغانمين عنهم من سهم المصالح . وان اراد المنّ عليهم لم يجز الا باستطابة نفوّس الغانمين منهم اما بالعفو عن حقوقهم ، واما بمال يعوضهم عنهم . فان كان المنّ عليهم لمصلحة عامة جاز ان يعوضهم من سهم المصالح . وان كان لأمر يخصه عاوضهم عنهم من مال نفسه . ومن امتنع من الغانمين عن ترك حقه لم يستنزل عنه اجبارا حتى يرضى . وخالف ذلك حكم الاسرى الذي لا يلزمه استطابة نفوس الغانمين في المنّ عليهم ، لأن قتل الرجال مباح ، وقتل السبي محظور . فصار السبي مالا مغنوما لا يستنزلون عنه الا باستطابة النفوس . وقد استضعفت هوازن النبي حين سباهم بحنين واتاه وفودهم وفد فرّق الاموال وقسم السبي فذكروه حرمة رضاعه من لبن حليمة ، وكانت من هوازن[2] .

ولقد قال رسول الله (ص) لوفد من هوازن حينما جاؤوه مسلمين : لقد استأنيت بكم أي أخرت قسم الغنائم املا في اسلامكم . وهذا يدل على ان الجند انما يملكون الغنائم بعد تقسيم الحاكم أو الامام لها . فمهما دامت القسمة فهي لا تعتبر ملكا للمقاتلين ، وتلك هي فائدة تأخير النبي (ص) لتقسيمها بين المسلمين[3] .

---

(١) فيصل ، شكري المجتمعات الاسلامية في القرن الاول ص ٨٢ ـ ٨٣ .

(٢) الماوردي ، الاحكام السلطانية ص ١٢٩ .

(٣) البوطي ، محمد سعيد رمضان فقه السيرة ص ٣٩٦ .

ولقد حكى ابن اسحق عن هوازن لما سبيت وغنمت اموالهم بحنين ، قدمت وفودهم مسلمين على النبي فقالوا : يا رسول الله : لنا أهل عشيرة ، وقد اصابنا من البلاء مالا يخفى عليك ، فامنن علينا من الله عليك . ثم قام ابو صرد زهير بن حرد فقال : يا رسول الله ، انما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كنّ يكفلنك . فقال رسول الله : ابناؤكم ونساؤكم احب اليكم أم أموالكم ؟ فقالوا : خيرتنا بين اموالنا واحسابنا بل ترد علينا ابناءنا ونساءنا فهم احب الينا . فقال رسول الله (ص) اما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم . وقالت قريش : ما كان لنا فهو لرسول الله (ص) . وقالت الانصار : ما كان لنا هو لرسول الله . وقال الاقرع بن حابس : اما انا فلا ، وبنو تميم فلا ، وبنو سليم فلا ، فقالت بنو سليم : ما كان لنا فهو لرسول الله . فقال العباس بن مرداس لبني سليم : قد وهبتموني . فقال رسول الله : اما من تمسك منكم بحقه من هذا السبي فله بكل انسان ست قلائص . فردوا الى الناس ابناءهم ونساءهم . فردوا . وكان في السبي الشيماء بنت الحرث بن عبد العربي اخت رسول الله (ص) من الرضاعة وهي تقول : انا اختك . فقال رسول الله : وما علامة ذلك فقالت عضة عضضتنيها ، فعرف العلامة وبسط لها رداء واجلسها عليه ، وخيّرها بين المقام عنده مكرمة او الرجوع الى قومها ممتعة فاختارت ان يمتعها ويردها الى قومها . ففعل النبي (ص) قبل ورود الوفد ورد السبي فأعطاها غلاما له يقال له مكحول وجارية فزوجت احداهما الى الآخر .

وكان في السبايا ذوات ازواج بطل انكاحهن بالسبي سواء سبي ازواجهن او لا فقال ابو حنيفة ان سبين مع ازواجهن فهن على النكاح ، وان اسلمت منهن ذات زواج قبل حصولها في السبي فهي حرة ونكاحها باطل بانقضاء العدّة . واذا قسم السبايا في الغانمين حرم وطئهن حتى يستبرين بحيضه ان كن من ذوات الاقراء أو بوضع الحمل ان كن حوامل . فقال رسول الله عندما مر بسبي هوازن[1] لا توطأ حامل حتى تضع ولا غير ذات حمل حتى تحيض وما غلب عليه المشركون من اموال المسلمين فاحرز ولم يملكوه فان غنمه المسلمون رد

---

(١) الماوردي الاحكام السلطانية ص ١٢٩ ـ ١٣٠ .

على مالكه منهم بغير عوض وقال ابو حنيفة قد ملكه المشركون ، اذا غلبوا عليه حتى لو كانت امة ودخل سيدها المسلم الى دار الحرب حرم عليه وطئها ولو كانت ارضا اسلم عنها المتغلب عليها كان احق بها واذا غنمه المسلمون كانوا احق به من مالكه . وقال مالك : ان ادركه مالكه قبل القسمة كان احق به وان ادركه بعدها كان مالكه احق بثمنه وغانمه احق بعينه ويجوز شراء اولاد اهل الحرب منهم كما يجوز سبيهم كما يجوز شراء أولاد أهل العهد منهم ولا يجوز سبيهم ولا يجوز شراء أولاد أهل الذمة منهم ولا يجوز سبيهم ويجري على ما غنمه الواحد والاثنان حكم الغنيمة في أخذ خمسه . وقال أبو حنيفة : لا يؤخذ خمسه حتى يكونوا سرية واختلفوا في تحديد السرية فقال ابو حنيفة : السرية ان يكونوا عددا ممتنعا وقال ابو يوسف : السرية تسعة فصاعدا لأن سرية عبد الله بن جحش كانت تسعة ، علما بأن رسول الله (ص) بعث عبد الله بن انيس الى خالد بن ابي سفيان الهذلي سرية وحده فقتله وبعث عمرو بن امية الضمري وآخر معه سرية . واذا اسلم احد الأبوين كان اسلاما لصغار أولاده من ذكور واناث ولا يكون اسلاما للبالغين منهم إلا أن يكون البالغ مجنونا . وقال مالك : يكون اسلام الأب اسلاما لهم ولا يكون اسلام الأم اسلاما لهم ولا يكون اسلام اطفال بأنفسهم اسلاما ولا ردتهم ردة وقال أبو يوسف : يكون اسلام الطفل اسلاما ولا تكون ردته ردة وقال مالك : ان عرف نفسه صح اسلامه وان لم يعرفها لم يصح[1] .

ويدل موقفه (ص) من وفد هوازن واموالهم التي غنمها المسلمون ، على ان ما قسم من هذه الاموال بينهم ، لا يجوز للامام ان يسترد شيئا منه الا بطيب نفس من صاحبه دون ان يتأثر بأي جبر أو اكراه[2] .

(١) الماوردي ، الاحكام السلطانية ص ١٣٠ ـ ١٣١ .

(٢) البوطي ، محمد سعيد رمضان فقه السيرة ص ٣٩٦ .

الجهاد

التشريع القرآني في الجهاد :

حث القـرآن على الجهـاد في العديـد من الآيـات : ﴿ إن الله اشتـرى من المؤمنين انفسهم واموالهم ، بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون وعـدا عليـه حقا في التـوراة والانجيل والقـرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فـاستبشـروا ببيعكم الذي بايعتم له ، وذلك هو الفوز العظيم ﴾[1] .

ومنهـا أيضا : ﴿ لا يستـوى القاعـدون من المؤمنـين غـير اولي الضـرر ، والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وانفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم عـلى القاعدين درجة وكلا ، وعـد الله الحسنى وفضل الله المجـاهدين عـلى القاعـدين اجرا عظيما ، درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما ﴾[2] .

ومنهـا أيضا : ﴿ واعـدوا لهم ما استـطعتم من قـوة ومن ربـاط الخيـل ، تـرهبـون بـه عـدو الله وعـدوكم وآخـرين من دونهم ، لا تعلمـونهم الله يعلمهم ﴾[3] .

الى جانب ما ورد في القرآن الكريم عن الجهاد ، فان لرسول الله احاديث

---

(١) سورة التوبة آية ١١٢ .

(٢) سورة النساء آية ٩٤ .

(٣) سورة الانفال آية ٦١ .

في الجهاد ، فمنها قوله : من ترك الجهاد ألبسه الله ذلا وفقرا في معيشته ، ومحقا في دينه[1] .

سياسة عمر في الجهاد :

كان عمر اذا بعث امراء الجيوش يوصيهم بتقوى الله ، وان لا يعتدوا ولا يجبنوا عند اللقاء ، ولا يمثلوا عند القدرة ، ولا يسرقوا عند الظهور ، ولا يقتلوا هرما ولا امرأة ولا وليدا ، وان يتوقوا قتلهم اذا التقى الزحفان وشنت الغارات ، وان لا يغلوا عند الغنائم ، وينزهوا الجهاد عن عرض الدنيا ، ولقد كتب الى سعد بن ابي وقاص قائلا : اما بعد ، فاني آمرك ومن معك بتقوى الله على كل حال ، فان تقوى الله أفضل العدة على العدو ، واقوى المكيدة في الحرب ، وآمرك ومن معك ان تكونوا اشد احتراسا من المعاصي منكم من عدوكم فان ذنوب الجيش اخوف عليهم من عدوهم . وانما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا قوة بهم لأن عددنا ليس كعددهم ، ولا عدتنا كعدتهم ، فان استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة . . . واقم بمن معك في كل جمعة يوما وليلة حتى تكون لهم راحة يجمون فيها انفسهم ويرمون اسلحتهم وامتعتهم ، ونح منازلهم عن قرى اهل الصلح والذمة ، فلا يدخلها من اصحابك الا من تثق بدينه ، ولا يرزأ احدا من اهلها شيئا فان لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها . . . واذا وطأت ادنى ارض العدو فأذك العيون بينك وبينهم ، ولا يخف عليك امرهم ، وليكن عندك من العرب ، أو من اهل الارض من تطمئن الى نصحه وصدقه ، فان الكذوب لا ينفعك خبره ، وان صدق في بعضه . . . وانتق للطلائع اهل الرأي والبأس من اصحابك ، وتخيّر لهم سوابق الخيل ، فان لقوا عدوا كان اول ما تلقاهم القوة . رأيك واجعل امر السرايا الى اهل الجهاد والصبر ، والجلاد ، ولا تخص بها احدا بهوى . . . ولا تؤت بأسير ليس له عهد الا ضربت عنقه ، فترهب بذلك عدوك وعدو الله ، والله ولي امرك ومن معك ، وولي النصر لكم على عدوكم

---

(١) مغنية ، محمد جواد فقه الامام جعفر الصادق ج ٢ ص ٢٦٠ .

وهو المستعان[1] .

ويتضح من هذا الكتاب الموجه الى احد قواد عمر بن الخطاب السياسة الكاملة الواجب اتباعها في قتال الاعداء وكيفية معاملتهم اثناء القتال وبعده ، ومصير الاسرى الذين لا عهد لهم .

سياسة عثمان في الجهاد :

أما سياسة عثمان فقد ظلت المحافظة على الاوضاع التي وضعها عمر ، وكان اول ما كتبه الى امراء الاجناد : « قد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا ، بل على ملأ منا ، ولا يبلغني عن احد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله بكم ويستبدل بكم غيركم »[2] .

سياسة علي بن ابي طالب في الجهاد :

أما الامام علي بن ابي طالب فقد قال : الجهاد عز للاسلام ، وهو باب من ابواب الجنة ، فتحه الله لخاصة أوليائه ، وهو لباس التقوى ، ودرع الله الحصينة ، وجنته الوثيقة ، فمن تركه البسه الله ثوب الذل ، وشمله البلاء ، وديث بالصغار ، والقماة ـ اي الذل ـ وضرب على قلبه بالاسداد وأديل الحق بتضييع الجهاد ، وسيم الخسف ، ومنع النصف »[3] .

وكان هديه هدى اصحابه الثلاثة من قبل ، وما خالف علي عمر ولا غيّر شيئا مما وضع وقال : « ان عمر كان رشيد الامر ، ولن اغير شيئا صنعه عمر »[4] .

ولقد قسم الفقهاء الجهاد الى نوعين :[5]

الأول : جهاد الغزو في سبيل الله وانتشار الاسلام ، واعلاء كلمته في

(١) كرد علي ، محمد ، الاسلام والحضارة العربية ج ٢ ص ١١٢ ـ ١١٣ .
(٢) كرد علي ، محمد ، الاسلام والحضارة العربية ص ١٣٨ .
(٣) من خطبة « الجهاد » للامام علي .
(٤) كرد علي ، محمد الاسلام والحضارة العربية ج ٢ ص ١٤٥ .
(٥) مغنية ، محمد جواد فقه الامام جعفر الصادق ج ٢ ص ٢٦٢ .

بلاد الله وعباده ، وهذا النوع لا بد من اذن الامام فيه .

الثاني : جهاد الدفاع عن الاسلام وبلاد المسلمين ، والدفاع عن النفس والمال والعرض ، بل الدفاع عن الحق اطلاقا ، سواء أكان له ، أم لغيره ، على شريطة ان يكون القصد خالصا لوجه الله والحق . وهذا الجهاد لا يشترط فيه اذن الامام ، ولا نائبه الخاص ، ويجب عينا على كل من كان في دفاعه ادنى نفع لصد العدوان عن الاسلام واهله ، دون فرق بين الرجل والمرأة ولا بين الاعرج والصحيح ، ولا بين الاعمى والبصير ، ولا بين المريض والسليم .

ايمان المسلمين بدخول الجنة اذا استشهدوا في الحرب :

حكى موسى بن اسحاق : ان النبي (ص) خرج من العريش يوم بدر ، فحرّض الناس على الجهاد ، ونفل كل امرىء منهم ما اصاب ، وقال : « والذي نفسي بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر ، الا ادخله الله الجنة ، فقال عمير بن الحمام من بني سلمه وفي يده ثمرات يأكلها : بخ ! بخ ! ما بقي بيني وبين ان ادخل الجنة الا ان يقتلني هؤلاء القوم ! ثم قذف الثمرات من يده واخذه سيفه ، وتقدم وقتل حتى قتل ـ رحمه الله ـ وهو يقول :

ركضا الى الله بغير زاد ... الا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد ... وكل زاد عرضة النفاد
غير التقي والبر والرشاد[1]

من يجب جهاده ؟

بما ان الجهاد يكون للدعوة الى الاسلام ، فانه يجب جهاد المشركين من الملحدين وعبدة الاصنام ، فقد قال الله تعالى : ﴿ **فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم** ﴾[2] لأن قتالهم من اجل الدين وترك الالحاد والشرك ، لا من اجل

---

(١) النويري نهاية الارب ج ٦ ص ١٥٥ ـ ١٥٦ .
(٢) سورة التوبة آية ٥ .

الغلبة ، واستعبادهم والاستيلاء على بلادهم . كما يجب قتال اهل الكتاب وهم : اليهود والنصارى ، هؤلاء يخيرون بين قبول الاسلام ، ودفع الجزية مع الالتزام بشرائط اهل الذمة ، فان اسلموا ، أو بذلوا الجزية حرم قتالهم ، وان رفضوا الأمرين معا قوتلوا . قال الله تعالى : **﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق ، من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾**[١] .

وهناك فئة ثالثة يجب قتالها وهي الفئة الباغية من المسلمين على العادلة منهم ، فاذا اقتتلت طائفتان مسلمتان ، فعلى الوجوه والعقلاء ان يصلحوا ذات البين بالعدل ، فان رجعت الفئة الباغية الى طاعة الله ، وترك القتال كان خيرا ، وان ابت الا القتال ظالمة للأخرى ، ومعتدية عليها ، وجب قتال الظالم ومناصرة المظلوم . قال تعالى : **﴿ وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما ، فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى امر الله فان فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا ان الله يحب المقسطين ، انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين اخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴾**[٢] .

ولقد اورد النويري[٣] في « ما يلزم المجاهدين مع الامير من حقوق الجهاد » ان مصابرة القتال من حقوق الجهاد لازمة حتى يظفر بخصلة من أربع خصال :

الخصلة الأولى : ان يسلموا ، فيصير لهم بالاسلام ما لنا ، وعليهم ما علينا ، ويقروا على ما ملكوا من بلاد واموال . قال رسول الله : « امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فاذا قالوها عصموا من دمائهم واموالهم الا بحقها ، وتصير بلادهم اذا أسلموا دار اسلام يجري عليها حكم الاسلام » .

الخصلة الثانية : ان يظفره الله تعالى بهم مع مقامهم على شركهم ،

---

(١) سورة التوبة آية ٣٠ .

(٢) سورة الحجرات آية ١٠ .

(٣) النويري نهاية الارب ج ٦ ص ١٦٢ - ١٦٣ .

فيسبي ذراريهم ويغنم اموالهم ، ويقتل من لم يحصل في الاسر منهم - ويكون مخيرا في الاسرى في استعمال الاصلح من أربعة امور . احدها ان يقتلهم صبرا بضرب العنق ، والثاني ان يسترقهم ويجري عليهم احكام الرق من بيع أو عتق . والثالث ان يفادي بهم من مال أو أسرى . والرابع أن يمن عليهم ويعفو عنهم .

الخصلة الثالثة : ان يبذلوا مالا على المسالمة والموادعة ، فيجوز ان يقبله ، ولا يجعلوه خراجا مستمرا ، فهذا المال غنيمة ، فيقسم بين الغانمين ، ويكون ذلك امانا لهم في الانكفاف عن قتالهم في هذا الجهاد ، ولا يمنع من جهادهم فيما بعد . والضرب الثاني ان يبذلوه في كل عام فيكون خراجا مستمرا ويكون الامان به مستقرا . والمأخوذ منهم في العام الأول غنيمة تقسم بين الغانمين ، وما يؤخذ في الاعوام المستقبلة يقسم في اهل الفيء ، ولا يجوز أن يعاود جهادهم ما كانوا مقيمين على بذل المال لاستقرار الموادعة عليه . واذا دخل احدهم الى دار الاسلام ، كان له بعقد الموادعة على نفسه وماله . فان منعوا المال زالت الموادعة ، وارتفع الامان ، ولزم الجهاد لغيرهم من اهل الحرب . وقال ابو حنيفة : « لا يكون منعهم من مال الجزية والصلح نقضا لامانهم ، لأنه حق عليهم ، فلا ينتقض العهد بمنعهم منه كالديون .

الخصلة الرابعة : ان يسألوا الامان والمهادنة : فيجوز اذا تعذر الظفر بهم ، واخذ المال منهم ان يهادنهم على المسالمة في مدة مقدرة ، تعقد الهدنة عليها اذا كان الامام قد اذن له في الهدنة أو فوض اليه الأمر . فقد هادن رسول الله (ص) قريش عام الحديبية عشر سنين ، ولا يجاوز بأكثرها عشر سنين ، فان هادنهم اكثر منها بطلت الهدنة ، فلما زاد عليها ، ولهم الامان فيها الى انقضاء مدتها ، لا يجاهدون فيها من غير انذار . . . واذا نقضوا عهدهم ، فلا يجوز قتل من في ايدينا من رهائنهم . وقد نقض الروم عهدهم زمن معاوية ، وفي يده رهائن . فأمتنع المسلمون جميعا عن قتلهم ، وخلّوا سبيلهم وقالوا : « وفاء بغدر خير من غدر بغدر » . واذا لم يجز قتل الرهائن ، لا يجب اطلاقهم ما لم

يحاربوا ، فان حاربونا وجب اطلاق رهائنهم وابلاغهم مأمنهم ، وايصال النساء والاطفال والذراري الى اهليهم .[1]

(١) النويري نهاية الارب ج ٦ ص ١٦٤ .

الخاتمة

تناولت هذه الاطروحة « معاملة اسرى الحرب » بين دولتين متجاورتين خلال فترة ثلاثة قرون ونصف في تمهيد واربعة ابواب .

وأما التمهيد فكان مقدمة للبحث تناولت فيه الحدود الطبيعية التي كانت قائمة بين بلاد المسلمين وبلاد الروم منذ ايام بني امية والعباسيين الاوائل ، والتي كانت مسرحا للغزوات والمعارك بين الطرفين .

وبعد ان قدمت صورة مجملة للمعارك وعمليات الأسر ، والتي حاولت جاهدا ان تكون موجزة لعدم الحاجة الى تفصيلها ، تطرقت الى العلاقة التي كانت قائمة والتي كانت تتغير بتغير الخلفاء المسلمين والاباطرة البيزنطيين ، والتي يمكن اجمالها بعلاقات وان لم تكن ودية بالمعنى الصحيح فانها لم تخرج الى نطاق الخصومة والعداء ، فالاتصالات الدبلوماسية لم تنقطع بين الدولتين ، والبحث في الأمور المتعلقة بشؤون الحرب من توقيع هدن ، وتبادل اسرى ، كانت العنوان الرئيسي لهذه الاتصالات . ولقد اوضحت الرسائل المتبادلة بين الطرفين ان التبادل الحضاري كان على اكثر من صعيد بين المأمون وتيوفيل ، كما ان الدولة الاسلامية كانت تسمح لرعاياها المسيحيين ببقاء ارتباطهم الديني مع القسطنطينية ، وارتبط هؤلاء وخاصة في مصر والشام ، ارتباطا ادبيا بالقسطنطينية واعتبارهم الامبراطور البيزنطي صاحب الحماية عليهم ، كما ان

بعض زعماء المسيحيين في كنف الدولة الاسلامية اعتادوا ان يقوموا بزيارات للبلاط الامبراطوري في القسطنطينية ، كما فعل تيوفيلوس بطريرك الاسكندرية الذي قضى بضعة اسابيع في ضيافة الامبراطور باسيل الثاني في القسطنطينية سنة ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م[١] .

أما فيما يتعلق بمعاملة الاسرى ، فتجارة الرقيق كانت تنشط باستمرار عبر التاريخ بازدياد اعداد هؤلاء وهذه ظاهرة طبيعية ظهرت في المجتمعات القديمة في مصر ، وبلاد ما بين النهرين . . . الى ان جاء الاسلام وتناول شؤونهم وحدد اصول معاملتهم بآيات بينات[٢] ، وبتوصيات الرسول بحسن معاملتهم وبرعاية حقوقهم ، ولقد تبين ان المسلمين تقيدوا بنصوص الشريعة الاسلامية في المعاملة ، وقصة الراهب رومانوس ، ومعاملة كبار اسرى عمورية تثبت ذلك ، ويمكن ان نجمل معاملة الأسرى بين الدولتين الاسلامية والبيزنطية على الشكل التالي :

- عدم التفريق بين العائلات اثناء الأسر .
- حرية العبادة لدى الطرفين ، والذي ظهر جليا في قيام الاسرى بممارسة طقوسهم الدينية داخل معسكرات الاعتقال ، وهذا ما اعترف به الاسرى انفسهم (الراهب رومانوس) .
- تقديم الثياب الشرقية من البيزنطيين الى المسلمين ، وتقديم اجمل الثياب والهدايا من المسلمين الى البيزنطيين داخل السجن .
- ممارسة انواع من الترفيه للأسرى داخل معسكرات الاعتقال ، وانواع من التجارة .
- عدم ممارسة الضغوط في تناول الاطعمة التي يحرمها الاسلام ، اذ لم يقدم لأسرى المسلمين « لحم الخنزير » .

(١) عاشور ، سعيد تاريخ الدولة البيزنطية ص ٣٠٤ .
(٢) سورة محمد آية ٤ . سورة التوبة آية ٥ . سورة الانفال آية ٦٩ . سورة الانسان آية ٨ . سورة الاحزاب آية ٢٦ .

أمـا العامـل المهم ، والذي اثـر على حيـاة الاسرى لـدى الطرفـين ، فهو الضغط على الاسير لاعتناق ديانة الآسر ، فلدى الدولة البيـزنطيـة قتل كثـير من المسلمين الذين أبوا التنصر ، فالامبراطـورة تدورة قتلت وحـدها اثني عشـر الفا من أسـرى المسلمين أبـوا التنصر ، كـذلـك روى الاصفهـاني عن احـد أسـرى المسلمين الذي يدعى « الوابصي » قوله انه عندما أسر ، عذب حتى تنصر ، ثم تزوج نصرانية ، ورزق منها ولدان ورفض بعدها العودة الى بلاد الاسلام ، حتى لا يقال له انه نصراني ، ورواية التنوخي في « نشوار المحاضـرة » عن ان اسارى المسلمين عندمـا ولي عليهم حدثـان ، عاقبـاهـم وطالبـاهـم بالتنصـر حتى تدخـل الوزير علي بن عيسى وسوى امرهم .

اما لدى الجانب الاسلامي ، فقد ظهر من قصـة الراهب رومـانوس والتي انتهت بقتله ، ان رفضه الدخول في الاسلام كـان سببا في ذلـك ، كذلـك كبار اسرى عمورية البالغ عددهم اثنين واربعين اسيـرا ، قتلوا لأنهم رفضوا اعتنـاق الاسلام كما روت سير القديسين .

وهكـذا فالـدين لعب الـدور الأكبـر في انهاء حيـاة الاسـرى ، وفي طـرق معاملتهـم . فالخلافة كما قلنا سابقا في كل من دمشق وبغداد ، كانت تحرص على سلامة دين اهـل الثغور من المسلمـين حتى لا يتحولـوا الى المسيحية تحت ضغط القسس او الـرهبان ، كـما ان الرهبـان المسيحيين كـانوا يحـرصـون عـلى حمـايـة المسيحيين من ان يتحولوا الى الاسلام .

وكان لاختيار بعض الروميات الاسلام ، طوعـا ام قسرا ، ممن دخلن دور الخلافة في بغـداد والقاهـرة ، حيث لم تكن تخلو منهن طبقة من طبقـات الأمة ، كـان لهن اثر في احـداث عقائـد البدع الاسـلامية التي ظهـرت في القرن الـرابع الهجـري في بغداد ، ذلـك لأن اكثـرهن بقـين عـلى نصـرانيتهن حتى في قصـور الخلافة . فأحمد بن حائط زعيم الفرقة الحائطية ذهب ان للخلق الهين ، احدهمـا خـالق وهو الإلـه القديم ، والآخـر مخلوق وهو عيسى بن مـريم وان المسيح ابن الله ، هـو الذي يحـاسب الخلق في الآخـرة . كـما انـه طعن بتعـداد زواج النبي محمد (ص) وقال : ان ابا ذر الغفاري هو انسك وازهد منه ، وهذا القول فيـه

مسحة من النصرانية ، لكون ام احمد بن حائط من سبايا الروم[١] .

ونظرا لاهتمام كل من الدولتين بأسراها فقد نظمت عمليات اطلاق سراحهم بعد مفاوضات كانت تجري وفق قواعد وأسس مدروسة تتناول اعدادهم وأسماءهم واسماء متولي عملية التبادل من الطرفين ، وذلك بعد ان يحدد المكان الثابت لهذه الاجراءات وهو نهر اللامس[٢] .

وأخيرا ، أتمنى ان أكون قد وفقت في دراستي هذه ، وإعطاء الصورة الصحيحة لمعاملة الأسرى بين الاسلام والروم البيزنطيين في العصر العباسي .

---

(١) الزيات ، حبيب . مجلة المشرق . السنة ٣٥ . ج ١ ك ٢ - آذار ١٩٣٧ ص ٣٧ - ٣٨ .

(٢) قرية على شط بحر الروم من ناحية ثغر طرسوس كان فيه الفداء بين المسلمين والروم . ياقوت . معجم البلدان ج ٥ ص ٨ .

المصادر العربية

* ابن ابي اصبعه (موفق الدين احمد الخزرجي) ت = ٦٦٨ / ١٢٧٠ . **عيون الانباء في طبقات الاطباء** . تحقيق نزار رضا . بيروت ـ مكتبة الحياة ـ ١٩٦٥ .

* ابن الاثير (علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني) ت = ٦٣٠ / ١٢٣٣ . **الكامل في التاريخ** ١٢ ج . بيروت (دار صادر ـ دار بيروت ـ ١٩٦٥) .

* ابن الازرق (ابو عبد الله محمد بن الازرق الاندلسي) ت = ٨٩٦ / ١٤٩١ . **بدائع السلك في طبائع الملك** ج ١ ـ ج ٢ . دراسة وتحقيق : محمد بن عبد الكريم . ليبيا ـ تونس (الدار العربية للكتاب) ١٩٧٧ .

* ابن تغرى بردى (جمال الدين ابو المحاسن يوسف الاتابكي) ت = ٨٧٤ / ١٤٧٠ . **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** . ١٢ ج . القاهرة (دار الكتب المصرية) ١٩٥٩ .

* ابن تيمية الحراني (تقي الدين احمد بن عبد الحليم) ت = ٧٢٨ / ١٣٢٥ . **الرسالة القبرصية** . مصر (مكتبة انصدار السنة المحمدية) ١٣٦٥/ ١٩٤٦ .

* ابن الجوزي (ابو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن الجوزي)

ت = ٥٩٧/ ١٢٠١ . **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم** ٨ أجزاء . حيدر آباد الركن (مطبعة دائرة المعارف العثمانية) ١٣٥٧ هـ .

* ابن حوقل (ابو القاسم محمد) أواخر القرن الرابع الهجري . **صورة الأرض** . طبعة ليدن ٣٦٧ / ٩٧٧ .

* ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد)ت =٨٠٨/ ١٤٠٥ . **العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والبربر** ٧ أجزاء . بيروت (دار الكتاب اللبناني) ١٩٦٨ م .

* ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين احمد بن ابي بكر) ت = ٦٨١ / ١٢٨٣ . **وفيات الاعيان** تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد القاهرة ١٩٤٨ .

* ابن رسته (ابو علي احمد بن عمر بن رسته) اوائل القرن الرابع الهجري . **الاعلاق النفيسة (ومعه كتاب البلدان لليعقوبي)** . المجلد السابع من المكتبة الجغرافية/ تحقيق دي غويه ، ليدن ١٨٩٢ .

* ابن شداد (عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم) ت = ٦٨٤/ ١٢٨٥ . **الاعلاق الخطيرة** ـ ٣ أجزاء . تحقيق يحيى عباره ـ دمشق (وزارة الثقافة والارشاد القومي) ١٩٧٨ .

* ابن طيغور (ابي الفضل احمد بن طاهر الكاتب) ت = ٢٨٠/ ٨٩٣ . **بغداد في تاريخ الخلافة العباسية** . بغداد (مكتبة المثنى) بيروت (مكتبة المعارف) ١٩٦٨ .

* ابن العديم (الصاحب كمال الدين ابي القاسم عمر بن احمد بن هبة الله) ٦٦٠/ ١٢٦٢ . **زبدة الحلب في تاريخ حلب** / جزءان . تحقيق سامي الدهان . دمشق ١٣٧٠/ ١٩٥١ .

* ابن العربي المالكي (ابو بكر محمد بن عبد الله) ت = ٦٣٨/ ١٢٤٠ . **أحكام القرآن** ٤ أجزاء . تحقيق علي محمد البجاوي . القاهرة ١٣٧٦ / ١٩٥٧ .

* ابن عساكر (علي بن الحسن بن هبة الله) ت = ٥٧١ / ١١٧٦ م ١٠ . **تاريخ مدينة دمشق** . تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد / دون تاريخ .

* ابن العمري (شهاب الدين بن فضل الله) ت = ٧٣٨/ ١٣٣٧ . . **التعريف بالمصطلح الشريف** . مصر (مطبعة العاصمة) ١٣١٢ / ١٨٨٩ .

* ابن الفراء (ابي علي الحسين بن محمد المعروف بابن الفراء) حوالي القرن الثالث الهجري . **رسل الملوك في الرسالات والسفارات**/ حققه صلاح الدين المنجد . القاهرة (لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٣٦٦/ ١٩٤٣ .

* ابن قيم الجوزيه (شمس الدين ابو عبد الله محمد بن ابي بكر) ت = ٧٥١/ ١٣٥٦ . **احكام اهل الذمة** . دمشق (مطبعة جامعة دمشق) ١٣٨١/ ١٩٦١ .

* ابن قتيبة (ابو محمد عبد الله بن مسلم الدنيوري) ت = ٢٧٦/ ٨٨٩ . **عيون الاخبار** . القاهرة (وزارة الثقافة والارشاد القومي) ١٩٦٣ .

* ابن القلانسي (ابو يعلي حمزه بن اسد التميمي) ت = ٥٥٥/ ١١٦٠ . **ذيل تاريخ دمشق** . نشره آمد روز ـ بيروت (المطبعة الكاثوليكية) ١٩٠٨ م .

* ابن كثير (عماد الدين بن اسماعيل بن عمر) ت = ٧٧٤/ ١٣٧٣ . **البداية والنهاية** . ١٤ جزءاً . بيروت (مكتبة المعارف) . الرياض (مكتبة النصر) ١٩٦٦ **المختصر في تاريخ البشر** ٤ أجزاء القاهرة(طبعة الحسينية ١٣٢٥ هـ / ١٩٠٧ م

* مسكويه (ابو علي احمد بن محمد) ت = ٤٢١/ ١٠٢٠ . **تجارب الأمم** ٤ أجزاء . مصر (شركة التمدن الصناعية) ١٣٣٢ / ١٩١٤ .

* ابن النديم (محمد بن اسحاق) ت = ٣٨٥ / ٩٩٥ . **الفهرست** . نشرة جوستاف جلوجن . بيروت ١٨٧٢ م .

* ابن هشام (ابو محمد عبد الملك) ت = ٢١٣/ أو ٢١٨/ ٨٢٧ أو ٨٣٣ . **السيرة النبوية** . تحقيق : مصطفى الشعار وابراهيم الابياري وعبد الحفيظ

شلبي بيروت (دار التراث العربي) . دون تاريخ .

* ابن الـوردي (عز الـدين عمـر) ت = ٧٤٩ / ١٣٤٩ . **تـاريخـه** . تحقيق : احمد رفعت الديراوي . بيروت (دار المعرفة) ١٩٧٠ م .

* أبـو تمام (حبيب بن اوس) ت = ٢٣١ هـ . **الـديـوان ٤ م** . فسـر الفـاظـه اللغوية : محي الدين الخياط/ القاهرة (دار المعارف) ١٩٥٧ م .

* أبـو العلاء المعـري (حمـد بن عبـد الله بن سليمـان) ت = ٤٤٩/ ١٠٥٨ . **اللزوميات**(طبعـة بمباي ـ المطبعة الحسينية) ١٣٠٣ هـ .

* أبـو فـراس الحمـداني (الحـارث بن سعيـد الحمـداني) ت = ٣٥٧/ ٩٦٧ . **الـديوان** . بيـروت (دار بيـروت ـ دار صـادر) ١٩٥٩ . **شـرح الـديـوان** . بيروت (دار مكتبة الحياة) . دون تاريخ .

* أبـو يوسف القـاضي (يعقوب بن ابـراهيم الانصاري) ت = ١٨٢/ ٧٩٨ . **كتاب الخراج** . القاهرة (المطبعة السلفية) الطبعة الخامسة ١٣٩٦ هـ .

* ابو شجاع الروذراواري (ظهير الدين محمد بن الحسين بن محمد بن عبـد الله بن ابراهيم) ت = ٤٨٨/ ١٠٩٥ . **ذيل تجارب الأمم** . تحقيق أمدروز مصر ١٩١٦ م .

* الاصبهـانـي ، ابــو نعيم ت = ٤٣٠/ ١٠٣٩ . **حليــة الأوليـاء وطبـقـات الاصفياء** . بيروت ١٩٦٧ .

* الاصفهـاني (ابـو الفـرج عـلي بن الحسـين بن محمـد) ت = ٣٥٦/ ٩٦٧ . **الاغاني ٢٠ ج** . طبعة بولاق الاصلية . دار صعب ـ بيروت . دون تاريخ من ٢٠ ـ ٢٤ مصـر (طبعة الهيئـة المصريـة العامـة للمكتبـات) ١٣٩٤/ ١٩٧٤ اشراف محمد ابو الفضل ابراهيم .

* البغـدادي الخطيب (ابـو بكر احمـد بن علي) ت = ٤٦٣/ ١٠٧٠ . **تـاريـخ بغداد** . ١٤ جزءاً . بيـروت (دار الكتاب العـربي) نسخة مصـورة عن طبعة صدرت بالقاهرة ١٩٣١ م .

* البلاذري (احمد بن يحيى) ت = ٢٧٩/ ٨٩٢ . **فتوح البلدان** . راجعه رضوان محمد رضوان . مصر (المكتبة التجارية) ١٩٥٩ .

* البيهقي (ابراهيم بن محمد) ت = ٣٢٠/ ٩٣٢ . **المحاسن والمساوىء** . وقف على طبعه فريدريك شوالي ١٣٢٠/ ١٩٠٢ .

* البحتري (الوليد بن عبد الله ابو عبادة) ت = ٢٨٤/ ٨٩٧٠ . **الديوان** . حققه حسن كامل الصيرفي . دار المعارف بمصر ١٩٦٣ .

* التبريزي (ابو زكريا يحيى علي بن محمد بن الحسن) ت = ٥٠٢ / ١١٠٩ . **ديوان ابو تمام** ٤ مجلدات تحقيق : عبده عزام . مصر (دار المعارف) ١٩٦٤ .

* التنوخي (ابو علي الحسن بن علي) ت = ٣٨٤/ ٩٩٤ . **الفرج بعد الشدة** ٥ أجزاء . تحقيق : عبود الشالجي/ بيروت (دار صادر) ١٣٩٨/ ١٩٧٨ . **نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة** ٨ أجزاء . تحقيق : عبود الشالجي/ بيروت ١٩٧١ .

* الثعالبي (ابو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل) ت = ٤٢٩/ ١٠٣٨ . **يتيمة الدهر** حققه : محمد محي الدين عبد الحميد . القاهرة (مطبعة السعادة) ١٣٧٥/ ١٩٥٦ .

* الجاحظ (ابو عثمان عمر بن بحر) ت = ٢٥٥/ ٨٦٨ . **التاج في اخلاق الأمم** . تحقيق : فوزي عطوي . بيروت (دار صعب) ١٩٧٠ .

* السبكي (تاج الدين ابو النصر عبد الوهاب السبكي) ت = ٧٧١/ ١٣٦٩ . **طبقات الشافعية الكبرى** . مصر ١٣٢٤ هـ .

* السيوطي (الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي) ت = ٩١١/ ١٥٠٥ . **تاريخ الخلفاء** . جزءان . بيروت (دار التراث) ١٩٦٩ م .

* الشابشتي (ابو الحسن علي بن محمد) ت = ٣٨٨/ ٩٨٨ . **الديارات**

تحقيق : كوركسي عواد . بغداد (منشورات مكتبة المثنى ـ مطبعة المعارف) ١٣٨٦/ ١٩٦٦ .

* الشيباني (محمد بن الحسن) ت = ١٨٩ / ٨٠٤ . السير الكبير. شرح : السرخي . القاهرة (طبعة الجامعة) ١٩٦٥ .

* الصابيء (هلال بن الحسن بن ابراهيم بن زهرون الحراني) ت = ٤٤٨/ ١٠٥٧ . الوزراء ، القاهرة (دار احياء الكتب العربية) ١٩٥٨ . رسوم دار الخلافة . بغداد (مطبعة العاني) ١٣٨٣ / ١٩٦٤ .

* الطبري (ابو جعفر محمد بن جرير الطبري) ت = ٣١٠/ ٩٢٢ . تاريخ الرسل والملوك . ١٢ ج ، تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم ، مصر (دار المعارف) ١٩٦٢ .

* عريب (ابن سعد القوطي) ت = ٣٧٠/ ٩٨٠ . صلة تاريخ الطبري . تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم . في كتاب : ذيول تاريخ الطبري (ذخائر العرب) . القاهرة (دار المعارف) ١٩٧٧ .

* القلقشندي (العباس احمد بن علي القلقشندي) ت = ٨٢١/ ١٤١٨ . صبح الاعشى في صناعة الانشاء ١٤ ج . الناشر : وزارة الثقافة والارشاد القومي (المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر والترجمة) دون تاريخ .

* الماوردي (ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب) ت = ٤٥٠/ ١٠٥٨ . الاحكام السلطانية ٤ أجزاء . القاهرة (مطبعة الوطن) ١٢٩٨ هـ . (المطبعة المحمودية التجارية) .

* المتنبي (احمد بن الحسين الجعفي) ت = ٣٥٤/ ٩٦٥ . شرح الديوان . (نخبة من الأدباء) . بيروت (دار مكتبة الحياة) ١٩٦٨ .

* المسعودي (ابو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي) ت = ٣٤٦/ ٩٥٧ . التنبيه والاشراف . بيروت (دار التراث) ١٣٨٨/ ١٩٦٨ . مروج الذهب ومعادن الجوهر . ٥ أجزاء . بيروت (دار الاندلس) ١٩٦٥ .

* المقدسي المعروف بالبشاري (محمد بن احمد) ت = ٣٨٧/ ٩٩٧ . أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم . ليدن (مطبعة بريل) ١٩٠٩ .

* المقريزي (تقي الدين ابي العباس احمد بن علي) ت = ٨٤٥/ ١٤٤١ . الخطط المقريزية . المسماة : بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . جزءان بيروت (دار صادر) دون تاريخ .

* النويري (احمد بن عبد الوهاب) ت = ٧٣٣/ ١٣٣٠ . نهاية الأرب في فنون الأدب . ١٨ ج . القاهرة (دار الكتب المصرية) ١٣٥٦/ ١٩٧٣ .

* ياقوت الحموي (ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله) ت = ٦٢٦/ ١٢٢٨ . معجم البلدان . ٥ ج . بيروت (دار صادر) ١٣٩٩/ ١٩٧٩ .

* اليعقوبي (احمد بن ابي يعقوب بن واضح) ت = ٢٨٤/ ٨٩٧ تاريخ اليعقوبي . بيروت (دار بيروت - دار صادر) ١٣٧٩/ ١٩٦٠ .

دائرة المعارف الاسلامية ١٤ م . نقلها الى العربية : عبد الحميد يونس - ابراهيم زكي خورشيد احمد الشنتناوي ١٩٧١ .

الف ليلة وليلة ٤ أجزاء . بيروت (مكتبة الحياة) بدون تاريخ .

القرآن الكريم المطبعة العثمانية ١٣٠٩ هـ .

المراجع العربية

* اسماعيل ، عز الدين ، في الأدب العباسي ، الرؤية والفن ، بيروت (دار النهضة العربية) ١٩٧٥ .

* امين احمد ، ضحى الاسلام ، ٣ أجزاء ، بيروت (دار الكتاب العربي) دون تاريخ .

* البوطي ، محمد سعيد رمضان ، فقه السيرة ، دمشق (دار الفكر) ١٩٨٠ .

* تدمري عمر عبد السلام ، تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور ، طرابلس - لبنان ١٩٧٨ .

* مسعود ، جبران ، الرائد (معجم لغوي عصري) بيروت (دار العلم للملايين) ١٩٦٤ .

* الجصاص (ابو بكر احمد بن علي الرازي الجصاص) ، أحكام القرآن ، القاهرة (مطبعة الاوقاف الاسلامية) ١٣٣٥ هـ .

* حسن ، ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي العصر العباسي الثاني ج ٣ القاهرة (مكتبة النهضة المصرية) ١٩٦٢ . طبعة سادسة .

* حماده ، محمد ماهر ، الوثائق السياسية والادارية العائدة للعصر العباسي

الأول بيروت (الشركة المتحدة للتوزيع) ١٤٠١/ ١٩٨١ الوثائق السياسية والادارية ، العائدة للعصور العباسية المتتابعة ، بيروت (الشركة المتحدة للتوزيع) ١٣٨٧/ ١٩٦٧ .

* الخضري (محمد الخضري) ، محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية ـ الدولة العباسية ، القاهرة . بدون تاريخ . الطبعة العاشرة .

* دروزة ، محمد عزة ، الجهاد في سبيل الله في القرآن والحديث ، دمشق / ١٣٩٥/ ١٩٧٥ .

* رستم ، اسد ، الروم وصلاتهم بالعرب ـ بيروت ١٩٥٥ .

* الرفاعي ، احمد فريد ، عصر المأمون . الطبعة الثالثة . ٣ أجزاء . القاهرة (دار الكتب المصرية) ١٩٤٨ .

* سالم ، السيد عبد العزيز ، تاريخ الدولة العباسية ، بيروت ١٩٧٢ .

* الشكعة ، مصطفى ، سيف الدولة الحمداني . القاهرة ١٩٧١ .

* شلبي ، ابو زيد ، الدولة العباسية ـ العصر الذهبي . مصر (مطبعة دار التأليف بالمالية) ١٣٨٩/ ١٩٦٩ .

* شاكر ، مصطفى ، دولة بني العباس ج ٢ ، الكويت (وكالة المطبوعات) ١٩٧٤ . في التاريخ العباسي ج ٥ . دمشق (مطبعة الجامعة السورية) ١٩٥٧ .

* الشوكاني (محمد بن علي بن محمد الشوكاني) ، نيل الاوطار شرح منتقى الاخبار من احاديث الاخبار ٩ ج ، القاهرة (المطبعة العثمانية المصرية) ١٩٥٧ .

* عاشور ، سعيد ، تاريخ الدولة البيزنطية ، بيروت ١٩٧٣ .

* عاقل ، نبيه ، الامبراطورية البيزنطية ، دمشق ١٩٦٩ .

* عبد المنعم ، ماجد ، الامام المستنصر بالله الفاطمي ، القاهرة ١٩٦٠ .

* العدوي ، ابراهيم احمد ، الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، مصر (مكتبة نهضة مصر) - الفجالة ١٣٧٠/ ١٩٥١ .

* عثمان ، فتحي ، الحدود الاسلامية البيزنطية جزءان القاهرة (دار الكاتب العربي للطباعة والنشر) دون تاريخ .

* عون ، عبد الرؤوف ، الفن الحربي في صدر الاسلام ، دار المعارف بمصر - ١٩٦١ .

* العريني السيد الباز ، الدولة البيزنطية ، بيروت (دار النهضة العربية) ١٩٦٥ .

* الفار ، عبد الواحد محمد يوسف ، اسرى الحرب ، (دراسة فقهية وتطبيقية في نطاق القانون الدولي) القاهرة (عالم الكتب) ١٩٧٥ .

* فرحان ، عبد الكريم ، اسرى الحرب عبر التاريخ ، بيروت (دار الطليعة) ١٩٧٩ .

* فوده ، عز الدين ، النظم الدبلوماسية ، (الكتاب الأول في تطور الدبلوماسية وتقنين قواعدها) القاهرة (دار الفكر العربي) ١٩٦١ .

* فيصل ، شكري ، المجتمعات الاسلامية في القرن الاول ، القاهرة ١٣٧١/ ١٩٥٢ .

* كرد علي ، محمد ، الاسلام والحضارة العربية ج ٢ ، القاهرة (لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٩٥٩ خطط الشام ، دمشق ١٣٤٣ هـ .

* كمال عمر توفيق ، مقدمات العدوان الصليبي ، القاهرة . دون تاريخ .

* كنار ، ماريوس ، الامير سيف الدولة الحمداني ، الجزائر ١٩٣٤ .

* المحاسني ، زكي ، شعر الحرب في ادب العرب ، دار المعارف بمصر ١٩٦١ .

* مغنية ، محمد جواد ، فقه الامام جعفر الصادق ٦ أجزاء عرض واستدلال .

بيروت (دار التعارف للمطبوعات) ١٤٠٢/ ١٩٨٢ .

* نقابة المهندسين العراقيين ، بغداد (عرض تاريخي مصور) ، بغداد ١٩٦٨

المجلات العربية

* الـزيات ، حبيب ، **مجلة المشـرق** ٣٥ . ج ١ ، كانـون الثاني ـ آذار ١٩٣٧ ، **مجلة الكتـاب** ، بغداد ـ السنـة التاسعـة ـ عـدد تمـوز ١٩٧٥ من صفحـة ٧ ـ ٥١ .


رابط بديل
lisanerab.com
أ. علاء الدين شوقى
www.lisanarb.com
twitter
مكتبة لسان العرب
facebook
مكتبة لسان العرب
instagram
مكتبة لسان العرب

المراجع الأجنبية المترجمة

* بوازار ، مارسيل ، انسانية الاسلام ، ترجمة : د . عفيف دمشقية ، بيروت (دار الآداب) ١٩٨٠ .

* بينز ، نورمان ، الامبراطورية البيزنطية ، مضاف اليه :

- فصلان في تاريخ الدولة البيزنطية لشارل ديل .

- فصل عن علاقة الاسلام ببيزنطة لفازيلييف .

- واسماء الاباطرة الرومان الشرقيين لستيفن رنسيمان .

ترجمة : حسين مؤنس ومحمد زايد . القاهرة (لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٩٥٠ .

* رنسيمان ، ستيفن ، الحضارة البيزنطية ، ترجمة : عبد العزيز جاويد ، القاهرة ١٩٦١ .

* فازيلييف ، العرب والروم ، ترجمة : د . عبد الهادي شعيره ، مراجعة : د . فؤاد حسين علي ، القاهرة (دار الفكر العربي) ١٩٣٤ .

* لانجر ، وليم ، موسوعة تاريخ العالم ، ترجمة : د . محمد مصطفى زياده ، القاهرة ١٩٥٩ .

* متز ، آدم.، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري . جزءان تعريب : محمد عبد الهادي ابو ريده بيروت ١٣٨٧ / ١٩٦٧ .

المراجع الأجنبية

BENEDICTINS . DES PARIS :

« VIES DES SAINTS. T. 3. 6 MARS 1941 (P. 112 - 113).

- VIES DES SAINTS . T. 11. 14 NOVEMBRE PARIS 1954 (P. 432 - 433).

BRILL.

ENCYCLOPEDIE DE L»ISLAM « LEIDEN.

CANARD MARIUS :

« DEUX EPISODES DES RELATIONS DEPLOMATIQUES ARABO « BYZANTINES AU XEME SIECLE (P. 11 - 69).

DANS BULLETIN D-ETUDE ORIENTALE. T. XIII.

ANNÉES (1949 « 1951).

DAMAS 1951 :

« RéLATIONS ENTRE BYZANCE ET LES ARABES (P. 98 - 119).

DANS STUDI ORIENTALISTICI, IN ONORE DE GIORGIA LERI DELLEVIDA. VOL 1. OMA 1936.

KHOURY, ADEL THEOPHYL :

« APOLOGETIQUE BYZANTINE CONTRE L-ISLAM (P. 253 - 254).

DANS LA REVUE PROCHE ORIENT CHRETIEN P. 29. JERUSALEM 1979.

MI QUEL, ANDRÉ :

« LA GEOGRAPHIE HUMAINE DU MONDE MUSULman. JUSQU AU MILLIEU DU IIeme STECLE. MOUTON PARIS « LA HAYE 1975.

P. PEETERS :

« S. ROMAIN, LE NÉOMARTYR (I mai 780) D'AFRÈS UN DOCUMENT GEORGIEN (P. 393 - 427) DANS ANALECTA VOL. 30. BOLLONDIA. TOMUS LXXIX - FASC. 1 - 11 .

فهـــرس

ملحق هذا الباب